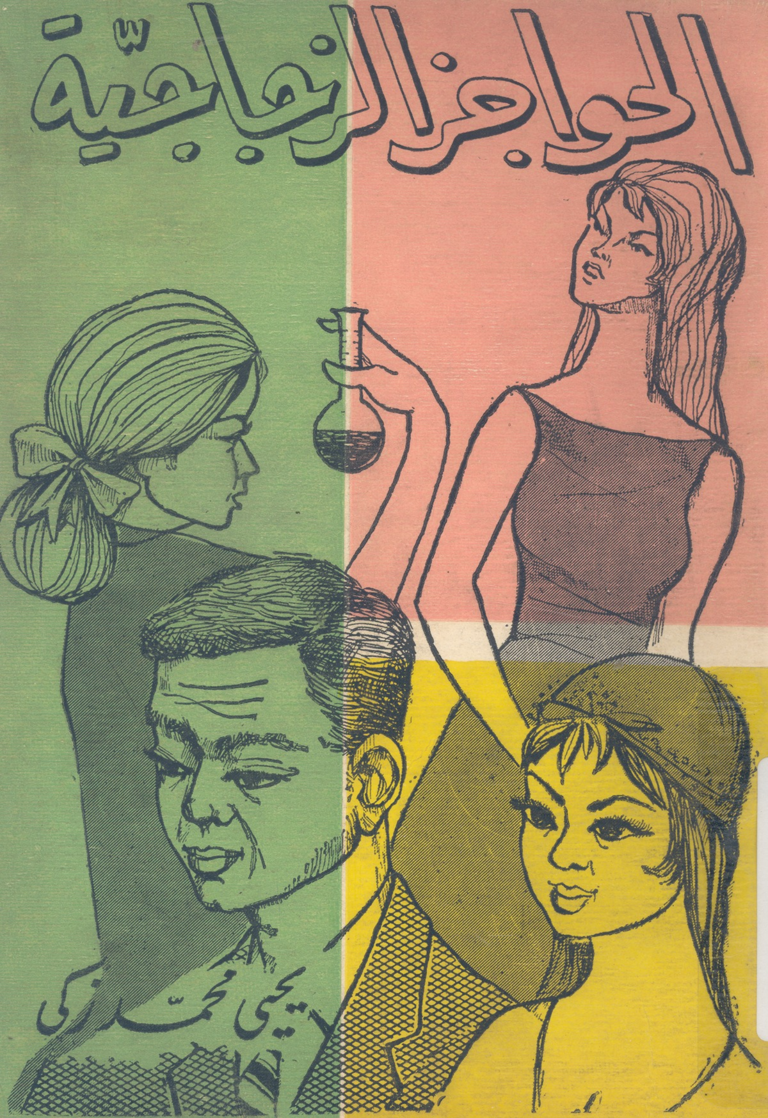

الحواجز الزجاجية
يحيى محمد زكى



يحيى محمد زكي

الناشر دار النهضة العربية

رقم الإيداع ٦٦٠١ / ١٩٧٠

دار النصر للطباعة

٨ شارع حسين حجازي ت ٣١٧٤٨ القاهرة

الفصـــل الأول

إيقاع القباقيب

— ١ —

الزمان : ١٩٦٢ علامة على طريق الأحداث .

المكان : القاهرة وليست كل المكان .

الحى : بولاق حى شعبى تميزه سمات خاصة .

المنزل : لا قيمة للمنزل أو لرقه فيما عدا تلك الغرفة التى بسطحه فلها من الأمر شأن .

الحى من أحياء القاهرة القديمة . كان مركزاً صناعياً وتجارياً هاماً أكسب أهله مهارات حرفية توارثوها عن أجدادهم تجعلهم يفضلونها فى كسب عيشهم . أما المنزل فمن أربعة طوابق ويعلو الدور الملاصقة مما يهىء لساكنيه عندما يصعدون السطح آفاقاً من الرؤية تمسح التاريخ . على المدى القريب مآذن لمساجد متناثرة عايشت مراحل مضيئة أو قاتمة من تاريخ مصر ولابد لهم أن يشاهدوا النيل الخالد باعث الحضارة منذ آلاف السنين يشق مراه العتيد وعلى شاطئه الغربى من الجهة البحرية تنتصب مداخن مصانع الطوب تقذف دخانها الأسود . تريد أن تعلو أبراج صوامع الغلال الحديثة . أما فى الجهة القبلية فهم يطلون على برج الجزيرة ذى الخطوط الخرسانية

المتقاطعة تتشكل نهاياتها كزهرة اللوتس فى وحدات متماثلة تدركها النظرة العامة ولا تلم بتفصيلاتها . وعلى الأفق البعيد تظهر أهرامات الجيزة كأشباح رابضة بصدرها على ربوة عالية ترقب القاهرة منذ أن كانت «منف العظيمة» .

تلك هى الصورة التى يتمتع بها قاطنا الغرفة الوحيدة بالسطح وهما حسن العفيفى وابن عمه محمود العفيفى . شابان قادمان من القرية المصرية التى دأبت أخيراً على أن تخفف عن نفسها فتدفع بشبابها إلى المدن سعياً وراء مجالات من الرزق أوسع أو اهتبالا لفرص التعليم المتفتحة . قدما من كفر صفط شرقية . الأول ليعمل سائقاً فى إحدى شركات النقل العامة ، والثانى يدرس فى السنة النهائية بكلية الزراعة جامعة القاهرة .

لم تكن الغرفة هى مكان الإقامة الوحيد بالسطح بل هناك أماكن أخرى للدجاج والأوز فى أقفاص وعشش يملكها أصحاب الطوابق السفلى .

الغرفة متسعة ويزيدها اتساعاً قلة قطع الأثاث بها . يمتلك معظمها حسن . أهم ما بها سرير كبير ذو أعمدة حديدية سوداء ترتفع نحو السقف عليه ملاءة كالحة . وفى الوسط تتربع مائدة مستديرة عليها بعض أدوات الشاى والطعام وبعض الكتب . وحولها كرسيان متواضعان. وفى الجانب الآخر من الغرفة أريكة تعلوها نافذة كبيرة رص على حافتها كتب ومراجع وأوراق خاصة بمحمود . وعلى الحائط ثبتت مرآة صفراء تستند إلى رف خشبى عليه عدة حلاقة ومشط وقطعة صابون . ودقت عدة مسامير كبيرة إلى الحائط وحملت بالقليل من الملابس .

ويعبر النافذة سلك كهربائى قادم من الشقة السفلى ويمتد إلى السقف حيث تتدلى منه لمبة كهربائية متواضعة تمنح رفيق الغرفة الضوء . ويشى هذا السلك الرفيع عن نوع من العلاقة بين قاطنى الغرفة وأصحاب تلك

الشقة . وهى بالتحديد شقة عبدالله إبراهيم أو عم عبدالله ، كما يطلق عليه . تقيم معه زوجته سنية وستة من الأنجال كبراهم فاطمة . فتاة غضة يفوح منها عبير الشباب لم تنل من التعليم إلا الصف الثانى من المرحلة الإعدادية ثم حجبت فى المنزل لتأهيلها للزواج أو لمعاونة أمها فى خدمة تلك الأسرة الكبيرة .

فى مثل هذه الساعة من كل صباح تنشط فاطمة فى تنظيف وترتيب المكان .. إلا أن ذلك العمل لا يصرفها عن أية حركة أو صوت يأتيهامن الغرفة العليا فهى دائمة التنبه لها خاصة لطرقات ذلك القبقاب . وما اهتمامها إلا بصاحب القبقاب ، ويأتيها الإيقاع الحبيب وتتوقف ترهف السمع ، وعندما تتيقنه تترك اللحاف الذى شرعت بنشره على حافة النافذة . ثم تسمع خرير ماء الصنبور ثم حركات متداخلة يختفى معها إيقاع القبقاب ويصدر بدلها خطوات خفيفة لأقدام تنتعل حذاء وتتمتم : « يبقى لازم خارج »

وعندئذ ينتابها نشاط من خلع إلى لبس وكأنها مست بتيار كهربائى وتهذب شعرها بسرعة لكنها عندما تنظر إلى المرآة تتأنى وتشد فتحة صدر الفستان تحبكه عليها وتظهر قليلا من ذلك الأخدود الغائر بين نهديها . وتتجه إلى باب الشقة . وتصادف أمها بقامتها الفارعة فتسألها : « رايحه فين ع الصبح ؟ »

ـــ طالعة لسى محمود علشان يشغل بطاريات الراديو .

ـــ وهى حكمت دلوقتى .

ـــ اصله رايح الكلية ويمكن ما يرجعش إلا بالليل .

ـــ هو مش أبوكى نبه عليكى من طلوع السطح لوحدك .

وتثور فاطمة لهذا الاعتراض وتقول « منعتونى عن المدرسة وعن الخروج وكان تحوشونى من السطح » .

وتحاول الأم تهدئة الفتاة قائلة «تعالى نرتب الفرش وبعدين اطلعي».

وفى الغرفة نفسها يبدو محمود متجهزاً للخروج ويشرب كوب شاى التى أعدها لنفسه . لكن إقتحام حسن عليه الغرفة يحرمه من خلوته ويسأله: خير إيه اللى رجعك تانى ؟ »

ــ المواعيد اتغيرت ح اطلع بالليل .

ــ يعنى مش ح تنام الليله هنا .

ــ أيوه وحلال عليك السرير .

ويدفع محمود إليه كوب الشاى قائلا : « خد .. إعدل دماغك » ثم يشرع فى إعداد أخرى وهو يتابع كلامه « والله يا أبو على سواقة الليل دى متعبة الك لكن با ترحم من نوم الكنبه » ويشير إليها .

ــ ولا يهمك كلها كام شهر وتتوظف وتشترى الدولاب والسرير وإلا العروسة تجيبهم ؟

ــ عروسة إيه وسرير إيه . أنا عاوز أخلص وأساعد أبوك .

ــ فيك الخير والله .

ــ أبوى تعب وشق علشانى وعلى الأقل أساعده فى تعليم صابر ولا اسماعيل .

ــ وهم لازم يكملوا علامهم؟ مالها السواقة ولاالخراطة ولاالنجارة ولا حتى الفلاحة ؟

ــ كل شىء نصيب . قولى قبل ما أنسى مفيش عندكم عربية رايحه انوحى الكفر .

ــ أسألك وإن شاء الله تقضى .

وهنا يأتى إلى سمعهما طرقات خفيفة على الباب يعقبها صوت ناعم « سى محمود . . سى محمود . . . » .

ويلتفت حسن نحو الباب وقد نشطت تعبيرات وجهه والتمعت عيناه ويقول « دى فاطمة . . إيه اللى جابها » ثم يفتح الباب ويتصدره بجسده وعيناه تمسح فاطمة من رأسها إلى عنقها إلى خصرها حتى ساقيها وترتد مرة أخرى إلى الصدر المتكور . تفاجأ فاطمة بحسن وتشهق « هه . . سى حسن . . حسن . . . » .

حسن — أيوه سى حسن .

فاطمة — ألاقى عندكم حجر بطاريه للراديو !

حسن — ما كانش يتعز اللى حيلتنا بطاريات عربيات .

ويتحرك محمود إلى الباب ليتدخل فى المناقشة وتراه فاطمة من فوق كتفى حسن فتقول « أصل سى محمود كان قال إنه يقدر يصلح البطاريات القديمة . . قلت يمكن عندكم حاجة زيادة » .

محمود — طيب يا فاطمة روحى هاتى الحجارة القديمة وأنا أشغلها وتذهب الفتاة . ويلتفت حسن إلى محمود فى شك وريبة ويعقب « أنا شايف إن موضوع البطاريات سلم علشان تطلع هنا » . ولما لم يجد رداً من محمود يقول:
— « البت طالعه بفستان حريا كاها ولما شافتنى اترعبت كانت عاوزاك لوحدك » .

— إيه اللى بتقوله ده . . فاطمة أخلاقها كويسه ولسه صغيرة .

— صغيرة . . معندهاش ١٨ ، ١٩ سنة يعنى تتجوز وتخلف كمان . وتلاقى أمها بتزقها علشان تجيب رجلك .

— فضلك من السيرة دى .

ــ أمال الدروس الخصوصى اللى طالع نازل تديها للمحسب أخوها تفسرها بإيه ؟

ــ جيران وباساعدهم .

ــ وأطباق المحشى والفتة والكنافة اللى رايحه وجايه .

ــ نظير الدروس .

ــ هأو . . دى علشان تدوق طبيخ العروسه يعنى جر بطن ثم جر قلب ثم جرك للمأذون ياعريس الغفلة .

ويرد محمود غاضباً «مادام تفكيرك كده أنا ح أبطل الدروس ومفيش حد منهم يجى هنا » .

ويتراجع حسن إزاء غضب محمود فيحاول استرضاءه « وده معقول ح تقول إيه للراجل الطيب عم عبد الله ... ح تعمل إيه لما الست سنيه تقطع سلك النور (مشيراً إليه) .. ح تذاكر فين » .

ــ عند أى حد من صحابى ... على لمبة جاز .

ويقترب حسن منه ويضع يده على كتفه وبلهجة هادئة « وأطباق المحشى والذى منه ح تأكلها عند صحبك . ماتخدش فى بالك يا أبوحنفى أنا بحسك أحسن تكون متعلق بالبت ولا غاويها » .

وتظهر فاطمة. جاءت تلهث. صدرها يعلو ويهبط بشدة. وينسى حسن ما كان من حديثه مع محمود وينصرف إلى فاطمة بكل حواسه يستمتع بصدرها اللاهث . وتأتى فاطمة بحركة لا إرادية بيدها على صدرها تخفى أخدود نهديها ويتنبه حسن لتلك الحركة فيقول لها بلهجة لطيفة « هاتى الحجارة وأنا ح أخلى محمود يصلحها » .

وتندهش فاطمة لابتعاد محمود عنها وهو المقصود بحركاتها فتعيد

القول لعله يقترب وتوجه إليه الحديث ، ومقام سيدى أبو العلا لأنت مخلصها الليلة قبل المسلسلة » .

ويضطر محمود لإجابتها ، إن شاء الله » .

فاطمة ـــ خليتكم بعافية .

يضع حسن البطاريات على المائدة وفى محاولة لجذب محمود من دائرة صمته يخاطبه «أنا نازل ح أتغدى بره وبعدها ع الجراح، ثم يتجه إلى الباب ويواصل كلامه ، وإذا لقيت عربية مسافرة الشرقية ح اسيبلك خبر» .

ـــ ربنا يسهل .

ـــ طيب السلام عليكم .

ولا يستطيع محمود أن يستمر فى جفوته فيقول «ترجع بالسلامه... خلى بالك من نفسك » ويبتسمان إعلاناً لانتهاء الحديث المتوتر .

ـــ ٢ ـــ

يعود محمود من الكلية مساء وحين يضع كتبه على المائدة يرى البطاريات راقدة فى مكانها ويتذكر الوعد المضروب وينشط يحضر قطعة من الخيط يربط بها البطاريات ويملأ الأبريق ماء ويضعه على الموقد ويدلى فيه البطاريات وعندما تغلى الماء يرفعها ويجففها جيداً ثم يتركها لتبرد ويختبرها واحدة تلو الأخرى بلمبة صغيرة . فتضىء ويسر لنجاحه فى إنجاز ما وعد .

يهبط إلى الطابق السفلى ليعيد البطاريات إلى فاطمة . ويفتح الباب رجل قارب نهاية الحلقة السادسة من عمره . يلبس جلباباً أبيض وطاقية يخفى بها شعره المشيب وقد أمسك بيده فوطة صفراء رخيصة يمسح بها فمه من آثار طعام ذلك. هو عم عبدالله كاتب القيودات بمرفق مياه القاهرة ويرحب بمحمود قائلا « أهلا مهندسنا ... اتفضل» .

يظل محمود واقفاً ينظر إلى ما بعد كتفى الرجل فيجد الأسرة جالسة حول المائدة يتناولون وجبة العشاء المكونة من عدة أطباق من الفول المدمس والعديد من أرغفة العيش المقدد وحزمة أو أكثر من الجرجير وتسقط عيناه على فاطمة التى تغض من بصرها فى خجل واضح .

يقدم محمود البطاريات إلى الرجل الذى لا يدرى من أمرها شيئاً فيتساءل بدهشة « بطاريات ... بطاريات إيه ؟ »

وتجذب فاطمة ملابس أمها لتتدخل وتنقذ الموقف وتنهض المرأة بجسمها الممتلىء وفستانها القاتم الذى تتعمد ارتداءه كثيراً لتظهر نصاعة بشرتها البيضاء . وقد غطت رأسها بمنديل زاهى اللون يمنحها طيف الربيع فى خريف عمرها وتقف تدعو محمود « اتفضل اتعشى معانا » .

محمود — متشكر متغدى وخرى .

سنية — ومقام سيدى أبو العلا لأنت متعشى معانا الليلة .

عم عبد الله — ادخل يابنى متزعلشى أم مختار منك .

ويدخلون وتجهز فاطمة بسرعة مكاناً وأدواتاً لمحمود بجوار أبيها . وتعد الأم طبق فول وتغمره بالزيت والليمون وتعلق « فول زى الزبدة مدمساه بايدى ولا بتاع أبو طربفة » .

عم عبد الله — تسلم إيدك يا أم مختار .

سنية — آهو شوية الفول دول كان يشتريهم عمك عبد الله بعشرة قروش دلوقتى اشترى الكيلو الناشف بثمانية قروش يعيشنا ثلاث مرات .

عبد الله — شوفى بقى العلاف وصاحب وابور الدش ولا اللى عنده مطعم بيكسبوا كام .

محمود — وهى محلات الفول زحفت لأحسن شوارع البلد من شوية ماهو من المكسب الكبير ده .

عبد الله ـــ أنا حسبتها مرة لقيت قدرة الفول تأخد كيلة وتكسب جنيه أو جنيه ونص .

محمود ـــ أبوى اللى بيزرع الفول ويشق فيه ست شهور مابيحصلشى على مكسب خمسين قرش فى الكيلة .

سنية ـــ يبق اللى يزرعه ويتعب ست شهور يكسب خمسين قرش واللى يدمسه يكسب جنيه فى اليوم . . . حرام والا حلال ده ؟

عبد الله ـــ شوفى الدنيا مليانه عجايب ازاى ! !

سنية ـــ وفى بلدكم بتزرعوا الفول من زمان ؟

محمود ـــ أنا أوعى جدى كان بزرعه ويمكن من قبل كده بكتير . . قدماء المصريين كانوا بيزرعوه ويكمروه ويدمسوه زينا دلوقتى .

مختار (١٣ سنة) ـــ يعنى تحتمس ورمسيس كانوا بياكلوا فول زينا كده ؟

عبد الله ـــ وإيه اللى دخل رمسيس وتحتمس فى الكلام ده ؟

محمود ـــ أصله بيدرسهم فى مقرر التاريخ .

مصطفى (٩ سنوات) ـــ طيب رمسيس وعرفناه بيشترى الفول من المحلات اللى قدامه فى ميدان المحطة لكن تحتمس بيشتريه منين ؟

ويتفجر الكبار فى الضحك أما الصغار فهم يشاركونهم الضحك إعجاباً بأخيهم الصغير . وينتهى العشاء وينصرف الصغار وتنهمك سنية فى رفع ما على المائدة وتأمر ابنتها باعداد الشاى . ويجلس عم عبد الله على الأريكة وإلى جوار محمود .

ويؤتى بالراديو ويجهزه محمود بالبطاريات ويدير المؤشر ويصدف أن تذاع أغنية قديمة لعبد الوهاب « فى الليل لما خلى . . . » ويعقب

عم عبد الله « أيوه ياسى محمد . . . ما لما خلى جبنا ستة » .

وتطلق زوجته ضحكة رنانه سخية الأنوثة وقد أدركت وجهة زوجها .

ويرجو مختار أباه « والنبي يابابا هات المحطة الثانية علشان المسلسلة »

عم عبد الله — أنت لسه ح تسمع راديو . . . قوم ذاكر .

سنية — الولد ذاكر وكلنا عاوزين المسلسلة .

ويستسلم الرجل لرغبات الجميع ويحرك المؤشر إلى المحطة الأخرى وهو يتمتم « شوف شاغلين عقلهم بالراديو وبالسينما » .

سنية — يتمتعوا فى عزك يا أبو مختار . . وعقبال التليفزيون .

ويرتفع صوت المذيع معلناً عن الحلقة . . . من مسلسلة المتهم البرىء وتدخل فاطمه حاملة الشاى وتقدم كوباً إلى محمود وهى تنظر إليه على أنغام اللحن المميز للمسلسلة ويتبادلان الابتسام .

— ٣ —

يصل محمود قريته ويخترق أزقتها الضيقة التى ما أن تتسع لرقعة من الأرض حتى تغطيها المياه الآسنة ويخوض فيها الأوز والبط ، ويتناثر روث الحيوانات هنا وهناك وتجمعه فتيات صغيرات بأيديهن المعروقة يقذفن به إلى مقاطف يحملنها على رؤوسهن ويسير محمود والأوز يفر أمامه ناشراً أجنحته صائحاً يثير انتباه الفلاحين فيخرجون من دورهم فى فضول شديد وهم الذين يترقبون أى شاردة أو واردة ليقطعوا به حبال صمتهم الذى فرضته عليهم طبيعة عملهم الزراعى وهم فرادى فى عزلة يحتويهم البصر ولا يلمهم السمع حتى باتوا فى شوق لممارسة الكلام والحديث . وإذا كان القادم هو محمود ابن القرية فحماسهم يزداد وفضولهم يتضاعف . عيونه مثنى وثلاث يرد تحيتهم بصبر دون أن يتبرم فهم أبناء جلدته وعشيرته .

ويدخل محمود داره وهي لاتختلف عن دور القرية إلا أن حائط الواجهة من الطوب الأحمر والنوافذ بنظام منازل المدن وليست كوات صغيرة . ويهبط درج المدخل إلى حوش الدار ويلتف حوله الجميع وتضمه أمه إلى صدرها الرحيب وتفحصه بنظراتها ثم تدعه للباقين ويمسكه الصغار من ساقيه مهللين فتنهرهم أخته الكبرى « إبعد ياوله إبعدى يابت »

محمود — سيبهم دول وحشونى قوى .

ويلحظ انتفاخ بطنها فيعلق قائلا « إنتى مش ح تبطلى خلف بقى » وتضحك « إنت بدك أعمل ذى بتوع مصر بعد عيل والا اتنين يمتنعوا عن الخلف » .

ويتجه محمود إلى حيث جلست جدته فى ركن قصى ينحنى إليها ويمسك بيدها مقبلا وتقول له بلسان متملثم وكلمات متآكله « إجبك (إزيك) يابنى »

محمود — إزيك إنتى . . . ربنا يمد لنا فى عمرك .

الجد — روح ربنا يفتحها فى وشك .

ثم يلتفت إلى أمه « أمال أبوى فين » .

الأم — ح يكون فين . . آهو فى الغيط وزمانه جاى .

محمود — طيب أنا رايح أجيبه .

ويمضى محمود إلى الغيط مصطحباً أخاه صابر معه ومن حولها الحقول الخضراء والفلاحون بين منحن يزرع أو يعزق أو جاث يلقط النباتات الغريبة . لا يمكن تمييز أحد عن الآخر فصورهم تحت الشمس متماثلة . ويلمح محمود أباه بقامته الطويلة ويسمع صوته الجهير تنقله الريح فيسرع

فى خطوة حتى يتلاقيا ، ويحاول محمود أن يلثم يد أبيه الذى يجذبها بسرعة لكن محمود يتمكن منها ويقبلها فيربت الرجل بيده الأخرى على كتف ابنه فى حنان فياض .

عثمان — أهلا .. أهلا .. إزيك يا بنى حمد الله بالسلامة .

محمو — الله يسلمك وإزاى صحتك .

عثمان — بخير والحمد.. خدت دور شديد جوى .

محمود — طيب مش كنت تبعت جواب

عثمان — ماالدش على أعطلك عن الدراسة .

محمود — أمى موصيانى ترجع بدرى .

عثمان — تعال الأول أفرجك ع الفول .

ويمشيان بين الخطوط على حافة المساقى إلى حقل الفول وقد ارتفع قرابة المتر وظهرت أوراقه اليانعة والأزهار البرعمية . ويتطلع محمود فيما حوله ويرى الأعواد مثقلة بالأزهار فيردد مستبشراً «بسم الله ماشاء الله ده الفول عال قوى» .

عثمان — بس ربنا يستر فى طوبة

— ده لو مشى على كده الفدان يرمى تمن أرادب .

— السنتين اللى فاتوا كان الفول يفضل سليم لحد طوبة ولما البرد يشد ألاقى الورق ويسود والزهر يجع .

— طيب مابلاش من زراعته .

ويقف الأب وقد أثاره قول إبنه ويعلق «طول عمرنا بنزرع الفول من أيام جدودك وبناخد منه محصول عال مافيش إلا البرد اللى تعبنا» .

— غير يابا شوف حاجة تانية أضمن .

ــــ وهو التغير سهل يا بنى عندك علوان وزهران عارفين كل حاجه عن الفول من تخطيط لرى البذرة لتسميد الرى . .

ــــ اللى علمهم الفول يعلمهم غيره

ــــ انت أصلك بتجرا الكتب كويس . . تعال وجرب بنفسك مع الخلج اللى هنا وانت تشوف .

ــــ هى زرعة واحدة وعلى التانيه يكونوا عرفوا كل حاجه .

ويغضب الأب ويتجهم وجهه ويصيح « زرعة واحدة ؟ دى ريه واحدة زيادة ولا بكير يمكن تضيع المحصول كله . . وساعتها نضمه ونديه للبهايم أما الخلج مش ح نلاجى نوكلهم .

ــــ مفيش لزوم للزعل يابا . . إحنا بنتفاهم .

ــــ أصلك يا بنى بتكلمنا زى الافندية اللى بيمروا يفتشوا علينا . ويستمران فى سيرهما والرجل يتلفت يميناً ويساراً يفحص الأعواد الخضراء ثم يردف : « الارض لازم تفضل مزروعة على طول لأجل نوكل العالم اللى هناك (مشيراً فى اتجاه القرية) ولانلهمهم ونعلمهم (مشيراً إلى محمود).

ويعقب محمود « هانبعه يابا كلها كام شهر واشتغل ويخف حملى »

ــــ هو آنى تعبان لاجل تجول الكلام ده . آنى اللى شاغلنى إنى مش ضامن الفول يصح وأسحب جرشين بجدم من الشيخ خليل وإلا البرد يحرج الفول ويصير المجدم دين .

ــــ هو انت لسه بتعامل الشيخ خليل وتخليه يشترى منك الفول بثمن أرخص من الجمعية إيه اللى يجبرك على كده .

ــــ يجبرنى اللى أمر منه . . بدى جرشين قبل ما نضم الفول .

ــ متقدرش تستنى شوية لغاية ما نجمعه .

ــ ماهو آنى لوسلته للجمعية مش عارف ح أجبض كام . لاعارف لى كام ولا على كام .

وتلتقط عينا الرجل شيئاً ما يستوقفه وينحنى يمسك بأعواد الفول ثم يعتدل منادياً زهران وعلوان ويأتيان جرياً .

عثمان ــ امال بتجولوا انكم خفيتم الفول مع الأنفار .

علوان ــ آنى خفيت الحوض البحرى .

عثمان ــ والحوض ده ما خفتوش ليه .

زهران ــ ما نهضنش . . ويوم الجمعة ح أشتغل فيه .

عثمان ــ واشمعنى يوم الجمعة ؟

زهران ــ لأجل أشتغل فيه أنا وعلوان وصابر واسماعيل بدل الأنفار .

عثمان ــ جصدك توفر جرشين ونضيع المحصول . . روح جتك البــــلى .

ويوقف محمود الحديث « مش نرجع البيت بقى » .

عثمان ــ انت جمت والا تعبت .

محمود ــ من ده على ده .

عثمان ــ هات يا علوان الركوبة . وعاوزك تلم الأنفار وتخلصوا الحوض الجبلى .

وفى الطريق إلى القرية يستمر الحديث فيقول الأب « وعامل إيه فى الدراسة ؟ » .

ــ ماشى الحال .

ــ ما فيش حاجة صعبة ولا كتاب ناجصك ؟

ــ كتابين . . عاوز أشتريهم مستعملين .

ـــ ليه ... مفيش جديد منهم .

ـــ المستعمل أرخص .

ـــ هو آنى افتجرت خلاص ولايعنى علشان ماجلت لك إنى ح اسحب جرشين من الشيخ خليل .. تمنهم كام الكتابين دول ؟

ـــ ميتين وسبعين قرش .

ـــ وهى دى الجرشنات اللى بدك توفرها .

ـــ مايطلموش تمن نص أردب فول ؟

ـــ بس نجاحك أهم من الفول وأهم من الدرة وكمان أهم من الجطن.

ـــ ربنا يبارك لنا فى عمرك .

ـــ آنى مستنى اليوم اللى تبجى فيه مهندس زراعة .

ـــ ربنا يقدرنى على رد جمايلك وتعبك .

ـــ ده واجب يابنى وكمان متنساش إن كل اللى حيليتنا خمس فدادين وأربع جراريط وعمرهم مايجضوا عيليتنا الكبيرة .

ـــ فعلا .

ـــ يبجى لازم نخف الناس من ع الأرض ذى ماينخف الفول وينخف الشجر . يعنى اللى يتوظف واللى يشتغل فى تجارة وإلا فى صنعة لازم يخرج من الأرض . أما الباجى فرزجه من رزجها . وليك على كمان لما تبجى، تتجوز أساعدك فى المهر . أظن بعد كده ماعدش لك حج تبص للأرض »

ـــ أنا لو بصيت علشان أزودها مش آخد منها .

ـــ ربنا يفتح عليك يابنى .

ويتقدمان إلى دارهما ومن حولها الأرض الخضراء تبارك ذلك الوعد

يعود حسن تعباً من عمله فيجد الغرفة خالية . ويخلع عنه ملابسه وتظهر عضلات ذراعيه القوية وصدره الكثيف الشعر . ويخلع حذاءه ويبحث عن (شبشبه) فلا يجده فينتقل القبقاب الخشبي الذى يستخدمه محمود ويتحرك هنا وهناك ويدب بقدميه دبيباً قوياً تسمعه فاطمة . فتبتسم وتنظر إلى السقف وقد هوى لها أن محموداً أعاد من رحلته وتحول ظنها إلى فكرة بلقاء سريع تبثه عواطفها وتستنطقه عبارة أو عبارتين عن الحب والغرام بدلا من تلك النظرات الصامتة والكلمات المغلقة والتلميحات الغامضة . تلبس فستانها ذا الصدر المكشوف وتمشط شعرها وتنثره على كتفها ليكون بلونه الأسود الناعم ستارة خلفية لنحرها البلورى . وتحمل وعاء به ماء وبقايا من طعام ... أى طعام وتعلن أمها « أنا طالعة للفراخ ياأم » وتمضى مسرعة قبل أن تمنعها أمها . وترى باب الغرفة مردوداً يحجب عنها مابداخله . وتطلق الدجاج وتثيرها لعلى ضجيجها يخرج فتاها من غرفته . ثم تنادى الدجاج « بيتك بيتك ... بيتك » لكن لايجيب ولا يستجيب وتشاء دجاجة أن تندفع إلى الغرفة فتجرى خلفها لتمسكها أو لتمسك بتلابيب غرامها وأملها .

وتفاجىء بحسن ويخرج منها صوتاً أشبه بالحشرجة « هـ...هـ... » ثم تأتى باشارات بيديها وبرأسها وهى تتلعثم « أصل ... أصل ... » ويهز حسن رأسه متفهماً قصدها وهو يتأملها بلهفة ورغبة ويقول : « ولا يهمك أنا أمسكهالك .. دى كانت شغلتى وأنا صغير » .

ويحبو إلى الأرض ويرفع ملاءة السرير ويرى الدجاجة قابعة فى

ركن قصى فيلتفت إلى فاطمة «إقفلى الباب عاشان ما تهربش» ثم ينظر إلى النافذة المفتوحة فينهض لغلقها ويدعوها لمعاونته «تعالى جنب الكنبة علشان لو جريت منى تمسكيها».

ويزحف على أربع ويسقط بصره على ساقيها المخروطتين وجزء من فخذيها المستديرين ويزدرد لعابه ثم يقترب من الدجاجة التى تفر إلى الناحية الأخرى أسفل السرير. ويطل حسن إلى فاطمة ويقول «وطى يا فاطمة وأمسكيها معاى».

وتنحنى إلى جواره ويتدلى نهداها المتكوران. وتتشبث عيناه بهما لحظات حتى تتحرك فاطمة نحو الدجاجة. وفى محاولة مشتركة بينهما للامساك بها تتشابك أيديهما لكن بدونها فقد قفزت بعيداً عنهما صائحة مولولة

ويظل حسن مطبقا بيده على يد فاطمة وعيناه على عينها والرغبة العارمة تلهبه وتتوجس فاطمة منه وتنظر إليه بقلق وتجذب يدها وتهز حركتها فيميل عليها يقبلها وهو يتمرغ يتشمم لحمها وعرقها وشعرها ويضغط بجسمه عليها حتى تسقط إلى جواره ويحتويها بذراعيه لكنها تقاومه بكل قوتها ولا تمكنه من نفسها. ويصدر عنها أنات خافته وتهمهم «سيبنى يا مجرم» وهو لاه عنها. وجسداهما المختفيان بملاءة السرير كستاره المسرح يحجب بعضا مما يدور وراء الكواليس بترك سيقانهما العارية تظهر وهى تتصارع. السيقان الغليظة تحاول أن تحتوى السيقان الناعمة التى تجاهد للافلات والفكاك وفى هذا الاشتباك المحتدم تصيح فاطمة «ابعد عنى يا سافل... يا مجرم».

لكن حسن لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم تركزت جميع حواسه على رغبة واحدة ركبت كل قواه وملكت كل تفكيره. وتزداد الحركات

عنفاً حتى صار الجذب والشد أقوى من الصد والرد . وأصبح الاحتواء والالتصاق أمراً مقضياً ولهثات حسن تتعالى كالخوار وفجأة تصرخ فاطمة صرخة الصحوة الأخيرة « سيبني أنا فى عرضك .. حرام عليك »

لكن حسن لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ولا يصدر عنه إلا أنفاس لاهثة لاحقة . ثم يأتى صوت فاطمة باكياً ناحباً بعد أن نفذ السهم الدامى . وتولول « حرام عليك ... حرام عليك » وساقيها تنتفضان فى ألم ممض .

وينهض حسن وقد أولى الغرفة كلها ظهره لا يريد أن يرى أو أن يرى جرمه فى الراقدة تبكى وتضرب الأرض بقبضتى يديها . ثم تزحف خارجه من أسفل السرير وهى تحدث نفسها « مستحيل .. مستحيل مش ممكن » ثم تتساءل « ح أقول لأمى إيه ولا أبوى ؟ »

وينزعج حسن لهذه الكلمات الخطيرة فيحذرها « أوعى تقولى لحد »

— آه يا مجرم

— سامحينى يافاطمة أنا مستعد لأى حاجه — اللى تأمرى بيه أعمله

وتنهض والدموع والتراب على وجهها وشعرها المتهدل وفستانها المتسخ ترسم عليها صورة الانكسار والهزيمة وتقف متخاذلة ويتقدم حسن نحوها لاسترضائها فتنزع منه وتقفز إلى الأريكة وتشير إلى النافذة بيدها وقد جحظت عيناها وتهدد « أوعى تقرب منى وإلا أرمى نفسى وأستريح من الدنيا »

ويجفل حسن ويتسمر فى مكانه وفى صوت مضطرب « إعقلى يا فاطمة آدينى بعدت » ويتراجع إلى أقصى الغرفة بعيداً عنها » .

وتهبط مغادرة الغرفة دون أن تتلفت يمنة أو يسره تخرج لمجرد أنها شعرت بحاجتها للهروب مما حدث وعلى وجهها تعاسة ويأس ويظهر

الضياع على ذراعيها المتدليتان إلى جانبيها فى تخاذل وقنوط سلبت منها القدرة على الحركة وإرادة الحياة .

وتدخل غرفتها لتخلو بنفسها فقد أسقطتها الإصابة فى هوة سحيقة من الحيرة . لا تستطيع أن تبوح بمأساتها حتى لأمها ولا يمكنها أن تشرك معها فى أمرها أحداً : حاصرتها الفجيعة وأحاطت بـ ا وعزلتها عن ا لناس

وتتهالك على سريرها ودموعها تنساب تبلل الوسادة وتنشج نشيجا مكتوما تنفث به بعضا من مرارتها ويلفح الهواء وجهها فتشعر ببلل خديها فتمسحها بحركة تلقائية وكأنها تحاول أن تمسح ما علق بها .

وتأتيها خطوات أمها ويسبقها نداؤها فتنهض بسرعة لتهذب قليلا من شكلها ولتخفى إضطرابها وتدخل الأم وتقول « إنتى فين يافاطمة . . . مالك يابنتى . . تعبانه ؟ »

ــ أبدا ــ راسى بتوجعنى شويه .

لكن لا ترتاح الأم لحال ابنتها ولا لصوتها الواهى فتعيد السؤال « أمال شكلك متغير ليه ؟ »

ــ أصلى وأنا بأمسك الفراخ دماغى إدقمت فى الحيط وقمت ودخت

ــ طيب مش كنتى تزعقى على

ــ مقدرتش

ــ والفراخ ؟

ــ سايبه

ــ طيب استريحى وأنا طالعه أشوفها .

وتنفـرد فاطمة بنفسها كما أحبت أن تكون وينشط عقلها وترى

ما هاق بفستانها فى المرآة ، وتحاول أن تزيله بلا فائدة . وترفع نظرها
إلى وجهها « وتحدث نفسها « محمود راح خلاص . . . ما عدش
أنفع له ... ولا لغيره » وتفكر فيما آلت إليه . لقد سلبها حسن
حريتها . لم تعد تملك ذلك الشيء الذى يمكنها به أن تختار رجلها لم يعد
لها الحرية أن تقول لهذا لا أو لذاك نعم مثل الفتيات الأخريات ، ضاعت
حريتها وشلت إرادتها ، ليس لها أن تريد ،ولا أن ترغب . ليس أمامها
إلا أن تقبل وأن ترضى بالمعتدى عليها وتحرك شفتيها بما يدور فى
رأسها « مفيش قدامى غير المجرم النذل » .

وتسأل نفسها كيف يمكن أن تتقبله وتعيش معه وقد استولى عليها
عنوة وقصراً لتتزوجه برضاء المرغمة ولتعايشه بموافقة المقهرة لكن
لتتعسه وتشقيه وتسقيه كأس المرارة كما أذاقــها لتنتقم منه وتعذبه
وتتشفى فيه .

رغم إحساس حسن بالذنب ورغم قلقه وتخوفه إفتضاح امره وانتشار
سيرته بين الأزقة والحوارى إذا اكتشفت سنية الأمر أوما قد يترتب
على ذلك من عداوة وبغضاء تمتد لتشمل أهل الحى الذين يكنون لعم
عبد الله الإحترام والتقدير وقد يستفحل الأمر لتتدخل فيه النيابة
والقضاء .رغم كل هذه التخوفات فإنه يستطيع أن يسترد هدوءه بعد أن
توصل إلى حل ومخرج لنفسه فيذهب باحثاً عن تاجر مصوغات ويدخل
دكاناً ويشاهد معروضاته ويختار سواراً ذهبياً مرصعاً بفصوص حمراء
قانية ثم يجرب خاتماً لخنصره وينتقى آخر أصغر حجماً يصلح لفاطمة
ويساوم البائع ثم يمضى دون شراء .أتى بكل تلك الأفعال ليعبر بها عما توصل

إليه فكرة بأدق الإجراءات . أراد أن يتصرف عملياً كيف يتخلص من مأزقه فيما لو تأزمت الأمور . ويعود إلى غرفته هادىء البال ساكن الضمير .

— ٥ —

يعود محمود من قريته . ويفاجأ بنية حسن وتصميمه على الزواج من فاطمه خاصة عندما يقول محمود فى انفعال واضح « أظنك حتقولى لسه صغيرة » .

— أبداً بس إنت عمرك مافتحت السيره دى .

— لازم أتجوزها ... لازم ... أنا تعبان ... زهقت مش قادر استحمل ...

— يعنى بتحبها مثلا .

— بحبها ... مابحباش ... آهو لازم أتجوزها .

— خلاص ... إبعت هات عمى يكلم أبوها .

— لا ... ننزل أنا وإنت وبعدين يجي أبوى على مهله

وفى شقة عم عبد الله يجلس الأربعة . ويلاحظ عم عبد الله مظهرهما شبه الرسمى ويستنتج أن فى الأمر شيئاً ويوجه كلامه إلى محمود ، حمد الله على السلامه » .

محمود — الله يسلمك .

سنية — أهلا ... أهلا ... إحنا زارنا النبى .

حسن — إحنا اللى بنتشرف بيكم ... ناس كل طيبون .

عبدالله — ده من ذوقك يا ابنى .

حسن — والله أنا حبيت الحى وأهله علشانكم . بأحس إنى فى وسط أهلى .

سنيه — ما أحنا ذى القرايب وأكثر .

حسن — ياريت ونزود القرابة بنسب من بيتكم الأصيل .

وما أن تعبر كلمة نسب أذن سنية حتى يتهلل وجهها فرحا وتنظر إلى محمود مرة تلو الأخرى ثم تعقب وهى تبسم له « دا إحنا اللى بنتشرف بيكم » .

عبد الله — وى ! عملى شاى .

سنيه — شاى إيه ياخويا ... قول شربات .

حسن — الشربات ده على أنا .

وتطرق كلمات حسن إذن سنيه وتثير فيها الحيرة ويدور استفهام فى رأسها أيهما المتقدم للزواج ؟ محمود الصامت أم الذى يلمح ويلوح . وترمق زوجها لعلها تفهم منه شيئا . لكن الرجل يستقبل نظراتها وتنتقل إليه بحيرتها فيوجه سؤالا محددا إلى محمود وهو العريس الأقرب إلى ظنه « لا مؤخذة ياباش مهندس هو والدك عنده فكرة » .

وينزعج حسن لهذا السؤال فيتدخل على الفور يشد إليه حبال الحديث به « هو عمى عثمان فعلا له كلام فى الموضوع بس أنا كلمت أبوى من زمان عنكم وهو موافق » .

ويقطع قول حسن كل شك وريبة . وتتبادل سنية وزوجها النظرات إدراكا لما قيل ... وتذوى الإبتسامه من ثغرها ويعقب عم عبد الله « نعم الشباب ونعم الاخلاق » .

حسن — ونعم النسب .

وتنسى سنية أو تتناسى موضوع الشاى والشربات وتنهض قائلة « أما أروح أسأل البنية قبل ما تربطوا وتحلوا ... بنات اليومين دول لها أحكام » .

وتجد سنية إبنتها راقدة على سريرها وتقول لها « مش تقوى بقى أنا عندى لكى خبر يفرح كل بنت » .

وتدرك فاطمة ما ستقوله أمها فتعتدل نحوها دون أن يبدو عليها أى انفعال . وتردف الأم «حسن جاى يطلبك من أبوكى . . . إيه رأيك ؟»

— رأى رأيك يام مادام موافقة خلاص .

وتتعجب سنية لهذا الاستسلام السريع وهى تعلم ما تكنه لمحمود من حب وعاطفة. فتعيد سؤالها : « وإنتى موافقة من قلبك » ؟

— أيوه

— شاورى نفسك إحنا مش مستعجلين على الرد

— إللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش

— طيب ومحمود مش على بالك .

— كان . . . لكن لا بيودى ولا بيجيب . أطلع السطح عشرين مرة أكلمه وأحركه لكنه لا يرد ولا يصد .

— بس يابنتى الجواز مش لعبة فكرى كويس

— أنا موافقة ياأم . . ومحمود مش ممكن يتجوزنى بعد حسن ما . . ما .

ثم تنفجر باكية ناحية . وتقترب أمها تحضنها وقد انزعجت وتسألها « إيه هو إللى ما . . . ما . . . ما تتكلمى . . . » .

— بعد حسن ما طابنى مش ممكن يبقى عندى أمل فى محمود .

— فكرى كويس .

— أنا خلاص فكرت .

— طيب قومى إلبسى وتعالى أفندى معانا شوية .

— مالوش لزوم ماهو شافنى حته حته . . . حيشوف فى إيه تانى ؟
وتمعن سنية النظر فى ابنتها لتدرك كنة هذا الإستسلام المشوب بالمرارة والجمود . فلا هى فرحة فرحة الفتاة بعريس ترضاه ولا هى ثائرة ثورة الرافضة لعريس تأباه . وتظن الأم أن حزنها بسبب خيبة أملها فى محمود وتحاول أن تسرى عنها فتقول « وماله حسين راجل ملو هدومه وكسيب ح يسعدك ويبسطك » وتتركها لتعود إلى المجتمعين المنتظرين القرار . وما هى بقرار إنما هو إقرار لواقع حدث . وتعلن سنية موافقة العروس وتتسع ابتسامة حسين فقد أزيح عن صدره ثقلا فيقول « الحمد لله . . وعلى خيرة الله » .

عبد الله — وعلى بركة الله . . . المرة إللى جاية تيجى مع والدك
حسن — إن شاء الله . . . ونقرأ الفاتحة .

ويتلون الفاتحة توثيقاً للاتفاق وتأكيداً لنية الزواج .

الفصل الثانى

جذب وصد

- ٦ -

ينهى د. سلطان محاضرته ويغادر المدرج ثم يتوقف بعـــد مسافة قصيرة فى ردهة طويلة ذات نوافذ زجاجية عريضة تطل على حقول التجارب التابعة لكلية الزراعة ثم يشعل غليونه فى بطء ملحوظ ليتيح لأكبر عدد من الطلبة والطالبات أن يلتفوا حوله . وتبرق عيناه رضاً وفخاراً عندما يتكاثرون ويتدفقون . فهو كالمطرب والفنان لابد له من جمهور يعيش به والحق فإن د. سلطان استطاع أن يحوز إعجاب الشباب بأسلوبه العلمى المتين ومادته الغزيرة يقدمها فى محاضراته بثقة المتحدى جرأة الممكن وبتعليقاته اللاذعة لمن يقع فى مطبات علمية عن أمراض النباتات . ويتلفت حوله سعيداً بهذا الجمع ويستحث الطلبـة للمجادلة منه ... عاوز حاجة يا زغلول ... المحاضرة صعبة ؟ » .

ـــ سيادتك شرحت كل حاجة بس الملازم ١٦ ، ١٧ متأخرة فى المطبعـــة .

ـــ أنا كلمت المطبعة علشان تستلموها الأسبوع القادم .

طالب آخر « طبعة السنة اللى فاتت ممكن تنفع » ؟
ـــ الطبعة الجديدة مليانه إضافات جديدة عن تأثير المواد المشعة في علاج أمراض النباتات .
ـــ يعنى لازم أشتريها ؟
ـــ يعـــنى ؟
ويندفع محمود يزاحم الطلبة ليقترب من د. سلطان وفى طريقه يحتك بإحدى زميلاته ويلتفت نحوها معتذراً ويستمر حتى يقف أمام د. سلطان ويقول « لو سمحت يادكتور عندى مسألة خاصة عاوز مساعدة سـيـــادتك » .
ـــ مسألة خاصة ؟ ؟ حب ولا زواج ؟
وينفجر الطلبة ضاحكين ويحرج محمود لكنه يردف « أقصد مسألة زراعية خاصة » .
ـــ حاجة لم ترد فى المنهج
ـــ أيوه
ـــ أظنك لو قريت كتبى وأنا واضع نسخة منها فى المكتبة ستجد فيها ردا لسؤالك .
ـــ أنا قريتها ومقدرتش أحصل على إجابة كاملة وحاول ....
ويقاطعه د. سلطان : «مش معقول تكون قريتها دول (١١) كتاب».
ـــ أنا متابع كتب سيادتك من يوم إلتحاقى بالكلية لأنى معجب بأسلوب سيادتك العلمى
ويطرب د. سلطان بهذا الكلام فيجيب ، «طيب مر على بالقسم»!
ـــ بس يادكتور عاوز أقول إنها خاصة بالقول لما ...

ـــ فول . . عدس . . دره . . قرع . . برضه تمر على .

ثم يتحرك بين صخب وضحك الطلبة لذلك التعقيب . ويخجـــل محمود وينسحب بهدوء وكانت هناك نظرة مشفقة تتبعه من زميلته التي كان قد اعتذر إليها منذ لحظة وجيزة . ويلمح محمود نظرتها ويرتاح لها .

وفي الموعـــد المضروب يذهب محمود إلى د. سلطان . ويقرأ على باب مكتبه لوحه خط عليها بحروف واضحة « رئيس قسم أمراض النباتات ـــ د. فؤاد سلطان » يدخل محمود ويجد د. سلطان واقفاً منهمكا يعد حقيبته موشكا الخروج ويرمق محموداً بنظرة ثم يقول : « ه . . . بتاع المشكلة الخاصة » .

ـــ أيوه .

ـــ خش في الموضوع بسرعة عندي اجتماع بعد ربع ساعة في الهيئة العامة لمكافحة الآفات الزراعية

ـــ طيب اجي لسيادتك وقت تاني

ـــ لا . . إحكي موضوعك

ـــ في بلدنا كفر سفط شرقية بنزرع الفول ولما يعقد في ديسمبر يجي البرد يوقع الزهر .

ـــ دي مشكلة قديمة وعاوزني أعمل إيه . . . أصلح الجو ؟

ـــ مش قصدي . لو سيادتك تقولي نصيحة أنور بها الفلاحين .

ـــ إقرأ كتابي « أمراض النباتات البقولية . الفصل الخامس »

ـــ قريته يا دكتور ما لقيتش فيه حاجة .

ويحتد د. سلطان « اقرأ تاني وتالت ورابع لغاية ما تفهم كويس وبعدين تيجي أناقشك » .

ويذهب د. سلطان تاركاً محمود غارقاً فيما قيل له من كلام لايسمن ولا يغنى من جوع وهو الذى كان يأمل فى فكرة أو نصيحة مباشرة يفجرها د. سلطان تنهى حيرته ومتاعب أبيه ومتاعب أهل قريته .

يذهب محمود إلى المكتبة باحثاً عن الكتاب المنشود ، ويستخرج بطاقته فيجده بالاستعارة . ويتجه إلى أمين المكتبة الذى يلجأ إلى مجلداته ويلتقط رقم البطاقة ويقرأ « بالاستعارة الخارجية . الطالبة فايزة على مصطفى. السنة الرابعة . الشعبة العامة . تاريخ الإستعارة ١٠/١١/٦٢»

ــ دى زميله معانا ... طيب مافيش نسخة ثانية .

ــ مدة الاستعارة انتهت وأنا ح أطلبه منها . فوت بعد يومين ،

وفى الموعد المحدد ينتظر محمود بالمكتبة زميلته والكتاب. وتدخل بسيطة المظهر نحيلة القوام تربط شعرها برباط رفيع وترمى رأسها إلى الخلف .وتتجه إلى أمين المكتبة الذى يقول لها « مدة إستعارة الكتاب انتهت و فيه طالب عاوزه» وعندما يرى محمود قادماً يعقب « وآهوجه كان »

وتسال فايزة محموداً فى نبرة جافة : « عاوز الكتاب إمتى ؟ .. »

ــ النهاردة إذا كان ممكن .

ــ لك الحق تاخده دلوقتى لكن أنا فاضلى الفصل السادس.

ــ بتاع أمراض الغول .

ــ أيوه

ــ معنديش مانع انتظر بس لدينى ملخصاتك

ــ يبقى اتفقنا ومتشكرة

ــ نا اللى متشكر

ويغادران المكتبة معاً هابطين السلم والحديث مستمر وتقول فايزه « وانت كان ح تقدم ورقة فول عن الصويا »

— فول الصويا . . . أنا مش مطلوب منى حاجـــة . أنا بابحث مشكلة خاصة بزراعة الفول البلدى بتاعنا .

— قصدك الهورس بينز . طيب ده فى الفصل الخامس

— أنا كنت فاكرك مهتمه ذى بالفول البلدى . أصلى بابحث أسباب تساقط زهر الفول فى الصقيع .

— يعنى مش مستعجل قوى .

وقد أثارته عبارتها « مش مستعجل إزاى كلها شهر وطوبة تيجى بردها والزهر يقع والمحصول يقل » .

وتؤخذ فايزة بغضبه وهو مستمر فى كلامه « ملايين الناس عايشة ع الفول . لحم الفقير وغذا الملايين . كيلو اللحم بستين قرش وكيلو الفول بثمانية قروش بنزرعه فى بلدنا بدون ما نستورده . لاعاوز جزارين ولا بيطريين ولا ثلاجات » .

— لكن ده إنت متحمس قوى .

— لازم أكون متحمس . أهـــلى بيزرعوه وعايشين بيه ، وأنا كبرت بين أعواده وعشت عمرى فى الغيط .

— حاجة جميلة انفعالك بالزراعة

— أنا باسميها ولادة زراعية . زى الأم والأب بينتظروا المولود الفلاح وأهله بيستنوا المحصول .

— إنت أثرت حماسى وأعدك إنى أخلص الكتاب قبل أسبوع .

— متشكر .

وفى منزل فايزة بحى المنيل تجلس إلى مكتبها الصغير وبين يديها الكتاب المبتغى تقلب صفحاته حتى تبلغ الفصل السادس وهو الخاص بفول الصويا وتشرع فى القراءة لكن خيالها ينقل إليها صورة محمود وصوته الصادق وعبارته الخاصة وتعجب لهذا الفتى المليء بالإيمان بمشكلة قريته يسعى جادا لمديد المساعدة العلمية لهم ويتحول تعجبها إلى إعجاب بهذا النمط الخلقى الإرتباطى الذى لم تصعقه تيارات المدينه الكبيره ولم تلهه أمور الشباب وتنتقل من حالة التأمل والتخيل إلى عمل إيجابى فتكر الكتاب عائدة بصفحاته إلى الفصل الخامس وتقرأه باهتمام وتضع قصاصات من الورق بين الصفحات الهامة وتدون بعض النقاط ويمضى الوقت حتى يكاد الليل أن ينتصف ويدخل أبوها يستحثها للنوم « مش كفاية مذاكرة حقك تنامى بقى »

— اسه شوية ... ساعة كان .

ويخرج الاب وتذرع فايزة الغرفة جيئة وذهابا وهى تردد بعضاً مما قرأته فى صوت مسموع روفيستافابا ... الفول محصول بقولى يستخدم للغذاء الإنسانى من أهم مصادر البروتين . يحتوى على ٢٤ ٪ منه. يزرع فى دول كثيرة وفى مصر منذ الاف السنين . نبات وتدى تتعمق جذوره فى التربة .....

وتتوقف عن السير وتعود إلى مكتبها لتستأنف الموضوع الذى يهم محمود أما ما يخصها فقد نحته جانبا إلى حين .

* * *

يذهب حسن لزيارة خطيبته حاملا علبتين . ويلبس حله جديدة مصففاً شعره بدهان سال بعض منه على جبينه . وترحب به سنيه :

« أهلا بالعريس »

— أهلا بيك

ويناولها العلبتين وتعلق « ايه التعب ده »

— دى حاجة بسيطة . عجبتنى وأنا ماشى جبتها للعروسه

— يافطمة . . يافطمه تعال.عريسك جه

ثم تنهمك سنيه فى فض العلبتين وتجد فى الأول بعض الحلوى من كنافة إلى هريسة إلى كعك . وفى الثانية تجد (شبشبا) أحمر على بخطوط ذهبية ومنديلا أحمر مطرزاً بالترتر اللامع وتشكره « تعيش وتجيب يابنى »

وتنهض لتأتى بفاطمة الممتنعة عن الحضور . وينتهز حسن هذه الخلوة ويتطلع إلى صورته فى المرآه ليطمئن على هندامه .

ويدخلان فاطمه وأمها وكأنها تسوقها سوقاً . وتبدو فاطمة شاحبه كالحه غير متزينة . ويدرك محمود سر هذا الشحوب فيدفع بابتسامه إلى فمه يرحب بها ولكنها تقابلها بوجه جامد وتلحظ الأم ذلك الجمود فتحاول أن تتلطف قائلة : « مش تشوفى حسن جايب لك إيه ؟ »

— دى حاجات بسيطة . وحياتك عندى لوطلبت رقبتى لأقدمها .

— تعيش وتتهنى بعروستك . هاتى يافاطمه كام طبق علشان تقدمى للعريس وتخرج فاطمة فاره من الجليس والحديث وتعود بعد فترة قصيرة حاملة طبقين تناول أحدهما إلى حسن الذى يتطلع إليها وهى تتجاهله تماما . وتقدم الآخر لأمها التى تعترض « لا يابنتى لازم تاكلى مع عريسك »

ـــ ماليش نفس يأم الحاجات دى بتموع نفسى .
ـــ ده انتى ولا اللى بيتوحموا . . . لازم تحى عريسك .

وما إن تسمع فاطمه سيره الوحم حتى تنزعج وترتجف وتتذكر موقفها المعقد ويشرد ذهنها إلى المحتمل ومالايحتمل ويتغلب خوفها على نفورها وتأخذ الطبق وبعض الحلوى تقضمها بلا شهية .

وتذهب الأم لإحضار طبقها ويقترب حسن من فاطمة ويقول « انتى لسه زعلانة ماخلاص بقينا عرايس وكلهاشهر ولا اثنين ونبقى فى بيتنا » .

وترد فاطمة بانزعاج . شهرين لا . . . كتير »

ويخيل لحسن إنها فى شوق إليه فيجزل ويبتسم « إنتى مشتاقة زى . . . وحياتك أنا نفسى النهاردة قبل بكرة »

وتعود الأم تقطع حديثها وتتناول بعضا من الحلوى . ويخرج حسن (الشبشب) والمنديل من العلبة ويضعها أمام فاطمة :وتقول الأم « مش تقيسى الشبشب يمكن يطلع ضيق » .

وتصدع فاطمة للأمر وتلبس الشبشب . ويطلب حسن « وكمان المنديل » فتضعه على رأسها وهو يصوب إليها نظرات، تتشهى حسنها وفتنتها من قدميها إلى رأسها . الأم ضاحكة راضية بلهفة.حسن أما فاطمة فتململة من وقفتها أمامه يستبيح جسدها بنظراته النهمة لايخشى لومة لائم أو زجرة زاجر . وتفكر فاطمة أنه لوكان يبتغى مرضاتها لأحضر خاتما أو قلادة ثمينة لكن شحه وبخله منع شبحه وكلفه بها تفتق من تلك الهدية البسيطة ينهشها بها طولا وعرضاً وعندما تصل إلى هذا الحد من التفكير تشمئز منه ومن نفسها فتخرج هاربة تاركة أمها تضحك مطلقة « أنا شفت شوف ياخويا لعب البنات ودلعهم » . يفتعل حسن الضحك ويكتم به الضيق » .

الشمس ساطعة تغمر أشعتها فناء الكلية وتكسب الجو دفئاً يذسجم مع حرارة الطلبة وانطلاقهم ومرحهم . وفى هذا الجو الملىء بالحياة يتلاقى محمود وفايزة بترحاب وود وكأن بينهما صداقة وثيقة . وتبدو فايزة رشيقة رغم بساطة مظهرها ورغم شعرها المعقوص للخلف . تلمع عيناها ببريق جذاب ينعكس على محمود فلا تتسع الدنيا لهنائه بها . وتبادره بالحديث « صباح الخير أنا خاصت الكتاب »

— بالسرعة ... دى مدهشة

وتخرج فايزة الكتاب من حقيبتها ومعه مجموعة من الأوراق يقلبها محمود ويسألها « إيه ده ؟ »

— ملخص الفصل الخامس .

— مش معقول ... أنا متشكر ... متشكر خالص .

— العفو ... لقيت عندى وقت وحبيت أساعدك

ثم يقفان وجهاً لوجه وقد هرب منهما الكلام . يبتسمان فى صمت . هى تنتظر كلماته وهو يبحث عن شىء فى جعبته ويشق عليه الأمر فيتشاغل بقراءة أوراقها لدقائق خالها دهرا حتى تأتيه فكرة تنقذه من عثرته فيقول بصوت خافت متردد « تعرفى إن خطك واضح ... ودقيق ... يدل على وضوح شخصيتك »

وتعلق فايزة وكأنها تأخذ بيده ليستمر فى حديثه « وهو الخط يفسر الشخصية ؟ »

— بيقولوا كده ... كان بتمتازى بترتيب فكرك .. منطقية مع نفسك وتحبى العيشه المنظمة

— مظبوط

— دايما صاحيه وحاضره بحواسك لكل مايدور حولك .

— صريحة جداً وده بيسبب لك متاعب مع الغير .

— فعلا .

— ولغاية هنا وبس .

— لا .. كل ... عاشان خاطرى .

تقولها بلهجة منغمة لم تصدق نفسها عندما قالتها . وينظر إليها عمود مندهشاً ومعجباً وتنفض فايزة من بصرها فى حياه آسر .. ويستمر فى قوله « إنتى عنيدة وعاطفية فى نفس الوقت. ودايماً فى صراع بين عقلك وعواطفك .

— معاك حق

— اللى يعرف مفتاح شخصيتك يقدر يأثر عليكى .

— مش دايماً

— ده كل اللى عندى النهاردة ولو درست خطك يمكن ألاقى حاجات تانية .

— إتعلمت التشخيص ده إزاى ؟

— القرابة هى وسيلة قتل الفراغ فى الأجازة ومن ضمن اللى قريته كتاب يشرح تفسير الشخصية من الخط .

— يعنى انت دلوقت تعرف مفتاح شخصيتى وتقدر تعاملنى طريقة تنتصر فيها دايما .

— وهو لازم اللى بينا يكون هزيمة وانتصار ليه ما يكونش زمالة وصداقة .

قالها محمود بإخلاص وصدق هز فايزة ونظرت إليه تستكشف نيته وتردد هامسة حالمة « الزمالة .. الصداقة ... أجمل شيء فى الحياة » .

وتنمو العلاقة بينهما نمو الأشجار فى الربيع البهيجة تلفهما إذا تلاقيا والشباب يطويهما إذا تناقشا لا يملان الحوار. يضحكان فى يسر لأبسط تعليق . فتتقارب المفاهيم وتتشابه الآراء ويزداد الانسجام كل ذلك فى حدود الزمالة المعززة بالتقدير والود والتعاطف وكثيراً ما تتشابك عيونهما ويلوح فيها حنان هادىء يغزل بينهما خيوطاً دقيقة حساسة يستشعران بها اللفتة البسيطة والإيماءة الدافئة .

اعتادا أن يجلسا متجاورين فى المحاضرات وتكون مهمة محمود وهو الأسبق دائماً فى الحضور الاحتفاظ بمكان لها جواره فى المدرج وأحيانا تتأخر عن بدء المحاضرة وينتحل محمود المعاذير ليبقى مكانها خاليا . ويحدث أن يبدأ المحاضر شرح الموضوع قائلا « مبيدات الحشائش أو الهربيسيدس وهى عبارة عن مواد كيماوية لمقاومة الحشائش الطفيلية التى تؤثر على نمو المزروعات كالأشجار وهى تستخدم بدلا من العزيق لتوفير الأيدى العاملة .. المجموعة الأولى منها هى .... » .

وهنا تدخل فايزة بخطوات خفيفة ويشير إليها محمود وتتجه نحوه وتجلس إلى جواره وتسأله « فاتنى حاجة مهمة ؟ »

ــ يدوبك لسه مبتدى ... إيه الى أخرك كده .

ــ المواصلات

ويحتج الطلبة على هذا الهمس « هش ... هش » ويضطران إلى الصمت ويتبادلان الحديث كتابه . ويكتب محمود على ورقه « المحاضرة بالنص من الكتاب إيه رأيك »

تكتب فايزة « المحاضرة الثانية نقعد فى الكافتريا »
يكتب محمود « نقعد فى الجنينة معاى أكلة فلاحى فطير وجبنة»
ترد فايزة « الرجيم يخسر »
يكتب محمود « يسقط الرجيم »
تجيب فايزة « يسقط الرجيم »

وفى الحديقة تتلفت فايزة حولها باحثة عن مكان لجلوسهما . وتلاحظ أن محمود أسبقها وابتعد عن تجمعات الطلبة فتصيح « بلاش تبعد كده تعال هنا احسن » وتجلس على الحشائش الخضراء ونظراتها تستدعيه إلى جوارها . وقد طوت ساقيها أسفلها لا يظهر منها شيئا ولا يتنبه محمود إلى طريقة جلستها ولا إلى المكان الذى اختارته بل ينهمك فى إخراج الفطير والجبن من اللفافة ويأكلان وتعلق فايزة « لكن ده كتير قوى مش ح نقدر نخلصه » .

ــ نقدر ونص .
ــ والدتك اللى عملاه
ــ لا مش عايل أمى . . هى تكتر سمنه عن كده تلاقيها مش فاضية ولا أبوى عيان .
ــ لازم يعنى حد يكون عيان
ــ أصله كبر وتعب نفسى أخلص وأساعده
ــ ازاى ؟
ــ اشتغل فى إدارة زراعية ولا جمعية تعاونية قريبة من بلدنا
ــ وليه عاوز تقرب من بلدكم .
ــ أخد بالى من الزراعة خصوصاً الفول .

— يتهيأ لى انك مرتبط بالمكان وبأهلك أكثر من ى حاجة تانية .

— أنا ارتباطى بأهلى فى مساعدتهم مش بالمكان .

— يجوز .

— طيب وانتى مفكرتيش تشتغلى فين .

— نفسى أكون معيدة .

— طيب تنازلى شوية يمكن تقديرك ماينفعش

— أحب تكون آمالى واسعة وعريضه وربنا يوفق .

— وهى دى كل آمالك .

— حالياً .. نعم

— يعنى معندكيش آمالى عاطفية .

« ويتورد وجهها وتطرق لحظة ثم تجيبه « آمالى العاطفية مخلياها على جنب لغاية ما أنجح وأشتغل وبعدين أحركها وإركن آمالى العلمية شوية ... وهكذا »

— ده ولاشغل عساكر المرور

— عساكر المرور بينظموا المرور بين الشوارع المتقاطعة لكن آمالى بتتحرك فى خطوط متوازية . واللى يسبق أوقف لغاية التانى مايحصله

— إيه الترتيب العظيم ده

— إنت مش قلت إنخطى بيبين تفكيرى المرتب .

— فعلا . وأنا باعتبر أن الفكر فى عصرنا ده ثروة ورأسمال الإنسان فى حياته

— فيه ناس لاتهتم بالفكر أو بالعقل بالبطون وبس

ـــ مشكلة الطعام لكل فم من أصعب المشا كل النارده .

ـــ فيه مشا كل تانيه أم زى التمام والصناعة والثقافة

ـــ كلها حاجات لاحقة لمشكلة الطعام أو بمعنى آخر توفير النشويات والبروتينات . وزى ما إنتى عارفة توفير البروتينات الحيوانية صعب لكن لها بديل اللى هو .

وتخطف فايزة منه الكلام وتقول « الفول اللى يحتوى على نسبة عالية من البروتين وهو لحمة الفقير وغذا الملايين »

ويضحكان جذلا بهذا التوارد الفكرى .

— ٩ —

الدار مزدانة بالأعلام وتتدلى اللمبات الكهربائية الحمراء والخضراء والصفراء .وعلى مساحة السطح نصب سرادق يتسع للمدعوين الذين وفدوا جماعات أو عائلات متكاملة .

يحتل أهل الحى جانبا كبيراً من السرادق . الأطفال يلبسون الجديد أو المجدد وترتدى الفتيات اليافعات أثمن مالديهن بل وأثمن مالدى صاحباتهن لعرض مفاتنهن على راغب الزواج من شباب الحى . أما النساء فقد حضرن متبرجات تتباهى كل بنفسها . ويتطلع الفتية والرجال إلى كل غادية ورائحة بشد أبصارهم القد المتثنى والوجه الصبوح والصدر الرجراج .

وعلى الجانب الآخر من السرادق يجلس جمع متراص من أهل القرية هم أقارب العريس فى وحدة متماثلة المظهر والانطباعات والمزاج . إذا ضحكوا تعالت أصواتهم جميعا وإذا دهشوا برقت عيونهم جميعا . أما

نساؤهم وبناتهم فقد لبسن ملابس فضفاضة وتغطى رؤوسهن لفحات طويلة . قابعات كتلة سوداء بعيداً عن الأعين الفضولية وعلى مقربة من (الكوشة) يجلس شباب دائب الحركة فى مرحه جرأة وفى لهوة عبث وفى مزاحه صخب وفى رغباته الحاح . هؤلاء الصاخبون هم زملاء محمود وبعض زميلاته ومن بينهم فايزة .

وتبدأ زفة العروس والعريس . يصعدان الدرج فى تثاقل وتؤدة .. العروس واجمة والعريس باسما ضاحكا يحى من حوله حتى يصل الموكب إلى المنصة بين الزغاريد العالية وحبات الملح المتناثرة والراقصة تتثنى وتتلوى أمامهما

وترقص الراقصة على إيقاع الموسيقى وتصفيق شباب الحى . ينافسه شباب الجامعة ويتكون بذلك فريقان متنافسان يحاول كل أن يجذب الراقصة إلى دائرته ويحمى وطيس المنافسة ويستخدم سلاح المال الذى يفتك بالراقصة ويجذبها إلى أهل الحى الذين أشهروا فى أياديهم الكثير من العملات الورقية . تجمعها الراقصة بكل جزء منها برأسها وصدرها ويديها وخصرها . ولايجد فريق الجامعة مناصا ألا أن يستخدم نفس السلاح فيبرزون فلولنقودهم وتأتى عليها الراقصة فى دورة واحدة وتتركهم لتعود إلى الجانب الأكثر مالا . تستفز هذه المحاباة فريق الشباب فيدفعون إلى حلبة الرقص بأحدهم وقد حزم وسطه بمنديل كبير وأخذ يرقص بمهارة .

كل هذا لايثير فاطمة ولايحرك اهتمامها فهى فى سأم وعزوف عن الحفل والمحتفلين حتى ترى الراقصة غاضبة تسرع إلى الفتى الراقص لتطرده .

نقترب منه تهز أردافها فى عنف وتضرب الصاجات بشدة وتدور وتلف حوله وتصوب إليه نظرات حانقه لكن الفتى المنتشى بالتشجيع والتهليل يكايدها فى تحد سافر . ويزداد اهتمام فاطمه بهذا النضال . ترقب الراقصة بعين يقظة وهى تتثنى بجسدها اللدن وتتلاعب بذراعيها الافعتين حول الفتى تسمى بهما لتسحره وتفتنه وتميل نحوه وتنضوعتها رداءها الشفاف تكشف له عن الكثير . يتحرك فى الفتى شبابه وينتشى رقصة ويلاحقها رعا يريد أن يحتويها بين ذراعيه فتفلت منه فى مهارة ماجنة. تتعاطف فاطمه مع الراقصة وتبرق عيناها تتابعها وتنحاز إلى جانبها.

وتظل الراقصة تشاكس الفتى مرة بصدرها وأخرى بكتفيها حتى تأسره وينقاد لها وفجأه ترتمى على الأرض وقد مدت ساقا للأمام وأخرى للخلف وتدور بجذعها حول نفسها مسلمة أو مستسلمة له وينهالك الفتى إلى جوارها وعندئذ تهب الراقصة اللعوب واقفة كلولب إنقبض ثم انفرد وتجرى هاربة مبارحة المكان والفتى قعيدا مهزوما مذهولا والمتفرجون يصخبون ويضحكون .

كل هذا التقطته عينا فاطمه تستوعب مهارة الراقصة فى دحر الفتى وهزيمته بانوثتها وفنها وبالمحاورة والمداورة .

وينتهى الحفل وينصرف المدعوون فرحين سعداء بهذا الحفل إلا فاطمة فترى فيه بداية حياة بائسة ما رغبتها ولكن أرغمت على قبولها منذ شهرين تقريبا على نفس هذا السطح

الفصل الثالث

والأرض تجهض أيضاً

— ١٠ —

ما يزال المطر منهمراً فى شدة غير معهودة . والليل قد تجاوز منتصفه ومحمود جالس على سريره ينظر من خلف قضبانه إلى النافذة الزجاجية وكأن إطارها يمسك بخناق لوحة سوداء لتقرعها حبات المطر الثقيلة . يعانى محمود عذاباً وقلقاً تزيده السماء الملبدة بالسحاب وبصيص البرق ودوى الرعد . يفكر فى حقول الفول اليانعة وحالها ويتحسر على تلك الأزهار التى يعصف بها المطر العاتى ينزعها من أعوادها ويجرفها أمامه فى قسوة . وأشفق على أبيه الذى تمنى محصولا وفيراً يوم كانت الأعواد مثقلة بالأزهار لكن المطر ضيعت كل أمل وأطاحت بكل رجاء ، ويجد أن عليه أن يرحل إلى أبيه ليكون إلى جواره فى هذه المحنة ولعله يستطيع نصحه بشىء ذى بال مما قرأه فى الكتب عن الفول .

يسير على الدرب الزراعى الذى قطعه مئات المرات وهو يشمر بنطلونه حذر الطين الرخو . ويفسح له الفلاحون طريقاً ليسبقهم حتى لا تتسخ ملابسه الثمينة — هكذا بدت لهم — برذاذ الطين المتطاير من حوافر البهايم ويشكرهم مقدراً شعورهم الطيب .

ويرقب محمود الحقول وقد انتشر فيها الفلاحون يعملون على تصريف المياه من حقولهم . يشقون لها مجارى تسحبها إلى الجداول والمساقى .

يدخل محمود قريته الحزينة فى صمت . وقد نشطت النساء والصبية

فى إصلاح جدران دورهن التى صدعها المطر وينشرن أعواد الذرة والحطب حتى أقراص الجلة لتجف وتصلح للإيقاد .

ويصل داره .. الرؤوس منكسة الحزن مخيم على الجميع وتقول له الأم « إنت جيت يا بنى تطل على مصيبتنا » .

— مصيبة إيه يا أم دول شوية مطر

— ده الفول راح يا بنى

— راح ؟ .. راح ازاى ؟

وتولول الشقيقة الصغرى « الفول انجلع وأنا قلبى إتخلع » ويعنفها محمود « إيه الندب ده يا بت ؟ »

الشقيقة — باندب على حالى وعلى جوازى اللى ما هو باين له يوم

الأم — إهدى يا بت .. بكرة تتجوزى ع الجطن

الشقيقة — لا انى محصلة جطن ولا فول

الأم — حاتشوفى ع الجطن جطع لسانك ..

محمود — أنا رايح لابوى أشوفه

الأم — مع السلامة يا بنى

ويرى محمود أباه فى الغيط ومن حوله الأنفار تخلع الفول من جذوره لتشويه على الأرض ويدرك محمود مقدار ما أصاب أباه من خسارة فتزداد شفقته عليه ويقترب منه ويعانقه مواسياً متعاطفاً ويقول «تتعوض يابا .. ما تزعلش » ويجيب الأب الذى طحنه الحزن : « ما أزعلش إزاى ده الفلاح تهون عليه مرته تموت ولا تموت جاموسته وآنى اللى أرضى موت وشانا اللى عليها أعمل إيه ؟ »

ـــ وزرعت كام فدان فول ؟

ـــ أربعة

ـــ واحد يعمل كده وانت عارف الفول وأحواله

ـــ جالولى إن طوبة بتيجى سنتين برد وسنتين دافية وبالحسبة دى كان لازم تيجى حلوة وهادية

ـــ وناوى تزرع إيه دلوقتى ؟

ـــ لفت ... لفت يابنى

ـــ واللى عاوز يعوض خسارته يزرع لفت..قول بطاطس مثلا.

ـــ واصرف عليه منين . أجيب حج التجاوى منين ولا السماد ولا الأنفار ؟

ـــ طيب إزرع النص لفت والنص بطاطس

ـــ آنى خلاص اتفجت مع الشيخ خليل على زرعه حصيرة نلمها بعد شهرين .

ـــ وإيه دخل الشيخ خليل ؟

ـــ مش عاوز فلوسه

ـــ طول الشيخ خليل ماهو ورانا عمرنا ما ح نكسب أبداً

ـــ والله الشيخ خليل اللى مش عاجبك مريحنى وعارف حسباتى معاه

ـــ أنا مش مقتنع بالكلام ده

ـــ وانت بجى مش لازمك جرشين ؟

ـــ ربنا يبارك انا فيك .. أنا جيت أطل عليك بس

ـــ ماتخافش على أبوك .. ياما بلاوى .. وياما مصايب وعدت

ـــ بكرة يابا أخلص وآجى أساعدك

ـــ المساعد ربنا . . وكان آنى ما يعجبنيش كلام الأفندية والعلام بتاعهم .

— أمال العلم فايدته إيه بقى

— فايدته إنكم تستوظفوا وتتهندزوا علينا

— ح ييجى اليوم اللى اثبت لك إن العلم هو اللى يحل كل مشاكلك ... حتى الفول كان .

— يعطيك العافية يا بنى ... ويعطيك العمر

—١١—

يتعثر زواج حسن وفاطمة بين رغباته المشبوبة تؤيده حقوقه الشرعية وبين رفضها كل استجابة أو ممارسة زوجية . فقد ترسب فى نفسها نفوراً منه ومن شبقه . إذا قاربها وهم بها قفزت إلى ذاكرتها أحداث عدوانه الأول عليها فتضرب ويغشى عليها وإذا أحيط بها ولم تجد مفر تلجأ إلى الحيلة تتناوم مرة وتتمارض أخرى . يضج حسن بهذه المراوغة لكنه يتمسك بالصبر ويأخذها باللين والهوادة .

ويأتى لها بجلباب جديد يحمله إليها فرحاً ومؤملا لعل جفونها تذهب وتمنعها يضعف . ويقدم لها الجلباب قائلا « شوفى جبت لك إيه ... تعالى قيسيها » .

— مش وقته .. لما أطبخ

— هدى النار وتعالى

— أنا تعبانة

— هدى النار يا فاطمة .. نارى يا فاطمة .. حرام عليكى .

ولا تتحرك فاطمة من مكانها بالمطبخ ويضطر محمود إلى إطفاء موقد الجاز بنفسه فتصيح فيه «إيه اللى عملته ده؟» لايجيب حسن ويمسك يدها ويقف يشدها إلى غرفة النوم وتقاومه قائلة «ح تاكل العصر إن شاء الله»

— ولا يهمك .. تعالى قيسى الأول

وفى غرفة النوم تأخذ منه الجلباب وتبتعد قائلة « ح أقسها .. بس خليك عندك »

وتخلعها وتضعها جانباً. ويرى حسن جسدها البض وصدرها الناهد فيشتعل كيانه ويندفع نحوها يحملها بذراعيه القويتين إلى السرير وهى تتلوى لتفلت منه وتقاومه بضراوة حتى لا تمكنه من نفسها يرفعها نحـــو الفراش وتتحرك بعنف ذات اليمين وذات الشمال وتدفعه بيديها ويزوغ بصبرها وتشعر بدوار وفجأة يصدر من حنجرتها صوت غليظ هادر « أع . . أع . . أع » ويخرج من فمها شىء غزير يصيبه فى وجهه وصدره فيرتد عنها وقد انقلب شوقه وإقباله إلى تقزز وإدبار ويصيح هو «هو إيه ده؟ ح تبطلى القرف ده» ويبحث عن فوطة يزيل بها ما علق بجسده ويرددم « هو أنا كل ما آجى جنبك تعملى العملة المهببة دى » وتتمسك فاطمة بالهدوء وتمضى لتحضر وعاء به ماء لتنظف الأرض والفراش . بينما حسن يرتدى ملابسه ويخرج غاضباً دون أن تعيره فاطمة أى اهتمام .

لكن سرعان ما يعود ومعه سنية . وتؤخذ فاطمة بها وتقول « إنتى جيتى يا أما ... أهلا » وتقترب منها أمها وتسألها فى لهجة جدية

— إنتى مزعلة جوزك ليه ؟

— هو ناقصه إيه علشان يزعل .. باطبخ واغسل وانضف

— هو الراجل بيعوز الحاجات دى بس. لازم تهنيه ده لسه شاب يحب الهزار والدلع .. ولا تفضلى خايبة لغاية ما يجوز عليكى

— يتجوز ويريحنى ؟

ـــ يقطعك يادى البت . . . انق انهبلتى ولا إيه ؟
ـــ مش طايقاه .
ـــ أنا مش قلت لك فكرى قبل ما تتجوزيه
ـــ كان لازم اتجوزه .
ـــ هو حد اشتكى منك ولا غصبك على الجواز
ـــ آهو قسمتى بقى .
ـــ بس لازم تهاوديه وتريحيه
ـــ أعمل إيه . . .أول ما يقرب منى جسمى يولع نار وأطرش كل اللى فى بطنى .
ـــ يخيبك يادى البنت . وحمك جاى على جوزك .
ـــ آهو ده اللى بيحصل
ـــ لما أقوم أراضى حسن
وتجلس إلى جواره فى الصالة مبتسمة لتخفف من عبوسه وتقول له « شوف يابنى . مراتك وحمها جاى عليك . يعنى لما تشم ريحتك ولا نفسك يتجى فى نفسها روحها تغم عليها وتتقايا »
ـــ أنا مالى ومال الوحم ده
استحمل يابنى شوية وأنا من ناحيتى ح اشترى شوية بخور تعدل نفسها وتمنع الوحم .
ـــ أنا خلاص فاض بى من يوم ما اتجوزنا وإحنا فى الحال ده
ـــ اصبر بكرة وحمها يروح وتتهنى بيها
وتعود إلى إبنتها لتنصحها « خلى بالك على جوزك لازم تريحيه . ح أجيبلك بخور يضيع القرف والوحم »
ـــ ولازمته إيه كل ده

— إنتى يا بت عبيطة ولا بتستعبطى ... جوزك لازم تهاوديه وتطاوعيه أنا قلت لك وانتى حرة وخليتك بعافية .

— ٨٢ —

الطريق إلى الجامعة عريض يتسع لآلاف الطلبة الذين يعبرونه يومياً بعد أن اجتازوا الحواجز التعليمية التى تقام سنوياً لتصفية الحشود الساعية إلى هذا الطريق . يسير الطلبة وفى حركتهم حماس ودفع . حماس يفيض به شبابهم وتذخر به حيويتهم أما الدفع فمن الآباء ليتزود الأبناء بالعلم ليؤمنوا به حياتهم وليشقوا طريقاً إلى مستقبل أرحب وأهنأ .

ومن عابرى هذا الطريق جمع من الطلبة يضم محموداً وفايزة ويبدو على محمود كدر تلحظه فايزة وتحاول بابتسامته المشرقة أن تخرجه عن صمته وتبادره بالحديث « إيه قيمة الزعل بتاعك ؟ »

— يجوز زعلى يكون بدون فايدة لكن لازم أعبر عن نفسى

— ولو ... حولته إلى طاقة وعمل مش أحسن ؟

— يا ريت داقدر أعمل حاجة أحمى بيها الفول من البرد والمطر ...

— مشكلة ...

وبعد فترة صمت تستأنف الحديث « إيه رأيك لو نحضر مناقشة الدكتوراه بتاعة المعيد سمير ندا »

— وإيه موضوعها ؟

— تأثير طول النهار وقصره على نمو النباتات

— بقى ده اسمه كلام ... ح يفدنا بإيه البحث ده

— يعنى عن طريق الإضاءة الصناعية نتحكم فى نضج النبات وثمره لو البحث ده عن الفول ولا الذرة مش كان أحسن ؟

ـــ فيه أبحاث كثيره عن الحاجات دى

ـــ مش كفاية

ـــ كل واحد عنده مشكلة يبق عاوز العالم كله يهتم ويبحثها لـكن مع الوقت وتكوين أجيال من العلماء المشاكل ده تفرض نفسها عليهم وتجبرهم على بحثها

ـــ خلاص . . . يستنى أبوى وأهل لغاية ما يطلع ألف دكتور علشان يحلوا مشكله الفول مثلا

ويتوقف الحديث والجميع يجدون مسير يعبرون الميدان الـكبير وعلى مقربه منهم تمثال نهضة مصر بنطلع إلى كوبرى الجامعة أو إلى الإفق البعيد وعندما يصلوإلى الـكوبرى يشاهدون قافلة من المراكب الشراعية محملة (بالبلاليص) والقلل . ويصدر من احدها صوت الراديو يزيع أغنية شعبيه مشهورة . ويتوقفون لينظروا هذه الصورة الجميلة ويعلق أحد الزمـــلاء « شايفين التـكنولوجيا نزلت ازاى لخدمة الناس »

محمود ـ لكنها مادخلتش صميم حياتهم

وتعلق فايزة « لـكنها بتريحهم من الملل »

ـــ احنا لازم نحس بالملل ورتابيه

ـــ ليه بقى ؟

ـــ علشان نشعر بإيقاع الزمن

ـــ وهو الزمن له إيقاع

ـــ ايوه له ايقاع سريع وبطىء

ـــ الزمن واحد فى كل مكان

— واحد من حيث الساعة والدقيقة ولكنه مختلف من حيث إحساسنا بيه .

— كلامك مش مفهوم

— بلاد فيها إيقاع الزمن سريع تسمعه فى أزيز الطيارات ودوى الآلات وضجيج المصانع وتشوفيه فى خطوات الناس وفى رقصهم .

— فى أى بلد تقدر تحس بالحاجات دى وتشوف مظاهرها .

— خلى حكمك على الأغلبية . وبلاد تانية تلاحظى الزمن بيتهادى وبيتمخطر فى المناقشة والكلام وأداء الأعمال وحركة الساقية وفى الموسيقى والاسترخاء .

وعندئذ تصل آخر مركب إلى أسفل الكوبرى ويرتفع صوت الأغنية « على حزب وداد جلى يابوى . . . » ويقطع الأغنية صوت عربة مسرعة تطلق آلة التنبيه الصاخبة وتثير امتعاض الطلبة الراغبين فى الاستمتاع بتلك اللوحة الشعبية .

— ١٣ —

تصاب فايزه بالأنفلوانزا وتعتكف فى منزلها لمدة أيام . تزورها زميلتها سهير التى تقطن قريباً منها فى حى المنيل . وتقول سهير « محمود بيسلم . وموصينى أطمنه عليكى » .

— مرسى قوى .. وعاملين إيه فى المحاضرات

— ومين سمعك ؟ أنا مش دريانه بالمحاضرات خالص

— ليه مابتروحيش الكلية ؟

— أصلى قاعده جنب محمود وطول المحاضرات عمال يعلق ويقفش لكل محاضر .. مش مخلينى أكتب حاجة والغرابة انه ' تفتوش كله .

— (بضيق) أصله شاطر

— ده هايل وظريف موت كلامه بينفذ تحت الجلد

— (بغضب مكتوم) ياه ... ده انتى معجبه بيه خالص

— وحياتك كزميل مش أكتر من كده ... حتيجى الكلية امتى؟

— كان يومين ...

— طيب شدى حيلك

تنصرف سهير وقد تركت كلماتها بصمات على خيال فايزة تظهر آثارها عندما يقابلها محمود بالكلية بعد عودتها ويحيها « حمدالله على السلامه »

— (بفتور) مرسى

— سهير طمنتنى عليكى

— عارفه ....

— مالك لسه تعبانه وألا فى دور النقاهه؟

— لا ... أنا فى دور مراجعه

— (بدهشة) مراجعة ايه ... إحنافين وآخر السنة فين ؟

— أنا باراجع نفسى وأفكارى

— هو أنتى كان عندك انفلوانزا والا ... صوفيا

— (بغضب واستنكار) وايه صوفيا ده ؟

— آلهم الحكمه عند الأغريق

— إنت اصلك فايق ... عن اذنك

وتحاول أن تذهب لكنه يعترض طريقها ويقول « انتى رايحه فين »

— رايحه أتمشى لوحدى

— طيب استنى لما تأخدى المحاضرات اللى فاتتك

— خليهم لسهير أحسن

ـــ سهير كانت موجودة ومش عاوزة حاجة

ـــ طبعاً . . . . . مش كانت قاعدة جنبك ؟

ويلاحظ محمود انفعالها ويدرك سببه فيقول بلهجة صادقة « تأكدى محدش يملا مكانك ... واتفضلى خدى المحاضرات بقى » وتأخذها منه وتنظر إليه بتغاضب ودود « أنا تعبتك »

ـــ أنا ماكنتش بأنام إلا بعد ما اكتبها لك

ـــ مرسى . . . وما لقيتش غير سهير إللى تبعتها تسأل عنى

ـــ هى الوحيدة إللى ساكنه جنبك فى المنيل

وتعبر له فايزة عن مشاعرها فتحضن المحاضرات وكتبها فى صدرها وتبتسم له إبتسامة مشرقة تزيل ذلك الكدر الذى شاب ظنها وتقول « يالله أحسن المحاضرة ميعادها قرب » ثم يسيران جنباً إلى جنب .

ـــ ١٤ ـــ

يدخل حسن داره . ويتجه إلى فاطمة وقد حمل لفافتين ويقول لها « أنا جبت لك كباب لـكن معتبر »

ـــ والبطاطس إللى طبختها ؟

ـــ ينفع للعشا يافطمطم . . خدى حضرى الغدا بقى .

ويناولها اللفافة الكبرى أما الصغرى فيفتحها ويشمها بشدة ثم يرفع رأسه إلى أعلى يستطيب رائحتها .

وتدعوه فاطمة للغداء ويجلس إلى جوارها ويقبل على التهام اللحم بشهية ثم ينظر إلى فاطمة بنظرات أكثر تشهيا . ينتقى لها قطعة من الـكباب ويقدمها ليها حتى فمها قائلا « إفتحى بقك » وتضحك فاطمة لهذه المداعبة وتقول « لا أخدها بإيدى »

ــ وحياتى عندك لانتى وكلاها من إيدى

وتمثل لرجائه وتخضع لإرادته وهى فى وشك من هذه المقدمات وينتهى الطعام ويتجرع حسن الماء من القلة محدثا صوتا عاليا يعلن عن فتوته وفحولته ثم يمسح فمه بظهر يده ثم يراقب فاطمة وهى تخطر أمامه غادية رائحة

يحمل اللفافة الصغيرة إلى المطبخ ويجهز الموقد الصغير ويشعل عليه بعض الفحم ويضع بعض مما فى اللفافة عليه ويتصاعد دخان معطراً ثم يذهب بذلك كله إلى غرفة النوم ويضع الموقد على الأرض ويزوده بكمية أخرى من البخور الذى يتصاعد دخانه يملأ الغرفة . ويخلع حسن رداءه ويبقى بملابسه الداخلية ثم ينـادى فاطمة التى تحضر وتسأله « إيه البخور ده ؟ »

ــ ده بخور النفس يمنع الوحم والقرف ويروق الدماغ

وتدرك ما يعنيه بقوله فتحاول أن تخرج لـكنه يستوقفها « إنتى رايحه فين . . . أنا عاوزك »

ــ طيب لما اشطب المطبخ وأغسل المواعين

ــ لا مو . . . ولا نو . . تعالى هنا خطى البخور سبع مرات

ــ وليه بقى

ــ أمك قالت كده . . . إبقى اسأليها

ولا يتحمل مزيداً من ترددها فيشدها من يدها حتى تدنو من الموقد وترفع ثيابها عن ساقيها الشهيتين وتبدأ وحسن يعد « واحد .. إتنين تلاته . . أربعة » وتتوقف فاطمة حائرة تخشى باقى الخطوات فيجذبها

قائلا « خطوتين والجو يحلو يا جميل » ثم يواصل العد « خمسة. وكان سته ... والسابعة وخلاص »

ويطفىء الموقد وينهض إليها ماسحا جسدها بعينين تتراقص فيها الرغبة ويقترب ليحتضنها وقد وضع على فمه إبتسامة مشجعة . ويحاول أن يرفع ردائها عنها فتمانع قائلة بصوت خائر « الدنيا برد .... »

ـــ أنا أدفيكى . . نارى ح تدفيكى . . تعالى فى صدرى

ويخلع عنها رداءها ويقذف به بعيداً ويميل بجسده نحوها فتدفعه عنها وتستثيره تلك الدفعة فيهجم عليها ويحتويها بذراعيه ويحملها الى الفراش وهى تتخلص منه حتى تفلت وتهرب الى أقصى الغرفة ويتبعها بسرعة ويستعيدها الى أحضانه . وبين هذا الدفع والتدافع يركلها بساقه فى بطنها ركله عنيفة تصرخ فى أعقابها وتجحظ عيناها وتتلاشى مقاومتها وتصير كخرقة بالية لاقوام لها ويفاجأ حسن بما حدث ويفزع وتتراخى قبضته وتسقط فاطمة الى الأرض مغشيا عليها فيجثوا الى جوارها ويخبط خديها براحتيه لعلها تفيق ويناديها « فاطمة . . فاطمة . . خلاص . . ما تخافيش »

ويزداد شحوبها وينضح وجهها عرقا غزيراً وتتسارع أنفاسها . ويضطرب حسن وينتابه الهلع فيرتدى منامته بسرعة ويستدعى الجيران يستنقذهم وتأتى النسوة ويشتد الجدل والحديث ثم يرفعنها الى السرير ويدثرنها باللحاف وتدلك احداهن أطرافها وتصيح الأخرى « لازم الاسعاف . . أنا نازله أطلبها . . » وتتطوع أخرى قائلة « لازم أمها تيجى . . » وتذهب لإحضا رها

وتنزل هذا الكلمات على رأس حسن كطارق شديدة فيجلس إلى أقرب كرسى خائراً منهارا وصيحات فاطمه لاتنقطع « أى .. الحقونى. ضربنى ... عاوز يموتنى »

فيهب حسن مدافعاً عن نفسه « أبداً والله ... ده إحنا كنا بنهزر » وتأتى الأم يسبقها صراخها وتدخل ملتاعة مروعة وتقترب من ابنتها وتسألها « مالك يابنتى ... إيهالى جرى لك؟ » فلا تسمع رداً ولاتعقيباً وترى حسن وتصرخ فيه « عملت إيه فى بنتى ... قول » ويجيب حسن منكسا رأسه « ولاحاجة ... كنا بنهزر . رجلى جت فى بطنها »

— وهى حملك ... هاتوا لى الإسعاف ... هاتوا لى النيابة

ويستمر الحال على هذا الصياح حتى تحضر الأسعاف ويشتد صراخ الأم عندما ترى ابنتها محمله على النقالة . ويحضر عم عبد الله مذهولا يسأل كل من يمر به « بنتى مالها ... مالها فاطمة » ويجيبه أحدهم « سليمة إن شاء الله ... سليمة »

وتلمحه سنيه وتقول له باكيه « شوف عمل فى بنتك إيه .. عاوز يموتها »

— كده يا حسن تعمل كده

— أبداً والله ماقصدى ... البخور هو السبب فى المصيبة دى

— بخور ... بخور إيه ؟

— بخور جابته أم مختار

ويلتفت الرجل إلى زوجته لمزيد من الإيضاح فتقول له « أبداً .. هو اللى مفترى » ويدعهم أحد الموجودين « أحسن حاجة تروحوا القصر العينى تطمنوا عليها »

أمام قسم الحوادث بمستشفى القصر العينى يقف جمع كبير من الأصدقاء والجيران وقد أحاطوا بعم عبد الله وزوجته وحسن ينتظرون أى دلاله أو خبر عن فاطمة . وتشفق عليهم ممرضة فتأتيهم بالنبأ اليقين قائلة « شويه نزيف ... ويقف بعد مده صغيرة .. مفيش داعى للخوف

سنيه — طيب أخش أشوفها

الممرضة — هى لسه فى البنج

سنيه — بنج الحقنى يا عبد الله ... دول عملوا لها عملية

الممرضة — ياستى ما تخافيش كده ... الجنين نزل وكلها ساعة وتفوق

سنية — ربنا ما يوقف لك عدو فى سكه .. خلينى أخش

الممرضة — الزيارة بكره

وتذهب الممرضة ولاتجد سنية إلا حسن تصب عليه لعناتها ...

وتقول له « روح ربنا ينتقم منك » ثم تردف « هو أنت على بالك حاجه . لوراحت تتجوز غيرها تانى يوم »

ولايستطيع حسن تحمل ذلك التعريض « أنا ح أقصر الشر وماشى وبعدين لى كلام معاكم »

— وليك عين كان تتكلم ؟

ويسارع حسن ـ حتى لايسمع مزيداً من التوبيخ والتقريع فى الذهاب إلى (الجراج) ويتجه إلى عربته ويسأله زميل له « مالك يا أبو على شايل الدنيا ليه ؟

— أبداً ... الولية تعبانة وسايبها فى القصر العينى

ــ ما بلاش تطلع الليلة وتقعد جنبها يمكن تعوز حاجة
ــ وأنا ح أعمل إيه والزيارة ممنوعة ؟
ــ روق بقى وما تخدش بالك سواقة الليل عاوزه البال الرايق
ويفحص حسن عربته . يختبر الاطارات والإضاءة والفرامل والحمولة وخلافه ويصعد إلى عجلة القيادة ثم يتحرك بالعربة إلى وجهتها .

العربة تطوى الطريق وصوت المحرك يطن فى رتابه تحرك الأشجان والذكريات ويستعيد قصته مع فاطمة منذ حادثة السطح حتى ذهابها محملة على عربة الاسعاف ويتجسد فى خياله الصراعات الدائمة بينهما وتتوتر أعصابه ويزداد إنفعاله وينعكس ذلك على العربة فيقودها بغلظة وعنف لا يتفق مع حجم العربة ولا مع حمولتها الثقيلة .

وفجأة يظهر له بين الظلام شخص يشد حماراً ليعبر به الطريق إلى الجانب الآخر . العربة مندفعة تكاد تدهمهما وتصرعهما .

يتنبه حسن إلى ما هو موشك أن يقع . حادثة أخرى تضاف الى حادثته مع زوجته . وينحرف بالعربة بشدة إلى خارج الطريق ليتفادى الرجل وحماره لكن سرعة العربة تفقده سيطرته عليها فتصطدم بشجرة غليظة فتتهشم مقدمتها تماما وتضغط عجلة القيادة على صدر حسن .

ويحضر رجال الإسعاف لكن الموت أسرع منهم إليه ثم يصل رجال الشرطة . ومن التحقيق الأولى يتبين أنه ذهب ضحية محاولة إنقاذ الرجل والحمار .

الفصل الرابع

السطح ينشط مرة أخرى

— ١٥ —

تعود فاطمة — الأرملة الصغيرة — إلى منزل اسرتها الذى لم تكن بارحته إلا منذ شهور قليلة . وتعود وهى غير آسفة إلا على أنها أصبحت أرملة قبل أن تتخطى العشرين ربيعاً بينما أترابها لازلن يرفلن فى ثوب العذرية الوردى

ويؤتى بأثاثها إلى الشقة حتى تضيق به وبمن فيها من البشر . تصر فاطمة على أن يخصص لها غرفة من الأربعة لتنام فيها وحدها . وتحاول الأم أن تثنيها عن عزمها قائلة طيب «أودى اخواتك فين؟»

— انا ما ليش دعوه

— طيب خدى بثينة معاكى ... اهى صغيرة لسه

— أبداً

— يعنى عوزانى أكربس اخواتك فى أوده واحده

— مش عاوزه حد معاى ... وبس

— أمرى لله

وبذلك تفرض فاطمة لأول مرة أوضاعاً جديدة فى المنزل . وتغير كثيراً من سلوكها فهى لا تشارك إخوتها لهوهم أو تعايشهم بل وتشعرهم دائما بأنها كبيرتهم وأصبحت تفضل الخلوة فى غرفتها ، ويثير ذلك السلوك حديثاً بين الأب والأم التى تقول « فاطمة

مش عجبانى . طول النهار بتزعق فى اخواتها

ــ أعذريها أعصابها تعبانه

ــ ومن يومين جت أم سلامه علشان تاخد بخاطرها عمات نفسها تعبانة ومرضتش تقابلها .

ــ وليه بتعمل كده ؟

ــ ومش كده وبس شفتها بعدين بتدور فى كتب أخوها مختار .. وقال إيه عاوزة تذاكر علشان تخش مدرسة ليليه

ــ مدرسة ليلية ؟ .. هى فاكره نفسها صغيرة

ــ ومن ده على طول

ويدخل إليها أبوها ليتكشف أمرها وقد وضع على وجهه ابتسامه حانية « مالك يابنتى حالك مش عاجبنى ؟

ــ شوية زهق يابا

ــ واللى زهقان مش يقعد مع الناس علشان يتسلى

ــ مش قادره .. مخى تاعبنى

ــ بتفكرى فى ايه ؟ .. مش أنا أبوكى ولازم أعرف اللى شاغلك

ــ انت اللى شاغلنى

ــ أنا ؟ . . فى أيه ؟؟ صحتى عال والحال رضى

ــ انت ح تخرج على المعاش امتى؟

ويؤخذ الآب بذلك السؤال الذى لم يتوقعه منها ويتمالك فى الرد :

« . . المعاش . . لسه بدرى »

ـــ بدري أد ايه ؟
ـــ شهرين ثلاثة . أربعة
ـــ هو ده بدري .. مش لازم تفكر ح تعمل إيه بعد المعاش
ـــ إن جيتي للحق لسه
ـــ أنا بقى فكرت لك . أحسن حاجة تفتح محل خردوات وسجاير
ويبتسم الأب لاهتمام إبنته بأمره ولسذاجتها فيعقب د الله يبسطك
يا شيخه طيب ح نجيب فلوس منين علشان نفتح بيها المحل
ـــ (فى حماس) من عندى . . من التعويض بتاع الحادثة
ـــ ودى معقولة برضه آخد فلوسك وأشتغل بيها
ـــ ما أنا ح اشتغل معاك
ـــ تشتغلى معاى إزاى . . معقول الكلام ده ؟
ـــ وهو الشغل عيب ما كل البنات اللى كانوا معاى فى المدرسة
بتشتغل دلوقتى .
ـــ لكن إنتى اتجوزتى وبقيتى .... وما يصحش تقفى فى دكان
ـــ ت عاوزنى أغسل لكم وأطبخ لكم وبعدين ترمونى لأى واحد
عاوز يجوز .
ـــ إهدى يابنتى مش كده ...
وتدخل الأم ويخبرها عم عبد الله د شوفى بنتك عاوزه تقف فى دكان وتبيع
الأم ـــ كلام إية ده .. إللى زيك مالهوش غير الجواز .
فاطمة ـــ طيب ما إنتى رايحه تجيبى أم سلامة الخاطبة وعوزانى
قهوة وتستعرضى بالطول والعرض واللى ما يشترى يتفرج
الأم ـــ إنتى جرى لعقلك حاجة .

فاطمة — ياريت كان ربنا خادنى وأنا فى المستشفى كنت استريحت

الأب — ولزمته إيه الكلام ده ؟

وتصيح فاطمه وهى تبكى « أنا مش قاعده فى البيت ده ح اخرج إن شاء الله أشتغل غساله »

وينتاب الأب الخوف من هذه النوايا الخطيرة فيقترب منها ليلطف من حدة انفعالها « لما تقبضى التعويض نبقى نفكر فى الموضوع ده » ثم يلتفت إلى زوجته « إعملى لها كوباية ينسون تروقها » ، ويمضيان تاركين فاطمة غاضبة ثائرة

— ١٦ —

يعود محمود إلى الكلية بعد غيبة أسبوع قضاها فى القرية ليشترك فى واجبات العزاء وتكون سهير أول من يقابـــله فى فناء الكلية وتواسيه « البقية فى حياتك »

— حياتك الباقية

— كان صغير ؟

— مات عنده سبعة وعشرين سنة

— ياحرام ... كان متجوز ؟

— كان يدوبك لسه متجوز ... مراته إترملت صغيره

— هى حـــلوة ؟

— جميـــلة

— يبقى ح تتجوز بسرعة

ــ ربنا يصبرها

ــ كان بودى أنقل لك المحاضرات .. لكن مقدرتش

ــ زمان فايزة نقلتها

ــ ما أظنش

ــ ليه كانت غايبه ؟

ــ أبداً ... كانت مشغولة مع الدكتور سمير ندا كل يوم فى المعمل

ــ لكن إحنا خلصنا العملى بتاع الكمياء من مدة

ــ يمكن بتراجع معاه حاجة كده ولا كده

ــ غريبة الحكاية دى

ــ تعرف إن الدكتور سمير ده مابهضموش أبداً . طالع فيها خالص

ــ عبقرى ... مش معاه دكتوراه بمرتبة الشرف

ــ ما تيجى نقعد فى الكافتريا

ــ ما أقدرش ... إنتى عارفه ظروفى

ــ طيب تعال نقعد فى المكتبة ... لسه بدرى على المحاضرة

ــ معقول برضه

وهناك يمر محمود على لوحة بالألوان توضح جذور الفول وقطاعاته . فيقف عندها . وتسأله سهير « عجباك ... أرسمها لك؟»

ــ تعــــرفى ؟

ــ تحب أرسمك وتشوف بأعرف والا .. لا ؟

ــ لا كفاية ترسمى اللوحة دى

ويجلسان هى أمام اللوحة وقد أخرجت ورقة كبيرة من حقيبتها وأخذت ترسمها ومن حين لآخر تنظر إليه وهى تحرك القلم بسرعة ومهارة وتحدثه « لو كان معاى ألوان كنت طلعت لوحة جميلة .. »

— مش مهم

— الألوان معبرة وتساعد على إظهار المعانى

— أنا عاوزك تبينى الخلايا بالتفصيل

وتدفع سهير إليه بالورقة وعلى وجهها ابتسامة الانتصار وتقول « إيه رأيك فى القطاع ده »

وينظر محمود إلى الصورة التى أعطتها له مأخوذاً متعجبا ثم يقول « مش معقول ده إنتى فنانة هايلة »

— باعجبك

— بس مركبانى حصان ليه ؟

— باتخيلك فارس

— وإيه القلعة دى ؟

— دى قلعة السلطان

— ومين دى اللى ورى القضبان ؟

— ست الحسن والجمال

— وقصدك إيه من ده كله ؟

— واحدة معجبة بيك وعوزاك تقتحم الأسوار والجدران وتنقدها من السلطان .

— أنا مش قادر أفهمك

ــ ده أنا بسيطة جداً
ــ ما أقصدكيش . . . أقصد الرسم
ــ ليـــه ؟
ــ مش واقعى . . الفتاة النهارده تقدر تختار فارسها ذى رغبتها.
القضبان دى كانت زمان .
ثم يردف بعد أن يكون قدطوى الورقة « وامتى ترسمى قطاعات الجذور ؟ » مشيراً إلى اللوحة
ــ لمـا اقتنع بيهـــا
ــ اللوحة دى لها فوائد علمية كثيرة
ــ لكن جافة . . . ما تحركش الخيال
ــ فكرى إن الجذور دى بتحول عناصر الـ بة إلى بروتين يشبع الملايين . أظن خيالك لازم يتحرك
ــ حتى لو اتحرك أرسمها بطريقتى .. جذور فى الأرض وافواه مفتوحة .. وأسنان حادة بتشد الجذور من الأرض بشراسه وعنف
ــ دى آخر لخبطة
ــ أنا بأرسم الحاجة زى ما بحس بها مش ذى ما بتشوفها .
ويقطع حديثها دخول فايزة وبجوارها الدكتور سمير . ويرى كل منهم الآخر وترتبك فايزة للحظة ثم تتابع سيرها مع الدكتور سمير حتى يتوقفا أمام أحد الأرفف ويلتقط ثقابا ويعطيه إلىفايزة قائلا دح تلاقى فيه بحث عن أثر الضوء على التزهير المبكر
ــ متشكره قوى
ــ إن لا قيتى حاجة صعبة . . . مرى على
ــ مرسى

ويمضى الدكتور سمير وتقف فايزة متشاغلة بالكتاب ثم تتقدم إلى محمود وتقول له « البقية فى حياتك »

— محمود حياتك الباقية ... ومتشكر على التلغراف

فايزة — عن إذنك . . . ألحق المحاضرة

سهير — لسه بدرى . . مستعجلة ليه ؟

محمود — إستنى يافايزة أنا جاى معاكى

سهير — مش الأول توريها اللوحة دى

ثم تدفع بها إلى فايزة فى تحد وهى تقول« شوفى رسمته إزاى... إيه رأيك »

ورغما عنها تتعلق نظراتها باللوحة ويختلج وجهها قليلا ثم تعقب « صحيح . . . بتعرفى ترسمى »

سهير — تحب أرسمك انتى كمان

فايزة — ما أنفعش موضوع ترسميه

ثم تتركها فى خطوات مسرعة وشعرها المعقوص للخلف بشريط رقيق يريد أن ينطلق من قيوده يشاركها غضبها وثورتها . ويقف محمود حائراً لحظة فينظر مرة الى فايزة وأخرى الى سهير ثم يندفع ليلحق بفايزة وهو يقول لها « على مهلك شوية . . . دقيقة واحدة أكلمك واشرح لك »

لكنها دون أن تبطء سيرها تقول له « روح لما تكمل الرسم »

ويقبل على محمود جماعة من زملائه ليقدموا له العزاء فيضطر الى التوقف والاستماع إلى مواساتهم وعيناه تتابع فايزة حتى تختفى .

تزحف فاطمة زحفا مطرداً . لها كل يوم شيء . تفاجيء الجميع بملابسها الملونة وعصابة رأسها الخضراء . تراها أمها فتشهق « ه . . . ايه اللى انتى لابساه ؟ »

— (فى تحد وجساره) جلابية صفرة ومنديل أخضر

— وتعلمى الأسود قبل السنوية بتاعة جوزك

— إنتى عاوزه تلبسينى عليه الأسود أكتر من اللى عشته معاه

— الناس تقول علينا ايه ؟

وتقترب فاطمة من أمها وتضع يدها على كتفها فى ود وتقول بلهجة رقيقة « طيب لو جالى عريس النهاردة ح البس اسود برضه ؟ »

— طبعاً لا

— عزن . بقى أم سلامة جابت عريس من اللى بتدورى عليهم

— يقطعك يادى البت .. مغلبانى ومغلبة عيشتى

— هو مختار ماعدش بياخد دروس ليه من سى محمود ؟

— من يوم المرحوم مامات وهو لا بينزل لمختار ولا اخوكى بيطلع له

— وايه بقى ؟

— زعلان على ابن عمه

— بس مختار شايفاه مكمل عن المذاكرة وخايفه ليسقط

— قلبك على مختار .. ولا عنيكى على محمود ؟

— لاقلبى ولا عينى .. أنا عوزاه يجرى لى على التعويض

ـــ يوم الميرى بسنه
ـــ علشان كده لازم حد يشوف مصالحى وأصرف القرشين واشغلها في حاجة
ـــ انتى اسه بتفكرى فى الهباب ده ؟
ـــ اسمعى يا أم علشان ما تزعليش . أنا فكرت أفتح مشغل سجاد في السطح
ـــ اللى يسمعك يقول أنا بكلم راجل مش بت ما كملتش عشرين
ـــ خلاص الدنيا تغيرت ومحدش بيقعد فى البيوت دلوقتى
ـــ عجبتك بهدلتهم فى المواصلات وشحططتهم فى الشوارع
ـــ ويعجبك اتجوز واحد يشترينى بورقة مأذون ويبيعنى بورقة ذيها
ويسمعان أقدام محمـــود وتبرق عينا فاطمة وتمسك بذراع أمها وتدفعها نحو الباب قائلة « محمود يا أم ... محمود طالع . . . ناديله يا أم . . إسأليه عن مختار . . عن أى حاجة »
وتمتثل الأم وتفتح الباب وتقول « انت فين يا ابنى ... ؟ لا بتسأل ولا بنشوفك »
ويتوقف محمود قائلا « أصلى مشغول شوية »
سنية ـــ وياترى ح تدى مختار دروسه ولا ... ؟
محمود ـــ أنا فى الخدمة .
سنية ـــ ما تبقى تنزل . . . حتى علشان تشرب الشاى معانا
محمود ـــ حاضر
سنيه ـــ يحضرلك الخير يا ابنى
ويصعد محمود إلى غرفة ثم تغلق سنية الباب وتقترب منها

فاطمة تحضنها وتقبلها سعيدة راضية

وتزحف فاطمة زحفها المطرد . وعندما يحضر محمود ليدرس لأخيها تتجمل وتتزين وتهتم بتقديم الشاى له وتحيه « مساء الخير يا سى محمود »

— مساء الخير .

وتضع الفنجان أمامه وتقلبه بالملعقة ويكاد صدرها يلامس ذراعه وتقول « ياترى أنا جيت عطلتكم ؟ »

— احنا يدوبك مخلصين

ثم تخاطب أخيها « أوعى يا مختار تكسل لازم تنجح علشان تساعدنى فى المشغل » وتظهر معالم الدهشة على محمود وتعقب فاطمة « أمال . . ح أفتح مشغل سجاد ... ومستغرب ليه »

— أبداً .. وعم عبد الله موافق ؟

وعندما يخرج أخيها تعقب « أبوى مش موافق لكن كلمه منك ح تخليه يرضى . »

— بس دى حاجات عائلية ماليش دخل فيها

— وهو احنا مش أهل ولا خلاص ماعدتش أهمك

— بس يمكن عم عبد الله يزعل لو تدخلت

— ده أنا حطاك فى بالى ومعتمدة عليك تساعدنى فى صرف التعويض علشان أشغله وأساعد أبوى لما يخرج على المعاش

وتفعل هذه الكلمات فيه فعل السحر . فهى فى نفس موقفه تريد أن تعاون أباها كما ينوى هو لأبيه . فيستجيب لها ويعدها « طيب يا فاطمة لو جت مناسبة ح أكلمه »

وتدخل سنية عليهما وتدلها حاستها أن فى الجو شيئاً ما ينمو بينهما وترتاح لذلك الأمل الذى راود خيالها منذ زمن مضى . وتحى محمودا الذى يهم بالخروج فتقول له « بدرى يابنى .. خليك إتعش معانا »

محمود — متشكر

فاطمة — يبقى تتغدى معانا بكره فتة ولحمه من بتاعة الختمة

سنية — (بدهشة) ختمه ؟ ختمة إيه ؟

ودون أن تعير امها التفاتاً تستمر فى توجيه حديثها إلى محمود « ختمة على روح المرحوم . »

محمود — بس أنا مش عارف راجع إمتى بكره

فاطمة — يبقى أطلعها لك فى الأودة تاكلها وقت ما تحب

محمود — طيب

فاطمة — بس إنت دايما قافل الأوده

ويخرج محمود من جيبه حلقة يستخلص منها مفتاحاً تأخذه منه سنيه وهى تقول « حتى علشان تنضفها لك . »

محمود — متشكر وتصبحوا على خير

الاثنتان فى صوت واحد « وانت من أهله »

وما أن يخرج محمود حتى تلتفت سنيه إلى ابنتها تسألها « وإيه بقى حكاية الختمة ده ؟

— علشان ياكل وتتفتح نفسه لدروس مختار

— مختار يابت ... على أنا الحركات دى ؟

وتمد فاطمة يدها إلى أمها قائلة « مادام فهمتى حركاتى هاتى المفتاح بقى » وتعطيها أمها المفتاح وهى تحذرها « أوعى يافاطمة كده ولا كده

كلام الناس كتير »

— ما تخفيش على يا أم .. خلاص كبرت وعارفه إيه اللى بأعمله.

وتضع فاطمة المفتاح فى صدرها وتضغطه براحتيها فى أمل ورجاء .

— ١٨ —

الجفوة مازالت قائمة والقطيعة تفرق بينهما. ومحمود يحاول أن يستعيد علاقته بفايزه. لكنها غاضبة صادة تتحاشى أماكن وجوده وتتجنب لقاءه . وإذا حدث وواجهته تبدى له فتوراً يقلب أقدامه إحجاماً وإقباله إدباراً .

لكنه لا ييأس يريد فرصة واحدة يشرح لها علاقته بسهير لكنها لا تمكنه من ذلك . وينتهز فرصة دخولها المدرج فيتقدم اليها محياً « صباح الخير » .

— صباح الخير

— ألاقى معاكى محاضرات الكيميا

— متأسفه مش معاى

— بدون ما أتعبك ممكن تجيبيها بكره ؟

— ماعندك سهير ... تطلبها منها

— انت واخده فكره غلط .. سهير مجرد زميله

— وده يمنع إنك تاخد منها المحاضرات

— بس أنا معرفش أقرأ غير خطك وما يعجبنيش إلا أسلوبك تجيبيها معاكى بكره .

— مش ح أقدر لأنها مع الدكتور سمير بيشوف فيها موضوع .

ويهز محمود رأسه وهو يقول « كده .. طيب متأسف إنى أزعجتك،

ويذهب كل إلى وجهته ... ولم يكن لها وجهة إلا المدرج وجلس كل . وقد انتبذ مكاناً قصياً .

وتدوى كلمات فايزة فى رأسه تلهبه وتثير مشاعره خاصة لما بدا من اهتمامات متبادلة بينها والدكتور سمير . وأخذ يربط تلك الاهتمامات بذلك الجفاء ويجد فى الأولى تعليلا الأخرى .

ويدخل غرفته وهو على هذه الحال من الانفعال . ويصدمه التغيير الذى يراه . ويقف إلى جوار الباب يتأمل . السرير أزيح عن مكانه وتوسط الغرفة ووضع غطاء جديد وعلى الأرض سجادة صغيرة . ثم دولاب به مرآة تعكس كل شىء بدقة ووضوح . ونزعت تلك المسامير السوداء والمرآة الصغراء والرف الخشبى الحقير . واختفت الملابس المتناثرة على الحائط . واختفت أكوام الكتب الموضوعة على حافة النافذة . وعلى المائدة غطاء جميل وأطباق بها لحم (وفته) ومشهيات من المخلل ثم حلوى .. وتتحرك أمعاؤه فيتذوق قطعة من اللحم ويدور ببصره فيلاحظ ثنائيات جديدة من الكراسى والملاعق والسكاكين والأكواب وكأنها تعلنه بنية فاطمة فى مشاركته الطعام والشراب . ويشده الجوع إلى المائدة الحافلة بالأطعمة ويأكل حتى تمتلىء بطنه ثم يرتمى على السرير بملابسه فى استرخاء لذيذ . يذهب بتوتره وانفعاله السابق .

يسمع الطرقات الخفيفة ويدرك أنها فاطمة ويقول وهو معتدل على السرير ، اتفضلى ، وتهل باسمة مشرقة وقد حملت صينية عليها كوبين من الشاى وتحيه ، مساء الخير ،

ــ مساء الخير ... إيه الحاجات دى كلها.

ــ عجبتك الفتة واللحم ؟

ـــ أنا عمرى ماكلت بشهيه ذى المره دى

ـــ وحياتك ماخليت حديعد إيده فيها .. أنا اللى طابخه كل حاجة

ـــ وإيه الحاجات دى . . كراسى ودولاب

ـــ أصل المطرح بتاعنا بعد ما جبت عفشى بقى ضيق قلت أشيل حاجة عندك .

ـــ وفين الكتب .

وترسل ضحكة رنانة ثم تقول « خبيتها »

ـــ (باسما) وليه ؟

ـــ أصلها شغلاك ومش دارى بحد

ـــ مش لازم أنجح . . . ولا عوزانى أسقط

ـــ والنبى ده أنا بدعيلك كل يوم

ـــ طيب فين هى ؟

وتشير فاطمة إلى صندوق خشبى فى ركن الغرفة « هناك . » ويذهب محمود ليرى كتبه . وتقول فاطمة « كنت عاوزاك فى خدمة »

ـــ قـــوى

ـــ تمر على الشركة وتشوف حكاية التعويض والمكافأة

ـــ بسيطه . أى يوم ماعنديش محاضرات أخلص الموضوع

ـــ نفسى أصرف التعويض وأعمل مشغل

ـــ ح تفتحيه فين

ـــ هنا فى السطح ؟

وينزعج محمود فيعقب « لكن مفيش مطرح هنا »

— ح أعمل دروه فى الركن هناك لغاية ما الحال يمشي أدور على محل كويس .

— محل كويس فين يعني ؟

— لو أعدى الكوبرى ؟

— فى الزمالك ! !

— وليه لأ . مفيش حاجه بعيدة على ربنا

— لكن إنتى ماعندكيش فكرة عن السجاد

— إزاى . . أنا فى المدرسة كنت باشتغـــل على النول وعملت سجادة صغيرة

— برضه مش كفاية

— اللى يجرب يتعلم

— ربنا يوفقك

— ربنا يخليك لى . . . أسيبك بقى . تصبح على خير

— وإنتى من أهـــله

— ١٩ —

يقرر محمود الرحيل إلى قريته ليمضى بها يوماً أو بعض يوم لعله يجد بين أحضان حقولها الخضراء ومسطحاتها اليانعة ملاذاً لأشجانه . ولعل سماءها الصافية تستوعب متاعبه وتمتص معاناته بعد أن أصبح غير قادر على الانتظـــام بالكلية وفايزة لا تزال متباعدة صادة . ورغم ماتعطيه فاطمة من حب وعطف إلا أنها لم تستطع أن تخرجه عنه إلا لفترة وجودها معه .

ويصل القرية ويذهب إلى الحقل مباشرة . يتلقاه أبوه بالأحضان ويرتمى محمود فى صدره ويستشعر الأب ما فى هذه الارتماءة من ضنى ولوعة فيربت على كتفه فى حنان دافق ثم يبعده عنه وهو مايزال قابضاً على كتفه ثم يقول « إنت لسه زعلان . . . ؟

— أبداً . . . أنا جيت أشوفك

— عندنا الرجالة تحزن من جلودها وتجرى برضه على عيشها

— يمكن أستريح هنا وبعد يومين أهدى

— تحب تروح ع الدار والا تتمشى فى الغيط

— أتمشى أحسن

ويسيران فى الحقـــل . ويقول الأب « شوف البامية ظهرت ، والأسبوع اللى جاى أنزل المركز أشوف مشترى »

— ما تيجى سوق الخضار أحسن

— تجار الخضار شطار قوى ما أحناش جدهم

— ده الخضار غالى فى مصر وبيكسب

— غالى فى السوق لكن جبل كده بملاليم

— إزاى ؟

— السنة اللى فاتت عمك أدهم زرع فاصوليا علشان التصدير وطلعت عوجة . رفضتها الجمعية واضطر يبيعها فى سوق الخضار

— كويس

— لاكويس ولا حاجة باع الطرناطة بخمسة جنيه وانكلف بجلها خمسة جنيه برضه

— لكن ده الكيلو فى مصر بخمسة قروش

ـــ بخمسة قروش للتاجر الكن لينا أحنا بخمسة ميلم

ـــ يبقى تبيعها فى المركز أحسن

ـــ وانت مش لازمك فلوس ولا حاجة

ـــ أبداً ... المهم أختى وشوارها

ـــ هو آن متأخر فى حاجة . هو لولا الغول راح كان زمانها حدى جوزها

ـــ ربنا يبارك لنا فيك

ـــ طيب يالله بينا أحسن أمك تزعل من جمدتك هنا حصة الغده .

ويمضى محمود عدة أيام فى قريته يروح فيها عن نفسه ويسرى عنه متاعبه . يرقب الفلاحين وهم يعملون فى دأب وإصرار رغم مافى حياتهم من شقاء وعناء . لا يفارقون أرضهم ولا يتركون زراعاتهم لا يلهوهم عنها فرح ولا يصرفهم عنها طرح . ويشحنه ذلك الاصرار بطاقة جديدة وتنحسر عنه موجات القنوط وتصفو نفسه

هذا من أمر محمود أما فايزة فهى تعانى مثله وتقلق لغيابه تود لو تشاهده ويحرك القلق عاطفتها وشوقها إليه ويذهب غضبها وترجو لقاءه وتهفو لحديثه

أما فاطمة فهى فى ضيق من رحيله المفاجىء ولا تجد مصرفا لانفعالاتها إلا فى غرفته فتصعد إليها ترتبها وتنظفها وتتوقف عند كل قطعة أثاث وتمسك بملابسه تضمها إلى صدرها فى شوق حبيب وتتمدد على فراشه وتتقلب عليه ذات اليمين وذات اليسار وسلوكها يفضح نواياها وخبايا نفسها وينتزعها من رقدتها صياح أمها . يافاطمة . . يافاطمة . . الحقى شـــوفى .

ـــ خير يا أم ... فيه إيه ؟

ـــ الواد اللى بيشتغل عند صاحب الملك جاب الوصولات دى .

وتهبط فاطمه وتمسك بالأوراق وتقرأها ثم تردف « واحنا ح نجيبه منين دلوقتى ؟ »

ـــ وقال إن عليه ثلاث شهور متأخرين ويايدفع يا بعزل

ـــ ماداهيه للراجل يمشيه بجد

ـــ والعمل ؟

ـــ دول كلهم ثلاثة جنيه وخمسة وأربعين قرش

ـــ إن شاء الله جنيه واحد لازم كل حى يدفع اللى عليه

ـــ ما تدفعيهم يا أم لغاية ما يرجع

ـــ هو احنا حيلتنا قرش زيادة

ـــ إنتى مش لسه قابضة الجمعية

ـــ يخيبك ... ده أنا كنت عاوزه أشترى أسورتين

ـــ علشان خاطرى يا أم وأول ما أقبض المكافأة أردهم لكى

ـــ وهو محمود يرضى بكده ؟

ـــ سيبى الموضوع ده لى

ـــ أنا عارفه قلبك حنين عليه كده ليه ... إياك يتمر فيه ؟

وتحضن فاطمة أمها وتقبلها « ربنا يخليكى يا أم »

— ٢٠ —

يعود محمود إلى القاهرة وقد حماته أمه كعادتها سله بها فطير وبيض وجبن وعسل تؤمن بها معيشته لعدة أيام . ويسير بها محمود دون أن يعانى نصباً أو رهقاً . فقد راقت نفسه وبات تواقا لأن يذيب بلورات الجليد العالقة بحبال مودته مع فايزة . لكنه فى حيرة لا يدرى كيف ومن أين يبدأ ؟ . . .

ويدخل غرفته ورأسه يطن بتلك الأسئلة . ويضع السلة على الأرض ويلاحظ أن الغرفة مرتبة ونظيفة وملابسه قد غسلت . يلحظ مدى اهتمام فاطمة به حتى فى غيبته . أنها تعنى به دائما وتحدب عليه كثيراً . تمنحه بدفء حركاتها ولفتاتها لحظات من البهجة تسرى عنه وتنقله إلى مجالاتها الناعمة

ويتماق بصره بثلاثة ورقات على المائدة . يمسكها ويقرأها ويتذكر إن عليه أن يؤدى إيجار الغرفة لثلاث شهور مضت . وتدور برأسه أسئلة عديدة كيف وضعت هذه الإيصالات ؟ ومن الذى أحضرها ؟ وهل هى مطالبة صاحبته بالدفع الفورى أو الطرد ؟ أم للتسديد الجزئى بالقسط المريح ؟ ومن أين له السداد وقد عاد من قريته خالى الوفاض . فلم يجسر أن يكاشف أباه بحاجته لبعض الجنيهات وهو يعلم مـــدى ضائقته وعسرته .

ولا يجد سبيلا لإيضاح ما غم عليه إلا بسؤال عم عبد الله . الذى كان قد لقن الموضوع تلقينا فيجيبه فى بساطه « هو إحنا يخاصنا إن صاحب البيت يمسك بكلمة . . . ده إنت إبننا »

— بس يعنى أنا . .

ـــ لما يبقى معاك فلوس إبقى سدد

وتدخل سنية وتدلى بدلوها « تشرب شاى ؟ »

محمود ـــ متشكر ... ولما أسافر فى البلد ح أجيب المبلغ

سنية ـــ وليه الاستعجال ده ... ماهى فلوس متشالة عندك ذى ماتكون فى الدولاب بالظبط

محمود ـــ أنا مش عارف اشكركم ازاى

ويعود محمود إلى الغرفة وينشط فى تفريغ السلة من محتوياتها . وتقفز إلى خاطره فايزة عندما تناول معها الفطير أول مرة بحديقة الكلية بين حديث الأمانى والأحلام . ويهديه عقله إلى تكرار الوجبة كاشارة إلى ود سابق وألفه لم تفتر بعد . لكن يتخوف رفضها وإحراجه بين زملائه . ويستصوب أن يحمل هديته بنفسه إلى منزلها ليتجنب رفضها إن كان هناك رفض

وينفذ مهمته دون أن يرها . ويعود إلى غرفته بهل ؟... وفيما إذا ؟ ولو أن ؟ وربما ؟ ولعل ؟.... أسئلة لاجواب لها .

وأثناء سيره يتعلق بصره بإحدى عربات النقل من تلك التى كان يقودها حسن أو كان يركبها هو فى سفره إلى قريته . ويتذكر وعده لفاطمة بالاستفسار عن التعويض والمكافأة وخلافه

ويذهب إلى مقر الشركة ويقابل الموظف المختص الذى يجيبه « عموما التحقيق خلص وثبت أن الفرامل فوتت وده سبب الحادثه »

ـــ أقدر أعرف التعويض كام جنيه

ـــ حوالى ٧٠٠ جنيه

ـــ طيب متشكر

— اسه يا أخ ... فيه كان معاش إتناشر جنيه لأولاده
— بس ده كان لسه متجوز ومعندوش أولاد
— تبقى مراته تاخد ستة جنيه والباقى للورثه
— متشكر قوى يا أستاذ .
وفى غرفته يجد فاطمة وقد أسندت رأسها بيدها « مالك تعبانة » ؟
— زعلانة منك علشان سافرت من غير ماتقول ...
— كنت مستعجل
— أنا كنت ح أخلى أبوى يسافرلك البلد
— للدرجة دى
— أيوه ... أصلك غالى عندنا قوى
— متشكر ... وعلى فكرة رحت الشركة وعرفت لك كل حاجة
— صحيح ... طمنى وحياتك
— أولا لكى معاش سته جنيه ثانيا يخصك من التعويض متين جنيه
— حلوين ... أقدر أشترى النول وشوية صوف وابتدى أشتغل
— من غير رخصة ؟ .. تاخدى مخالفة
— البركة فيك تمنع كل المخالفات دى
— طيب مش يمكن اشتغل فى بلد تانية تعملى إيه فى الحالة دى ؟
— بلد تانية ؟ ... ازاى ؟ .. وتسيبنى
— كل شىء صعب والمقدر يكون

وتصدم فاطمة بهـــذا التجاهل لمشاعرها والإجحاف بعواطفها فتغضب وتقول « وأنا ... أنا متقدرى فين ... خلاص ماليش أهمية عندك ، وتنفجر باكية ثم تردد « أنا عارفه إن قلبك مادقش لى »

وتجرى مهرولة تاركة الغرفة ومن فيها .

ويؤخذ محمود بهذا الغضب الذى لم يتوقعه بل يهب فجأة . ويسارع خلفها يناديها « فاطمة .. استنى .. مش قصدى »

لكن خطواتها كانت أسرع من ملاحقته وغضبتها أشد من أن يستوقفها نداؤه .

وفى غرفتها تزيل الدموع من عينيها وتشرع فى التفكير وبحث أمرها منه وتدرك أنه يأنس لها ولجلستها ولكنه لم يحبها بعد . ربما يكون هناك من تشاغله وتمنحه حباً كاملا يرضى شبابه وفتوته لكنها لا تستطيع أن تتمادى معه إلى هذا العمق . وما ذلك عن تمنع أو تعفف بمقدار ما هو تخوف من إنسياقها إلى متاهات العشق ثم ابتعادها عن شاطيء الأمان والأحلام . قد تناله ويصبح أسير فتنتها وسحرها لكنها لن تكون زوجته وأم أولاده .

وتتساءل ماالذى ينقصها عن الفتيات الأخريات ؟ أهو الجمال ؟ أهو المال ؟ أهو التعليم والشهادات ؟ ويتركز تفكيرها على المال ذلك الشيء الذى لم يسبق لها أن إمتلكت منه القليل أو الكثير لكنها تعى بذكائها الفطرى أنه يمكنها من أحلامها ويقربها إلى هدفها فينولها ما تريد . وتهتدى إلى أن عليها أن ترقى بنفسها ليقتنع بها وان ترقى إلا إذا تيسر لها المال ، وحتى ذلك الحين عليها أن تشغله بأمرها وبشئونها وترعاه وتلاحظه وتنمى إرتباطه بها وحاجته إليها .

وعند هذا الحد من التفكير تكون قد هدأت وأرتاحت وتتقدم إلى المرآة لترى صورتها فتمسح وجهها المبتل وتهندم ملابسها وتهذب شكلها لتستعد لنضال جديد وسعى جديد .

أما محمود فيتفهم سر غضبها ويتضح له أنها تكن له حبا وودا وما تلك الإهتمامات الا تعبير عن عاطفتها المشبوبة . لكنه لا يستطيع أن يبادلها الحب فإن قلبه لفايزة ولا يملك من أمره شيئا . ويدرك خطأ تشجيع فاطمة فى بناء الآمانى وأن عليه تقليل فرص لقائها ومحادثتها . وإذا أمكن فلينتقل إلى منزل آخر . لكن انى له ذلك وهو يكاد أن يكون معدما ثم أن الإمتحانات إقتربت وأصبح فى حاجة لتفرغ الذاكرة وليس للبحث عن سكن جديد . ثم من أين له أن يتحصل على تلك المساعدات التى تقدمها أسرة عم عبد الله . ثم ينظر إلى اللمبة الكهربائية ويرى فيها استحالة تغيير اقامته أو حتى يفكر فيه

وفى الصباح يذهب محمود إلى الكلية متلهفا ومتخوفا لقاء فايزه . ويحرص على أن يصل الكلية متأخراً ليضمن وجودها يلمحها فى شلة من الطلبة والطالبات يميزها شعرهـــا المقصوص للخلف ، ويغير مساره ويدور دورة واسعة ليواجهها تماما وليقدر حسبما يبدو من ملامحها أيقبل أم يدبر . وتراه ويفتر ثغرها عن ابتسامة مرحبة وتضحك عيناها تستدعيه فيطيب نفسا وترتد إليه ثقته . ويقترب يحي الجميع ثم فايزه التى تومس له « مرسى »

— جيت أفكرك بالى فات

— كانت مفاجاه جميلة

— ماهانش على آكلها لوحدى

— مرسى وياترى لسه عاوز محاضرات الكيميا لو سمحتى

وتخرج الكراسة من حقيبتها وتعطيها له ثم يسيران جنبا إلى جنب في اتجاه المدرج . . . وقد انفصلا عن المجموعة وهما مغرقان في حديثهما ثم تسألة « ووالدك عامل إيه مع الفول ؟ »

— زى ما أنتى عارفه راح منه وزرع لفت بداله

— لفت . . . واشمعنى ؟

— زراعته ماتكلفش ومدته فى الأرض بسيطة

— استثمار قصير الاجل

— طبعا هو ماعندوش فكرة عن النظريات دى

— بس عارفها بالخبرة و الممارسة

ويقفان أمام المدرج وتقول فايزة « لسه ست دقائق . . . » بينما يمسك محمود بكراسة الكيميا يقلب صفحاتها ويستوقف نظره خط غريب يختلف عن خطهـــا الذى يعرفه جيدا . ويقرأ تلك الكلمات الدخيلة . . .

لا تذهب بعيداً واقترب
فى القرب ألفة وأنس
وامسك بأفكارك الشاردة
وتعال بأمانيك المراودة
لنا يوم ولقـــاء
ننسى فيه الكلام والأسماء
حتى الهواء
إلا مايدخل الصدور ويمتزج بالدماء
لا تذهب بعيداً واقترب

وترجف على وجهه انفعالات الغضب ، الغيرة ، الإضطراب

ويسألها « مين صاحب الخيال ده »

ــ (بارتباك) الدكتور سمير

ــ الظاهر إن عنده مواهب شاعرية وعاطفية

ــ كانت عنده النوتة وكتب الكلمتين دول

ــ باين إنك معجبه بمواهبه

ــ ذى اعجابك بمواهب سهير ورسمها

ويتوقف التلاحم بينهما ويسود التوتر . هو فى غاية الغضب وهى فى غياهب الحيرة. تحرك يديها وأصابعها بعصبية ظاهرة وفجأة يعيد إليها الكراسة قائلا « إتفضلى كراستك ... مابقتش تلزمنى »

ويمضى فى سرعة تزيد فايزة حيرة . لا تدرك أبعادها حتى بعد أن تراه يخرج من الكلية إلى الطريق العام.

— ٣١ —

يقلل محمود من ذهابه إلى الكلية ويقتصر حضوره على المحاضرات الهامة. ويتعمد أن يدخل المدرج متأخراً ويكون أول من يغادره متحاشياً لقاء فايزة بعد أن قرأ تلك الكلمات الشاعرية . وتلحظ فايزة هذا التجافى والتنائى وتتألم تود لو تتاح لها فرصة لتشرح له تلك الكلمات البريئة . لكنه يربأ بنفسه أن يدخل فى منافسه ضد الدكتور سمير الذى قد تفضله عليه . لذلك فهو يهرب ولا يواجه ويتلافى ولا يتصدى .

تتأثر فايزة بسلوكه تريده أن يستمع لها وليفعل ما يحلو بعد ذلك . ورهقها التفكير وتلمس الفرصة وأصبحت قلقة مضطربة لاتستقر على حال ولاتثاير على عمل .ملوله متوترة .تنام من الليل قليلاو تتوسد فراشها

فى النهار كثيراً . تمل الوحدة فتلجأ إلى صاحباتها ثم لا تلبث إلا قليلا وتغادرهن . لا تشعر بيناعة الأشجار أو بسمة الأزهار أو بحلاوة الربيع .

ويسرى قلقها إلى من معها فى منزلها ويسألها أبوها « مالك يابنتى إنتى عيانة . . . ولا فيه حاجة شغلاكى ؟ » وتعقب الأم « لازم تاخدها للدكتور دى وشها أصفر وهفتانة »

فايزة — الإمتحانات قربت يابابا

الأب — إنتى عمرك ماخفتى من الإمتحانات

فايزة — يابابا ده بكالوريوس . . . لازم أقلق

ويشعرها ذلك الحديث باقتراب الإمتحانات وضرورة الاستعداد وتفكر بطريقتها الحسابية وتمسك بالقلم والورق تحسب عدد الساعات اللازمة لمراجعة المواد وعدد الساعات اللازمة للاستذكار فتجد أنها تحتاج إلى مائة وخمسين ساعة أخرى . فتعيد تقديراتها وتقلل ساعات الراحة والنوم حتى تدبر المائة وخمسين ساعة المطلوبة

وتنحى عواطفها جانباً . وتتجه إلى الكتب والعلم تتزود منها وتدرأ بها عن نفسها تلك الانقباضات العاطفية . وبعزيمتها ووضوح رؤيتها تجتاز مرحلة الانفعالات وتنموا قابليتها للاطلاع والمذاكرة وتشعر بالراحة خاصة كلما طوت علماً من علومها .

يمر محمود بنفس الأزمة العاطفية بل أن معاناته اشد فهو مشتت الفكر بين فايزة المعجبة بالدكتور سمير وفاطمة التى تمارس عليه نشاطاً يومياً . فرغم حاله التغاضب البادية منذ أن بارحته باكية لا تظهر ولا

تسمع لها صوتاً لكنها مستمرة في رعايتها له تنظف غرفته وتواليه بأطباق الحلوى والمأكولات ترسلها مع أحد أشقائها .

والواقع أن فاطمة تتابع حركاته وسكناته ومواعيد خروجه وعودته ومتى يذاكر ومتى ينام وتلاحظ كثرة خروجه وعزوفه عن المذاكرة بينما النوافذ حولها مفتحة ترينها الفتية منكبين على كتبهم يستعدون للامتحانات التي قربت مواعيدها . وتود لو تصعد تنصحه وتحذره لكنها مازالت تغاضبه ولا تريد أن تبادءه بالوصال . وتأتي بحركة ذكية تحقق لها غرضها .

ويعود محمود ليلا ويوقد اللمبة الكهربائية فيجد النور أسطع وأقوى مما كان ويفهم أنها قد وضعت له لمبة جديدة ليضاعف جهده والاستعداد للامتحان . وتشعل فيه هذه اللفتة الحماس وتوعيه بتبعاته ويتغير حاله من عزوف الى طاقة متوقدة . فينكب على كتبه ومراجعة يستزيد منهـــا ويستعيد مابها . وتسمع فاطمة خطواته يذرع الغرفة حتى ساعة متأخرة من الليل . وترقبها وتحن للصعود اليه ولو لدقائق قليلة . لكن كرامتها الأنثوية تمنعهـــا .

ولا يتأخر محمود كثيراً عنها فعندما يعلم باحالة عم عبده الى المعاش يعزم على زيارته ويتذكر الاستمارات الخاصة بمعاش فاطمة التي كان قد أحضرها وما زالت عنده .

ويهبط ويقدم الأوراق الى عم عبدالله الذي يقول « والله إنت ابن حلال من يومين قالت فاطمة عليهم وكنت عاوز أسألك » ثم ينادي الرجل إبنته . فتحضر الأم التي تحيه « أهلا . . . فينك »

ـــ المذاكرة شغلاني خالص

أما فاطمة التي تزينت وتجملت بصورة لم يعهدها فقد حضرت بعد

فترة قصيرة وحيته ثم جلست صامته . ويخاطبها أبوها « شوفى محمود تعب نفسه وجاب الإستمارات ... »

محمود — لقيتك مش بتسألى قلت أجيبهم وانزل

سنية — ماتنحرمش منك

محمود — الأوراق دى بعد ما تتكتب ومعها اعـــلام الوراثة والشهادات الادارية تسلموها للشركة

عبد الله — بس أنا ما عرفش حد هناك . ماتيجى معانا

محمود — حاضر

سنية — يحضرلك الخير يابنى

وفى الموعد المحدد يذهب الثلاثة الى مقر الشركة وتكون هذه المرة الأولى التى تخرج فيها فاطمة فى صحبة محمود . ويستثير ذلك فضول الجيران فيطلون من النوافذ . ويلمحهم محمود ويضيق بهم . وتراهم فاطمة فتهنأ وتسعد لما سيطلقونه من أقاويل واشاعات تضمها ومحمود فى سيره واحدة

ويركبون (الأتوبيس) ويشق محمود طريقه به حتى يجد فرجة صغيرة تكاد تتسع له وحده وتقف فاطمة الى جواره وقد أمسكت بمسند مقعد أما محمود فأمسك بيده الساند المعدنى المثبت فى سقف العربة . وتسكن فاطمة برأسها الى كتفه ويتقبلها هو فى هدوء وحذر . وتهتز العربة وتهزهما معها . وتحدث ملامسات وتضاغطات لينة تلهب مشاعر فاطمة فتمعن فى ملامسته وضغطه بجسدها اللدن وتنقل اليه فى صمت عواطفها وأحاسيسها ثم ترنو اليه بنظرها تريد أن تسقيه عسلا مصفى ويبتسم لها فى انفعال حاول أن يخفيه ولكن عين الأنثى اللاقطة

تدرك رغبته المستسلمة فتزداد به التصاقاً تثير كوامنه وتحرك شبابه وهكذا ينشب بينهما حديث صامت حتى يهطبا من العربة .

يستلم الموظف المختص الاوراق وبعد مراجعتها يصرح « بعد أسبوعين فكون شطبنا الورق واللجنة تعتمد الإجراءات ونبعته بعد كده إلى هيئة التأمينات الإجتماعية . تسألو على المعاش والمكافأة هناك » .

ويعود الموكب عم عبد الله راضيا عن مسعاه وفاطمة سعيدة بذلك التجاوب الخفى الذى سرى بينها وبين محمود وتيقنت أنه بات قريبا منها.

يؤثر محمود الهروب منها خشية التصاقه أخرى فى اتوبيس مزدحم ويعتذر لها . . . ويسلك طريقاً آخر وأتى له ذلك الطريق وهى تتفانى فى خدمته .تلحظه بكل جوارحها . تقدم له الوجبات فى مواعيدها وتعد له الشاى فى الصباح والمساء وقد ترفه عنه بكوب ليمون مثلجة وقد تجلس أمامه صامتة أثناء استذكاره تشبع نفسها برؤياه وتتنسم وجوده. ويعتاد وجودها واهتمامها ويفتقدها إذا تخلفت عن مواعيدها . ويحدث ألا تحضر له شاى الصباح فيضطر إلى اعداده بنفسه متضجراً متبرماً . ويصمم على معاتبتها لكنه بمجرد رؤيتها وهى تعترض طريقه وقـــد وضعت على السلم ساقها البضة تهزها فى تحد يأخذه شبابها وحيويتها .ويفتنه ثغرها الباسم بسمة الزهر فى الربيع يدعو النحل لينهل الرحيق . وتحية الفاتنة اللعوب « صباح الخير »

ــ صباح الخير

وعندما لا ترفع ساقها عن طريقـــه يردف « بلاش تروح الكلية النهاردة ؟ »

ــ أحسن... علشان تستريح شوية . . انت طول الليل سهران

ــ عمل إيه الإمتحان قرب

ــ طيب ح ترجع من الكلية امتى ؟

ــ مش ح أتأخر

ــ تعمل حسابك تكون هنا ع الغدا .. فيه النهاردة بط وكشك .

ثم تسحب قدمها اتدعه يمر ويذهب إلى وجهته . وتدلف إلى شقتها وفى مثارة والحاح تقرع له كل يوم طبولها حتى يألف إيقاعها ودقاتها وأنغامها .

الفصـــل الخامس

الصيف المشحون

— ٢٢ —

اليوم هو أول أيام الامتحانات . يربض الخيم الكبير فى فناء الكلية . يراه البعض شبحاً رهيباً فى انتظار العديد من الفريس . ويراه البعض الآخر معبداً من المعابد القديمة حيث يقدمون القرابين لينالوا البركات . ويراه آخرون خطوطاً من المقاعد والنضد صفت كأنها حشود جند جهزت للنزال والقتال . ومهما اختلفت رؤياهم فهم يتجمعون فى فناء الكلية شراذم وجماعات . وفى إحدى تلك الجماعات يقف محمود منصتاً لمناقشة حامية بين زملائه عن الكيمياء الزراعية التى هى مادة امتحان هذا اليوم .

على (زميل) ـــ مش ممكن تيجى أسئلة عن الأسمدة الصناعية .

زميل آخر ـــ دى أهم حاجة فى المقرر

على ـــ الدكتور عباس لا يمكن يكرر أسئلة السنة اللى فاتت

زميل ثالث ـــ يمكن الدكتور حسام هو اللى يكون وضع الامتحان

زميل رابع ـــ الدكتور حسام حط الامتحان مرة واحدة بس لأن بنت الدكتور عباس كانت سنتها فى البكالوريوس

الزميل الثالث ـــ ما تقول رأيك يا محمود ... ساكت ليه .

ويصمت محمود قليلا لا عن تفكير لكن لمشاهدة فايزة . يريد أن يستقدمها بعد هذه القطيعة الطويلة دون أن يكون هو لداعى . فيقترح « أحسن حاجة فايزة جايه هناك ... إسألوها »

ويلوح أحدهم إلى فايزة منادياً « فايزة .. فايزة تعالى عاوزينك »

وتنضم إليهم وقد شحب وجهها وان كسته ابتسامة أكسبته بعضاً من الدفء . وتقف ببصرها على محمود للحظة قصيرة ثم تندمج مع الآخرين قائلة « إيه الهيصة دى ... انتم لازم تهدوا علشان تعرفوا تجاوبوا » .

على — تفتكرى مين اللى واضع أسئلة الكيميا .

فايزة — الدكتور عباس طبعاً .. لأنه مدرس المادة ورئيس القسم

على — طيب ومعقول تيجى أسئلة عن الأسمدة الصناعية ؟

فايزة — أنا فاكرة كويس كلام الدكتور عباس . كان دايماً يؤكد فى محاضراته إن أرضنا بقى لها أكتر من سبعة آلاف سنة بتنزرع يعنى أقدم أرض مزروعة فى العالم .

الزميل الآخر — أحسن حاجة نعتمد على الصناعة ونريح نفسنا من الأرض شويه .

محمود — مش معقول نسيب أرضنا الخصبة وخبرة أهالينا الزراعية ... دى ثروة كبيرة .

الزميل الآخر — لما نتحول للصناعة تقدر المصانع تقدم الآلات والأسمدة والمبيدات ببساطة .

محمود — بالعكس المفروض إن الزراعة تقدم للصناعة المواد الخام والأموال لغاية الصناعة ماتقف على رجليها فتخدم الزراعة .

على — يا جماعة إحنا ف إيه ولا فى إيه ... إتكلمى يا فايزة .

فايزة — يعنى تخصيب الأرض عقيدة عند الدكتور عباس

على — خشى فى المهم يا فايزة ... بقى

فايزة — باختصار الأسئلة ح تكون عن طرق تخصيب الأرض بالأسمدة الصناعية والأسمدة الطبيعية كان .

محمود — ده الكلام المظبوط .

يحين موعد بدء الامتحان وتتحرك الشراذم والجماعات إلى المخيم الكبير ويتمهل محمود فى خطاه امله واجد فرصة يحادث فايزة . وتتمهل هى الأخرى عندما تلحظ تخلفه عن الجمع ويلتفت كل للآخر وتتصافح العيون وتتصافى القلوب ويتقاربان حتى يتجاورا وتتماسك الأيدى لعدة خطوات تعلن عودة الوئام ثم تسحب فايزة يدها برفق ويهمس محمود « حمد الله على السلامة » .

— الله يسلمك .

— ذا كرتى كويس .

— مش بطال .

— أنا مرت على أيام كنت ذى التايه وبعدين شديت حيلى .

— يعنى ناوى تجيب تقدير كويس .

— كله بتاع ربنا .

— مبروك مقدماً .

— سوى إن شاء الله .

ويفترقان أمام باب المخيم الكبير ويدخلان ويجلس كل فى مقعده . وينهمك كل فى تدوين بياناته على الأوراق التى أمامه . وتشخص

الابصار إلى منصة اللجنة ويظهر الدكتور عباس حاملا مظروفاً كبيراً يقدمه إلى رئيس اللجنة . وعندئذ يتبادل محمود وفايزة الابتسام على مدى المسافة التى بينهما لصواب الحدس والتخمين .

وتمضى أيام الامتحان ثقيلة مرهقة يتقابل فيها محمود وفايزة وقد ابتعدا بحديثهما عن المسائل الشخصية ودارت حول المنتظر والمحتمل من الأسئلة ويحدث فى اليوم الأخير أن يغادر محمود الخيم مبكراً عن فايزة . ويلقى ببصره نحوها فيجدها جالسة منكبة على أوراقها تسكب فيها كل ما فى جعبتها .

وينتظرها حتى تخرج لعلها بعد انتهاء الامتحانات بأيامها المشحونة بالتوتر . . . لعلها تكون أكثر إنشراحاً وأصفى بالا ليستجلى منها أمرهما خلال عطلة الصيف الطويلة .

ويلقاها باسما ويسألها « يا ترى جاوبتى كويس النهاردة »

ــ أكثر مما كنت أتوقع .

ــ خلاص الإجازة ح تبتدى . . .

ــ أنا فعلا محتاجة لأجازة أريح فيها أعصابى شويه .

ــ الواحد بعد الراحة بيحس بالملل ويزهق من الإجازة

ــ إشغل نفسك بأى حاجة .

ويحاصرها بنظراته وبتعليقه « ما انتى عارفه إيه اللى شاغلنى »

وتدرك ما يعنيه ويتضرج وجهها للحظة ثم تجيبه « عندك الزراعة بتاعة والدك تستوعب وقتك كله . »

ــ طيب وانتى ح تعملى إيه ؟

ــ أقرأ . . أساعد ماما فى البيت ويمكن أسافر اسكندرية عند أخويا

ـــ يا بختك عندك أخ فى اسكندرية تروحى له

ـــ وكان تقدر تيجى مصر ولا اسكندرية

ـــ ولو جيت ح أقدر أشوفك ؟

وتؤخذ بهذا السؤال فتخلد لإطراقة بسيطة ثم تقول «أنا مش ضامنة ظروفى لكن على أى حال ح نشوف بعض يوم إعلان النتيجة ولما نستلم أوراقنا من الكلية »

ويوجه سؤالا آخر « إفرضى إننا تقابلنا صدفة فى أى مكان ح أكلمك والا لأ ؟

ـــ طبعاً ضرورى .

ـــ يبقى إيه الفرق إنى أكلمك صدفة أو بميعاد .

ـــ أنا ح أكون سعيدة لو قابلتك بس يعنى ... ؟

ـــ بس إيه ؟

ـــ إنت عارف إن مجتمعنا فضولى وكلامه كتير

ـــ طيب والزمالة والصداقة اللى بيننا خلاص تنتهى .

ـــ وليه تنتهى ؟

ـــ ح نواصلها إزاى ؟

ـــ (بعد تردد) فى الحقيقة مش عارفة أعمل إيه ؟

وتصمت حائرة وأصابعها تتشابك وتنفرج فى حركة عصبية ظاهرة لا هى قادرة على إجابته ولا هو راغب فى تكرار السؤال .

ولا يسعه إلا أن يودعها والأسى يتقطر من عبارته « طيب أتمنى لك أجازة ... أجازة سعيدة »

ويرق قلبها له وتهفو نفسها لتواعده وتستمر وشائجهما نابضة بالحياة لكنها تعجز وتقول « مع السلامة ... يامحمود »

ويذهب بينما تظل فى مكانها آسفة حزينة ثم تتحرك عائدة إلى منزلها يتنازعها الرضا والسخط . فهى راضية ومقتنعة أنها سلكت معه بما يتوافق وخصالها وأفكارها عندما رفضت تحوير زمالتهما العاطفية إلى نوع من العلاقة الثنائية المستورة الخافية . لا معالم ولا أبعاد لها . كما أنها ساخطة لأنها آلمته وهى الحريصة على وده ومؤالفته .

أما محمود فهو يفكر فى سلوكها ويفهم أنها انطوائية متخففة لديها المقدرة أن تعيش بأسلوبها متمتعة بذاتها أكثر من تمتعها بالحياة مع الناس . ورغم إعتقاده الجازم بودها وربما حبها بناء على تصرفات وأحداث صغيرة بدت منها خلال العام المنصرم . ورغم كل ذلك فهو غير مقتنع بسلوكها فهى لا زالت تتمسك بإعتبارات ترسبت فى المجتمع وأصبحت لاتصلح ولا تلائم فتاه الجيل وهى تشق سبيلها فى حياة جديدة أكثر إنفتاحاً وأرحب مجالاً . ويفسر له ذلك التحليل سر توقفها بل وتجمدها أحياناً فى خط علاقتهما العاطفية عند نقطة معينة لا تتعداها ولا تتخطاها .

— ٢٣ —

قد يكون لضيق محمود بفايزة واتجاهاتها السلوكية تأثير فى تصميمه على مغادرة القاهرة فوراً رغم معرفته بمقدار الفراغ والملل الذى يحتويه بالقرية . وينشط فى غرفته لجمع حاجياته فى حقيبته وصندوق خشبى . وتأخذ من تلك العملية بعضا من الوقت . وكثيراً من الجهد حتى إذا أتمها

أصبحت محتويات الغرفة مبعثرة ومضطربا حالها .

ويهبط إلى عم عبد الله وأسرته ليخطرهم بنيته وليشكرهم « فى الحقيقة أنتم غمرتونى بجمايل مالهاش أول ولا آخر » ثم يلتفت إلى فاطمة قائلا « وخصوصاً فاطمة تعبت كثير . ربنا يقدرنى لرد بعض أفضالكم » .

وتصمت فاطمة التى هزها عزمه على الرحيل وهى من كانت تطمع فى عدة أيام بعد الإمتحانات يتفرغ لها وتتفرغ له . وتزحف على وجهها علامات من الغضب والغيظ وتهز ساقها فى عصبية واضحه . وترى الأم ما أعترى إبنتها وتدرك أسبابه وتحاول أن تثنيه عن عزمه وتقول « إنت لا زم زهقت منا وما صدقت إنك خلصت الإمتحان »

محمود ـــ وده معقول برضه . . المسألة إنى عاوز أباشر الأرض مع ابوى

عم عبد الله ـــ دى حتى المواصلات زحمة الأيام دى . كل التلامذة راجعين لأهاليهم .

وأخيراً تتدخل فاطمة فى الحديث وتوجهه إلى أمها « هو إحنا يا أم مش كنا ح ننزل بكره الأزهر نشوف بتوع السجاد »

وينظر الأب والأم فى دهشة إليها لإنحرافها بالحديث إلى شىء غريب لكنها دون أن تبالى بدهشتهما تستمر « أيوه علشان نشترى النول » ثم تردف بعد وقفة قصيرة « وكنت باقول لوسى محمود يجى معانا .. يبقى أحسن » وأخيراً تفطن الأم إلى مناورة إبنتها فتؤيدها « أيوه يا بنى عمك عبد الله مالوش فى الحاجات دى » .

محمود ـــ وهو يعنى أنا اللى بأفهم .

سفية — على الأقل ح تعرف تتفاهم مع التجار أحسن منا

ويستجيب محمود لهذا الطلب البسيط فالهم عليه فضل كبير ويقول « أنا فى خدمتكم واللى عاوزينه أعمله » .

ويتركهم وهو على موعد معهم . وتسأل الأم إبنتها « قولى لى إيه خلاكى تخترعى حكاية مشوار بكره ده ! »

— دى مش حكاية . . . ده رسم أنا رسماه .

— طيب مش ترسمينا معاكى .

— مانتى فاهمه كل حاجة يا أم

— (ضاحكة) عليكى ملاعيب تدوخ العفاريت .

وفى الغرفة يشغل محمود فى فرز كتبه إلى مايحتاجها وإلى ماهو فى غنى عنها ويحمل الأخيرة إلى سور الأزبكية حيث ينتشر باعة ومشترو الكتب القديمة . وهناك يقدم بضاعته ويتحصل بدلها على مجموعة من الكتب المنوعة . كتب دينية عن الفقه والسير الإسلامية من تلك التى يحب أبوه وزائروه أن يتلوها عليهم ثم إنتقى لنفسه بعض كتب عن الأدب المعاصر والقديم وبعضا من التراجم وبعضا مما يناقش الإشتراكية المثالية والإشتراكية الغائية والتعاونية وبعضا عن الإقتصاد والأحداث والحروب التاريخية ثم يعود بذلك الزاد الأدبى والعلمى ليقتل به الفراغ والملل فى قريته .

وفى الموعد المضروب يذهبون إلى حى الأزهر حيث تكثر معارض ومصانع السجاد . يستقصون الأسعار ويتعرفون على أنواع الأنوال والصوف والخيوط وما يلزمها من عدد . ويطول بهم التجوال ويترددون على عديد من المصانع حتى الظهيرة ويرهق الأب والأم . لكن فاطمة

لا يفتر لها حماس ولا تتقاعس لها همه بل وتقترح الغذاء بأحد المطاعم الشعبية ليتابعوا تجوالهم عصراً . وتهيج الأم المتعبه التي حسبت أن الأمر هزل وحيله لاستبقاء محمودا عدة أيام . ولم يدر بخلدها أن فاطمة جادة كل الجد . وتصيح غاضبة « إنتي مدوخانا معاكي على حاجة لا ليها فايدة ولا عايدة لما كسرتي رجلي » .

عم عبد الله ــ ده آنا خلاص دماغي مش دريان بيها .

سنية ــ يالله ع البيت بلا كلام فارغ

محمود ــ طيب نأجل المشوار ابكره

سنيه ــ لا بكره ولا بعده

فاطمة ــ عاوزاني يا أم أستنى لغاية القرشين اللي قبضتهم مايطيروا مـــني ؟

ويفضل محمود أن يتعد عن هذا الإلتحام العائلي فيعتذر « عن إذنكم أفوت على واحد صاحبي ساكن هنا » ثم يذهب وبذلك يضعف حماس فاطمة لمتابعة البحث ولا تجد سبيلا إلا العودة إلى المنزل .

وهناك يحتدم النقاش بين الأم المتسلطة والإبنة العنيدة ويتوتر جو المنزل لدرجة تدفع عم عبد الله إلى الفرار إلى المقهى . ويلحظ صاحب المقهى اكتئابه فيداعبه « مالك شايل هم الدنيا . . . إضحـــك لها تضحك لك » :

ــ وأجيبه منين يامعلم درويش

ــ ليه كفى الله الشر ؟

ــ ماخبيش عليك يامعلم . مراتي وبنتي تاعبني ، البنت عاوزه تعمل بشغل سجاد ومراتي عاوزه تجوزها .

ــ معاك حق حاجه تحير . لكن مشغل السجاد يلزمه عمال وعدة يعنى شغلانة كبيرة .

ــ بنتى غرضها تشترى نول وتشغله فى السطح عندنا .

ــ ده اسمه تسالى مش شغل .

ــ تسالى ... دى ح تجيب بنتين وتشتغل معاهم كمان .

ــ برضه تسالى .. عاوزه تنسى صدمتها فى جوزها اللى اتخطف منها وبعدين ح تفوق وتطالب الجواز بنفسها .

ــ والله كلامك معقول بس المشكلة إن إحنا ما نعرفش فى الصنعه دى .

ــ ولا يهمك آخدك للحاج صديق شعلان صاحب مصنع كبير فى الحى بتاعنا راجل طيب وخدوم .

ويرحب بهم الحاج صديق فى مصنعه . ويستنتج من تكوينهم أنه إزاء عروس تتجهز فيمدح بضاعته « إحنا سجادنا بتاع التصدير » .

المعلم درويش ــ إحنا جايين اشغلانه ثانية .

الحاج ــ خير ؟

المعلم ــ خير إن شاء الله . بقى عم عبد الله عاوز يعمل مشغل سجاد صغير فى بيته وجايين نشورك .

ويتفرس الحاج فى عم عبد الله ثم يصرح برأيه « الشغلانة دى تقيله وفيها شقى كتير وعاوزه صحة وعافية وأنا شايف إن عم عبد الله ما يقدرش عليها » وتتدخل فاطمة فى الحديث « ما أنا ح أساعد أبوى رأفف معاه » .

ويدهش الحاج اقولها ويتأملها مليا ويدعك ذقنه بيده ثم يقول : « ماشاء الله ... ما شاء الله » .

وتستطرد فاطمة « إحنا لفينا فى الأزهر والغـــورية وشوفنا أنوال كثيرة » .

الحاج ــ وطلباتكم إيه ؟

فاطمه ــ عاوزين حتتين ؟

الحاج ــ تعالوا إتفرجوا على اللى عندى .

ويقودهم الحاج إلى مخزن داخلى ويمرون بصـــبية وفتيات وعمال يعملون فى مهارة وسرعة يعقدون الصوف ويقطعونه بسكين حاد وحواسهم مركزة على الأنوال التى أمامهم وأجورهم محددة بمساحة ما ينسجون، لذلك فهم أحرص على الوقت أن يضيع ، كحرصهم على القـــروش التى يتناولونها من الحاج كل أسبوع ، تاركين له بين عوارض الأنوال ما هو أكثر منها قيمة وأجزل ربحا .

ويعرض الحاج الأنوال المستعملة وتفحصها فاطمة ثم تتكلم « لـكن العوارض دى كبيرة » .

الحاج ــ علشان السجاد الكبير .

فاطمة ــ لـكن اللى ماشى فى السوق السجاد الصغير .

الحاج ــ ما شاء الله . دى إنتِ ذى اللى شاغلين فى الكار من زمان. وتطربها تلك الكلمات فتبتسم للحاج قليـــلا ثم تقول « أنا لازمنى حوية علام »

الحاج ــ (بحماس) على العموم أنا فى الخدمة .

فاطمة ــ وما عندكش أنوال صغيرة ؟

الحاج ــ ده إن ما كانش عندى أشغله مخصوص علشانك .

وتستشعر فاطمة بغريزتها الانثوية كلفة الحاج بها يستملحها بنظراته

ويستميلها بكلماته ويعدها بمساعداته .

عم عبد الله — ح نعمل إيه دلوقتى ؟

الحاج — النجار بتاعى أخليه يشتغل لكم حتتين بالمقاسات الصغير وبالسعر اللى باشترى بيه ... إيه رأيك بقى ؟

ثم يرمى فاطمة بنظره المستعد لبذل ما هو أكثر من ذلك . لكنها تتمسك بالصمت ولم تحرمه من نظرة مشجعة .

المعلم درويش — دى حاجه عال قوى يا حاج .

فاطمه — طيب مش نعرف الأثمان .

الحاج — ومستعجلة ليه كده ؟ هو إنتى مش جايه علشان تتعلمى الصنعة ؟

فاطمه — إن شاء الله .

الحاج — يبقى نتفق على مهلنا .

ويغادرون المكان . وبمغادرته تنتهى أسباب بقاء محمود بالقاهرة فيزمع الرحيل إلى قريته .

— ٢٤ —

يصل محمود إلى قريته ليمضى بها أشهر الصيف بين أهله . كان فى السنين الماضية يأتى منشرح الصدر مشتاقا لها وناسها وحقولها . لكنه هذا الصيف فهو على حال مخالفة . فرأسه مثقلة بالذكريات وقلبه ذاخر بالعواطف. تتوارد على خياله صور أحداث العام الماضى. وأكثر الصور ترددا عليه فايزة برقتها وبساطتها وشعرها المقصوص للخلف يميزها عن أترابها . ومن حين لآخر تطفو صورة فاطمة بدفئها وفتنتها ولفحاتها .

ويحن إلى القاهرة يود لو يقيم بها حيث كانت أولى تنسماته العاطفية وخفقاته القلبية ، وليوصل ما انقطع من روابطه بفايزة ، وليستمتع بالمدينة الكبيرة النابضة بالحياة والحركة . لكنه يرى أن لأبيه حقا فى علمه وأن لأخويه حقا فى ماله . وهو ملزم لأجلهم بالاقامة والعمل قريبا منهم . ورغم ذلك الصراع فانه يصاحب أباه فى زياراته أو لقضاء مصالحه . بوه فرح به فخور بأبوته له ، بل أن أهل القرية يرحبون به وينظرون إليه نظرتهم إلى البطل فهو واحد منهم. لكنه استطاع أن يتخطى حواجز القرية ويصل إلى أعلى مراحل التعليم . لم يلزم داره وحقله . ولم يستسلم لقدره ويصبح فلاحا مزارعا مثلهم . لذلك فهم يحترمونه ويقـــدمونه فى صدارة مجالسهم ويسألونه المشورة ويتقبلون نصحه. وإذا أرتج عليه القول لايلحون عليه السؤال خشية إحراجه وحتى لا تهتز أو تخدش صورة البطل فى أذهانهم .

وتصبح دار عم عثمان العفيفى مزارا محببا يتردد عليه أهل القرية يتسامرون فيما هو مهم وفيماالاجدوى منه. يتشوقون لسماع محمود يروى لهم عن أعاجيب القاهرة وما استحدث فيهـــا من مصانع ومنشآت . لكنهم يتشككون فيما يحدثهم به عن العلم وقدرته على إنهاء متاعبهم الزراعية. وكثيرا ما يطلبون منه أن يقرأ لهم فى كتبه بعضا من القصص الدينى والسير الاسلامية يتلمسون فيها الإيمان والأمان ويتزودون منها بطاقة لتحمل عشرات الأيام .

لا يستطيع محمود مداومة هذا الجهد ويزهد فى تلك الندوات ويجنح إلى الخلوة فى غرفته أو بين المروج الخضراء . ويعجب الأب لسلوك ابنه ويسأله « مالك يا محمود . . . ما بقتش تحب تقعد معانا ليه ؟ »

ـــ عندى شوية زهق .

ـــ تكنش عاوز تفرح بالعروسة .

ـــ لسه بدرى ولما أتوظف الأول .

ـــ آنى وأمك إخترنا لك عروسة حلوة جوى .

ـــ (بانزعاج شـــديد) إوعى يابا تكون كلمت حد ولا اتفقت .

ـــ أنا جلت آخد رأيك الأول .

ـــ عموما إصرف نظر عن الموضوع ده .

ـــ أمال بجى مالك .

ـــ بافكر ح أشتغل فين وإزاى ؟

ـــ كل حىّ بياخد نصيبه .

ويرتاح الأب بعد أن إقتنع بأسباب عزوف إبنه ويتركه لسبيله. يتجول محمود بين الحقول. ويمشى بين أحضان الطبيعة المنبسطة أمامه . لا يلمها بصر ولا تحيط بها عين . وتأخذه رحابة الكون وإتساع الأرض وإنفتاح السماء . ويستغرق فى نوبات جمالية تستوعب كل أحاسيسه. وينصت إلى ترانيم الطبيعة ويستمتع بكل حركة طائر أو فراشة وتبهره اللوحات السامية . فيذهب عنه ضيقه ويغمره سلام وصفاء ويشعر بهفات النسيم على وجهه ويرى لفحاته تضغط الأشجار والأغصان والأعواد الخضراء فتميل وتنحنى وكأنها تصلى وتسجد لسـيد قدرها تسبح بحمده وتجل عظمته . وتأخذه تلك الإشراقه فتنزل على نفسه سكينة ويرتد إليه نشاطه وكأن جسده وعقـــله وروحه قد تجددت .

ويحدث أثناء تجوله أن يسمع نداءات الفلاحين يتزاعقون ويجرون إلى الطريق الزراعى . ويستجلى محمود الأمر ويخبره أحدهم « جاموسة الدسوقى ضربتها عربية وهربت . . »

— ضربتها فين ؟

— ع الزراعية .

ويذهب محمود حيث تحلق الجمع ويرى بينهم أباه . اختلط الرجال بالنساء بالصبية إما نجدة وإما فضولا .

النساء تولولن والرجال بين ناصح أو صائح، والجاموسة المصابة تخور خوارا أليما والدم ينزف منها . يجثو أحد الرجال إليها ويفحصها ويمسك بأطرافها ليتبين الإصابه ثم ينهض والحسرة ترتسم على وجهه قائلا « عليك العوض يا دسوقى . . . الجاموسة بتنازع » وما أن تسمع النسوة تلك العبارة حتى يرتفع صراخهن يندبن المصيبة الكبرى. أما الدسوقى نفسه فقد طحنه الحزن . . ويصيح أحد الواقفين « يا جماعة دى لازم تندبح حالا » . .

يظهر بين الجمع فلاح يحمل السكاكين وأدوات الذبح والنحر . . ينحنى إلى الجاموسة ويكبر تكبيرا كثيرا وهو يمرر السكين على رقبتها يعاونه آخرون يمسكون برأسها حتى تسكن حركتها .

وتنقل الذبيحة على عربة وقد سار خلفها الجميع فى موكب جنائزى حتى يصلوا إلى ساحة القرية . . وتقام أعمدة خشبية ترفع عنها الذبيحة ويستكمل ذبحها وسلخها وتقطع وتعرض للبيع .

يفد كل من القرية ليشترى. يستوى فى ذلك القادر والمعدم القادر يشترى ما وسعه الشراء نقداً .

أما المعدم الذى لا يأكل اللحم إلا فى المناسبات والأعياد وفى مثل هذه الملمات فيشترى لكن يؤجل الدفع لحين ميسرة أو يقـدم قمحا او ذرة أو بيضا .

لم تكن تلك الحادثة بالأمر الجديد على محمود، فهو بحكم ريفيته خبر الكثير منها . كان فى الماضى يتأثر بها تأثيراً عاطفيا . أما اليوم فهو يراها برؤيا جديدة ، تعى وتدرك يربط ظواهر الأمور باصولها . فهو يعلم أن هناك جوانب سلبية تتفشى بين أهـل قريته . كل سارب فى شتوته ومعنياته . لكنهم فى الملمات والخطوب تنفجر منهم طاقات إيجابية تشدهم إلى بعض وتمكنهم من التصدى للخطير من النوازل والنوائب .

ويكاد محمود يلمس ذلك الشىء الكامن فى أعماقهم يوصلهم بجوهر واحد فى مصير واحد .

ويعود محـمود فى صحبة أبيه بعد ان أعطاه أهله منـذ لحظات معنى كبيراً للحياة أو بصورة أدق اتجـاها أصيــلا للحياة . . فكل تلك المبادرات التلقائية التى بدت منهم للتخفيف عن الدسوقى دفعته لأن يناقش نفسه ويقدر موقفه ويتساءل أين هو من هؤلاء القـوم ؟ أين موقعه ؟ أين طريقه ؟ ومن أين يبدأ ؟ من هنا . . من قريته أم من هناك حيث خفقات القلب ومتع الحياة .

ويشعر بتلك القوة الارتباطية بأهله تجذبه نحوهم وتستقطبه ويدرك أن مكانه بينهم . أمرهم وشأنهم من شأنه . لا إنفصام ولا انفكاك عنهم أو عن مشاكلهم ومتاعبهم .

وعندما يستقر إلى هذه النتيجة يقترب من أبيه . يلاصقه كتفا

لكنه ويبسم لابنه بعد عبوسه طويلة ظنها الأب حزنا على السوق ولم يدر أنها عبوسة الحيرة والمعاناة .

يعود محمود إلى نشاطه بين القوم . يستأنف حضـــور ندواتهم ويشارك أباه فى مباشرة الأرض . . . ويحدث أثناء ذهابه إلى الغيط أن يسمع من يناديه ويتلفت ويكون خاله . ويتجه إليه فى حقله . . ويستضيفه خاله على بعض ما بالحقل فيصيح «بت يا خضرة هاتى كام فحل خيار من حداكى »

وتأتى الفتاة ببعض منه وقد حملته فى جلبابها كاشفة عن ساقيها عمدا أو غفلا . وتقدمه الى محمود قائلة « اتفضل .. »

لكن خاله يأخذه منها وينهرها « إمشى انجرى . . كاك خشم بوزك » وبين قضمات الخيار الندى يقول الخال « كان الشيخ خليل اشتكى من الخوخ بتاعه وكلمنى لأجل اشوفه »

ـــ الراجل ده ولو انى أحيرش لكن لأجل خاطرك أروحله معاك .

ويدخلان دار الشيخ خليل بعد الاستئذان . يصادفهما حوش فسيح على جانبيه تكعيبة عنب ظليلة . يمرح هنا وهناك بط وأوز ودجاج كثير وفى ركن قصى توجد حظيرة للمواشى .

ويستقبلهم الشيخ خليل ويدعوهم إلى الجلوس تحت التكعيبة . . ويؤتى بالشاى تحمله فتاة فى ربيع عمرها ترفل فى ثياب سوداء حريرية من تلك التى تلبسها الأتراب العذارى . . تحمل صينية الشاى بيد والاخرى تجذب عصابة رأسها تدارى بها وجهها . ويضحك الشيخ خليل « انتى مكسوفة يا حسنية؟ ده محمود ابن عمك عثمان سلمى يابت » .

وتمد يداً رخصة مثقلة بالأساور الذهبية اللامعة. وتمايل فى دل ريفى وهى تقول « حمد الله ع السلامة » .

محمود ــ الله يسلمك .

الخال ــ دى بجت شبة .

ويرد الشيخ الأب « أصل بناتنا تكبر بسرعة .. البت من دول ما تحصل الخمستاشر إلا وتلاجيها انخرطت وتبان ولا بنت عشرين » .

الخال ــ فين بجى شجر الخوخ اللى بتشكى منه ؟

الشيخ ــ فى الجنينة جارنا طوالى .

وتحت ظلال أشجار الخوخ يشرح الشيخ الإصابة « شايف البجع السوده دى آهى كل سنة فى الميعاد ده تظهر ع الخوخ وبعدين يجف ويجع نصه جبل ما يطيب . ويمسك محمود بالثمرة يفحصها ويسأله « إنت عفرت » .

ــ أيوه بالسكريت .

وينزع محمود بعض الأوراق يدقق فيها النظر وينتقل من شجرة لأخرى ثم يسأل « والجنينة دى مساحتها كام ؟ » .

الشيخ ــ ثلاثين جيراط .

محمود ــ يا ترى خفيت الشجر .

الشيخ ــ طبعا وجمت ربع الخوخ.

يرتكز محمود على الأرض . ويفحص الجذور . بينما الشيخ وخاله يراقبانه بإهتمام ثم يقول محمود « ده نوع من الفيرس » .

الشيخ ــ فرس .. فرس إيه ده كان ؟

محمود ــ ويجوز يكون نوع من الفطر .

الشيخ ــ والله ما آنى فاهم حاجة .
الخال ــ ومين سمعك .
محمود ــ بصراحة أنا لازم أرجع للكتب .
الشيخ ــ وهى الكتب ح تجول حاجة ؟
محمود ــ (مبتسما لسذاجته) كل حاجة موجودة فى الكتب . ويمكن نضطر ناخد عينة من الخوخ والجذور ونحللها فى المعمل .
الشيخ ــ (متهكما) ده ولا دكاترة المركز ... كل حاجة عاوزين تحليل .
الخال ــ وهى يا محمود الإصابة عويصة للدرجة دى ؟
محمود ــ أنا لسه متخرج جديد ويلزم نروح المعمل فى المحافظة علشان أتأكد .
الخال ــ جلت إيه يا شيخ خليل ؟
الشيخ ــ آهو نعمل بشورة محمود يمكن تنفع .
يذهب محمود إلى أبيه فى الحقل متأثراً بعجزه مع أول مواجهة زراعية محدودة . لم تسعفه ازائها دراسته بالكلية بل وبدا عاريا لا غطاء يستره . ويتضح له حاجته للاستعانة بغيره من المختصين أو لاستخدام الوسائل العلمية الحديثة .
ويلاحظ أبوه شروده ويسأله « إتأخرت ليه كده ؟ » .
ــ كنت فى جنينة الشيخ خليل باشوف شجر الخوخ بتاعه .
ــ (بانشراح) هه ... وإيه كان ؟ .
ــ قلت له لازم تروح المعمل فى المحافظة .
ــ يعنى مجدرتش تعرف ؟

— أيوه .
— كان بودى تعرف وتطول رجبتى .
— مش قادر سبب أفهم اهتمامك وخوفك عليه ؟
— بصراحة يا بنى نفسى تناسبه .
— ومالقيتش إلى الشيخ اللى تناسبه يا بابا ؟
— ماله الشيخ خليل ؟ عنده سبعه وعشرين فدان غير تجارته فى الغلال راجل مبسوط وما عندوش خلف غير بنتين ..
— وهو يعنى جاب الأرض منين .. مش من التجارة الحرام فى الشاى والسكر والزيت بتاع التموين .
— الناس هى اللى ما كانتش بتاخد تموينها .. يضطر يبيعه لغيرهم والا يعنى كنت عاوزه يخسر ؟
— أنا يا بابا ما عنديش نية الجواز دلوقتى .
ويشملهما الصمت ويلفهما السكوت وكل لايستصوب رأى الآخر .

— ٢٥ —

يلتقى محمود والشيخ خليل والخال بالموظف المختص فى مكافحة أمراض الفواكه بمديرية الزراعة بمحافظة الشرقية . ويشرح له محمود الإصابة ويطلب الموظف . « طيب اكتبوا إستمارة فحص وتطهير » .
الشيخ — ولازمته يجى إيه الاستمارة دى ؟
الموظف — علشان نعرف الناحيه ونبعت اللى يفحص الإصابة .
الشيخ — ولازمته إيه الفحص ... إذا كنا جبنا كل حاجه معانا .

محمود ـــ أيوه يا أستاذ معانا عينة من الخوخ والجذور .

الموظف ـــ (بامتعاض) لازم المهندس بتاعنا هو اللى يفحص بنفسه العينة .

محمود ـــ أنا برضه مهندس زراعى ... زميل لك ومفيش فرق .

الموظف ـــ إجراءات يا أخ ... إجراءات لازم تتم .

محمود ـــ إيه رأيك يا شيخ خليل .

الشيخ ـــ والله آن بخاف من كتابات الحكومة دى .

وبعد فترة تردد يقول الشيخ خليل « طيب إكتبها وآنى أمضى »

ويعودون إلى القرية ويصبح حديث القوم ذهاب الشيخ خليل ومحمود إلى المحافظة ومقابلتهم المهندس الكبير . يضيف كل إضافة جديدة إلى الأقصوصة . ويرويها كل حسبما يهوى . فهذا يصرح بأن الشيخ خليل رفض التوقيع على الاستمارة لكن محمود طمأنه وأقنعه

وذاك يرجح أن محمودا ما ذهب مع الشيخ خليل إلا تقربا له حتى يزوجه ابنته . ولا تنقطع القصص إلا بحضور عربة من المحافظة وعليها عمال وموظفون وآلات وعدد

تقف العربة أمام بستان الشيخ خليل ومعهم أدوات وماكينات ويسألهم الشيخ منزعجا « ليه ده كله ؟ » .

الموظف ـــ جايين نشوف الاصابة .

ويدخل الموظف يتبعه العمال ويمارس عمله بين الفحص والتعفير فى همة زائده ، ثم يمر بين الأشجار ويصلم سوق بعضها بسكين حاد ثم لا يلبث أن يقتلعها العمال ويشدونها إلى خارج الحديقة ثم يشعلون فيها النار . ويثور الشيخ خليل « أنا ماطلبتش من حد

أيعمل حاجة . . . نا حبيت تعرفونا اصابة الخوخ .. لا جلت عاوز تعفير ولا تبخير »

الموظف ـــ انت قدمت طلب بالفحص والعلاج

الشيخ ـــ يا شورتك المهببة يا محمود يابن عفيفى . . كان يوم اسود يوم ما اتهندزت على

ويتجمع عدد غفير من أهل القريه فى فضول ملح وأبصارهم عالقة بالنار المشتعلة . فى تعليقاتهم شماتة الناقمين وحقد الموتورين.

ويتشيع القوم شيعا وأحزابا ، منهم من يلوم الشيخ لاستعانته بفقى يافع لا خبرة له بالبساتين . ومنهم من يقف الى جانب عثمان العفيفى وولده الذى لا ذنب له فيما أصاب الشجر

وتعج دار الشيخ خليل بالمواسين والمماثين والناصحين يقول أحدهم « يعنى ماجتش الا ابن عفيفى اللى تسأله وتشوره »

رجل آخر ـــ هى الجنينه عاد فيها نفع . ربنا يعوضك ياشيخ خليل

رجل ثالث ـــ ده لسه يجى الحسابات والمصاريف وغيرها .

رجل رابع ـــ ده فيها بالجليل المختصر حاجة كده بتاعة سنتين سبعين جنيه

الشيخ ـــ هم عملوا حاجة دول يمكن عفروا بشوالين يعنى بالكثير عشر جنيهات

الرجل الرابع ـــ انت ناسى مصاريف الأنفار والموظفين والعربية والمكن .

الرجل الثالث ـــ ولا الدمغة

رجل خامس — دول كانوا ولا عشر رجاله بيشتغلوا .

الشيخ — عشر عفاريت يركبوهم هم وعثمان وابنه .

الرجل الأول — اللى ما حد جه منهم ياخد بخاطرك .

الرجل الثانى — يجى يأتيها وش ؟

ويدخل عثمان وابنه محمود وقد بدا عليهما الأسى والـكدر ويقرأن الموجودين السلام مكذبين من أساء الظن بهما .

عثمان — تتعوض يا شيخ خليل فى الموسم اللى جاى .

الشيخ — تتعوض إزاى دى فيها ولا سبعين جنيه مصاريف .

عثمان — وده معجول ... هى نهيبه ولا نهيبه ،

الشيخ — هى مصيبة .

أحد الموجودين — جيتك يا عبد المعين تعينى لاجيتك ياعبدالمعين تنعان .

عثمان — (بغضب) كلام إيه اللى بتجوله . هو إبنى كان عارف اللى حيحصل .

الشيخ — طيب لما هو مش عارف إيه اللى حشره .

محمود — (بانفعال) انت اللى طلبتنى . . . وكلمت خالى لأجل آجى لك .

الشيخ — وأنا اللى جلت تروح المحافظة .

محمود — مش وافقت ومضيت الأوراق هناك .

الشيخ — أنا والله ما وافجت إلا علشان خاطرك الخايب .

محمود — أنا اللى خاطرى خايب ولا انت الفلوس وجعتك ؟

الشيخ — أنا الفلوس توجعنى . . . ده أنا اشـــتريك انت وعشرة زيك .

محمود — طبعاً ماهى فلوس حرام نهبتها من الفـــلاحين ومن التموين .

الشيخ — إخرص يا جليل الحيا . لولاك فى دارى كنت عرفتك إزاى تتحدث مع الكبار ... « لكن الحج مش عليك » مشيراً بيده إلى عثمان .

ولا يتحمل عثمان هذا التعريض الجارح فينهض غاضبا وهو يقول : « يالله بينا يابنى . إحنا مالناش جماد هنـــا . . . سلام عليكم يا رجالة » .

وأنقلب حال القرية وأصبح أمرها فرطا وأضادا متعاديه . والتهبت القرية بالخلاف . ويفكر محمود أنه مسبب هذا الخصام وينتابه إحساس بالذنب يؤرق ضميره . وينأى عن مجالس الحديث واللغو لعل اختفاءه يهدىء النفوس ويعيد الوئام . يرجو السلام لقريته ليعود السلام إلى نفسه . لكن الصراع محتدم والأقاويل تلاك والاتهامات تثار . وتلازمه ا كتئابة لأيام عديدة حتى يقع فى يده كتاب عن تاريخ المسألة الزراعية فى مصر . ويعلم منه أن الإقطاع أنشب مخالبه فى هذه البلاد منذ فجر تاريخها . وكان فرعون صاحب كل الأرض ومالكها ولا مالك غيره . يهبها لمن يشاء من الأمراء وحكام الأقاليم وكهنة المعابد من سدنة ملكه وحماة عرشه . وإن شاء أورثها لخلفهـــم من بعدهم وإلم يشأ استعادها لنفسه مره أخرى . أما غيرهم من البشر فهم يفلحون الأرض نظير أجر معلوم .

وعايش الإقطاع عهود الاحتلال اليونانى والرومانى واقتطعت

مساحات كبيرة منها للغزاة ثم جاء الفتح الإسلامى فآلت أرض الغزاة إلى بيت المال يمنح بعضا منها لأمراء الجيش والجنود والقبائل التى انتقلت إلى مصر وعاشت فيها .

واستشرى الإقطاع قروناً طويلة إبان الحكم المملوكى والتركى ثم خلال حكم محمد على ومن بعده وأثناء الاحتلال الانجليزى حتى جاءت ثورة الثالث والعشرون من يوليه ومعها قوانين الإصلاح الزراعى فقضت على الإقطاع وملكت بعض الفلاحين أنصبة من الأرض فالتهب شوق باقيهم وابتدت أمالهم تبزغ وتنمو بعد أن ظلت حبيسة فى أغوارهم جيلا بعد جيل تحت ضغط الطغيان والإقطاع الذى ما أن دال وزال حتى طفت أحلامهم على السطح وأصبح المستحيل ممكنا والعسير يسيرا . فاستعر الصراع حول الأرض بين صغار الملاك والأجراء .

وينحى محمود الكتاب جانبا ويتأمل حال القرية وقد أطل على فكره شعاع من مصباح التاريخ . يفسر له جوانب مما يحدث أمامه من صدام وخصام . فتذهب عنه علته وتبرأ نفسه ويدرك أنه لم يكن منفجر الخلاف الموجود أصلا . لكن عبارته التى قذف بها الشيخ خليل أزاحت النقاب عن واقع تعصف به تيارات من الحرمان القديم الشوق المرير للأرض .

لم تمكث فايزة بالقاهرة بعد انتهاء الامتحان إلا قليلا . وسافرت إلى الاسكندرية حيث يعمل شقيقها فهى فى إحدى شركات التأمين وحيث تزوج نجوى زميلته .

الحى كليوباتره . الشقة ذات أربع غرف . الطابع الثابت لمبانى الأحياء المتوسطة . هكذا صممها المهندسون واستثمرها المالكون وتقبلها المستأجرون . الأثاث عبارة عن صالون وغرفة مائدة وغرفة نوم وغرفة الأبناء . نمط يسعد به تجار الأثاث . تقاليد أو عرف يتولد عنها سلوك واحتياجات تتطلب أشباعا ثم تتكفل به استثمارات وصناعات وإتجارات .

لا يعنى فايزة من هذا كله إلا طارق الطفل ذى الأربعة سنوات . رفيقها اليومى إلى الشاطىء . هو فى يمينها والكتاب فى يسارها . وتجلس تحت مظلة فى مكان اختارته . يطل على البحر ويبتعد عن الزحام تأتى فى وقت محدد وتغادره فى وقت معين . لا تشذ عن المكان والزمان إلا إذا كانت فى صحبة أخيها وزوجته .

ولم تخرج فايزة عن بساطتها فى المظهر ولا عن سلوكها المقنن . لا تلبس المايوه وتكتفى ببنطلون أسود وقميص يكشف عن ذراعيها الدقيقتين . ويستر نحرها ، ويشمخ منه عنق طويل . يعلوه رأس صغيرة بشعرها المقصوص الخاف . كل تلك البساطة لم تخف قوامها الرشيق . تتبعها العيون فتخجل وتلاحقها النظرات فترتبك حتى تعتاد الأمر فتتوازن خطواتها وتتئد مشيتها وأضحت لا تشعر إلا بطارق تركز عليه اهتمامها وتمارس به أمومة مدخرة جاهزة لأن تمنح . تراقبه أحيانا وتضحك

للهوة وتتأمل إشاراته وحركاته أحيانا وقد تلجأ إلى كتابها فى غير حماس
ملح ، أو تستسلم لشطحات فكرية أو لذكريات تترى أو تستقبل نسمة
رطبة تقدم لها وجهها . وتبرز لها صدرها لتنتشى بها، أو ترتاح ببصرها
على زرقة البحر . ويطفو على أمواج الذكريات محمود وما كان لها معه
من أحداث صغيرة أو كبيرة . ولا يوقظها من تلك الشطحات إلا رذاذ
الموج يتناثر على قدميها العاريتين يدغدغها فتلهبها فى رجفة مثيرة .

وتمر بها الأيام بطيئة ويتنابها الملل من رقابة النهار والليل ، لكنها
بطاقاتها المنظمة تبتكر لنفسها لعبة ذهنية عاطفية تربط بين الأمس
واليوم .تقارن محمود بغيره من تلك النماذج البشرية التى تحوم حولها .
تخصص لكل رجل أو شاب درجة للمظهر والصورة والشخصية
ودرجة للسلوك الاجتماعى . وتسمى كل باسم معين. هذا المتقوقع وذاك
أنطونيو وآخر تطلق عليه المهم ورابع تدعوه الفيلسوف وخامس
تسميه مرصد القطامية وسادس تسخر منه فتسميه خنفس . وكلما
بدرت من أحدهم بادرة أو فعلا يدخل ضمن المقاييس التى حددتها
تدون درجته . . وهكذا حتى تتجمع لها الدرجات ويبرز التقدير
النهائى . . . ومن الطبيعى أن يتفوق عليهم محمود سواء عن عدالة
أو عن غرض فى نفسها

تعود إلى المنزل ويخبرها أخوها بأن النتيجة ستعلن الأسبوع
القادم وأنه أوصى مدير العلاقات العامة الشركة بالقاهرة أن يخطره
بنتيجتها . وتتذكر جائزة وعدها لمحمود فتقول عـــلى غير وعى
« ومحمود . . ؟ »

ويتعجب أخوها قائلا « ومين محمود ده ؟ »

ترد فايزة وقد احمر وجهها « ده زميل لى كنا . . كنا بنتبادل المذكرات »

ويسأل فهمى بلهجة ماكرة « مذكرات . . . مذكرات إيه ؟» ثم يلتفت إلى زوجته ويغمز لها بطرف عينه معقبا « مذكرات يا نجوى واخده بالك »

وتنفجر نجوى فى ضحك متواصل لا يلبث أن تسرى عدواه إلى فهمى . تنظر فايزه إليهما فى حيرة تتحول إلى غيظ شديد ، فتصيح فى عصبية « تسمح تقول لى بتضحك على ايه انت وهى ؟ »

فهمى ـــ أصل أنا ونجوى كنا بنتبادل المذكرات برضه .

فايزه ـــ (بغضب) مذكرات عن مذكرات تفترق .

نجوى ـــ انتى زعلتى يا فايزه . مالكيش حق احنا بنضحك .

فهمى ـــ أصل نجوى كانت عوزانى أخلص البكالوريوس بأى شكل كانت مستعجلة على .

نجوى ـــ أنا اللى كنت مستعجلة ؟

فهمى ـــ أيوه . . . فاكرة لما طلعت بعلم وفضلتى طول السنة عاملة حجتك تساعدينى لغاية ما . . . .

وتهجم عليه نجوى تكمم فمه بيدها تمنعه من الاسترسال ، وكلما حاول التخلص منها إزدادت ضغطا عليه حتى يستسلم قائلا « طيب خلاص خ أسكت » وتدعه لشأنه بينما فايزة ترقب هذا المزاح بدهشة وذهول . لا تكاد تصدق أن كل هذه المداعبات تصدر عن نجوى . وأخيراً يصيح فهمى « عاوز آكل » .

وعندما تخلو فايزة بنفسها ولغير سبب مفهوم تقارن نفسها بنجوى ثم بسهير زميلتها . تستعيد حركاتها ولفتاتها السريعة وطريقة إخراجها لنفسها والوان ملابسها وتصفيفة شعرها . والضحكات المرحة . وتعجب لإقتحام سهير خيالها بعد أن رأت تلك المداعبات الزوجية بين أخيها ونجوى. وتهزها تلك الصور وتشعر بطلاسم فى أعماقها وزهق فى صدرها . وتتساءل هل هى متحفظة فى سلوكها ؟ هل هى متخلفة عاطفيا عن جيلها ؟ وتغرقها تلك الأسئلة فى دوامة لا تجد منجاة منها إلا البحر والرمال الصفراء فتمدد عليها ،وتطلق بصرها إلى ذلك المسطح المائى غير المحدود . تعب من هوائه النقى عبا . لعلها تجلو نفسها وقلبها وتوقف ذلك النزال الفكرى المحتدم فى رأسها .

وأمامها طارق يلعب كما اعتاد . تراه بعينيها ولا تلحظه بإنتباهها . وتبهت لما تراه يحدث أمامها . تجده ينزلق إلى البحر تحمله موجة عالية بعد أن ضربت الشاطىء وخلخلت الرمال من تحته ثم سحبته معها إلى البحر. وتندفع دون وعى تخوض الماء غير هيابة ولا مدركة أنها جاهلة بالسباحة. تضربها الأمواج وتلفحها برذاذها وهى لاترى إلاطارق الذى يطفو مرة ويختفى أخرى . وتصرخ صراخا متواصلا هلعا وجزعا وتتقدم نحوه حتى تمسك بيده فتشدها بعنف وشراسة والطفل نفسه لايبكى ولايصرخ، بل يجاهد لنسمة هواء . وتتشبث بالطفل وتستدير عائدة إلى الشاطىء غير أنها تكبو وتسقط فى الماء وتظل متمسكة به بين ذراعيها وتحاول النهوض، وتبتلع الماء ،وتجحظ عيناها ،ويختلط فى ناظريها الماء بالسماء حتى تشعر بيد قوية تنتشلها .وتخوض فى الماء مستندة إلى تلك الذراع القوية حاملة طارق حتى تخرج من الماء .وترتمى على الرمال الصفراء ،ويؤتى لها بفوطة

حمام تتدثر بها وتجفف بها طارق وأطرافها . وتنساب منها الدموع . وتحتضن طارق ثم تنهض عائدة إلى منزلها وتسير فوق الرمال غير ملتفتة إلى الجمع الغفير الذى التف حولها .

وتركب عربة أجرة وتنظر إلى منقذها القوى فيخيل إليها أنه محمود فتحملق فيه بشدة . وتدرك أخيراً أنه ذلك الفتى الذى أطلقت عليه « أنطونيو » .

وفى المنزل تغير ملابس طارق بأخرى جافة ثم تهم بنفسها تخلع ملابسها المبتلة . وتلمح صورتها بالمرآة فتأخذها الدهشة والخجل . تفاصيل جسدها واضحة . أطبق القميص على صدرها الناهد يفضح استدارته ويبرز نتوأتيه الصغيرتين . . وبنطلونها الأسود يحدد فى خطوط إنسيابية كل شيء . . . . كل شيء ظلت تخفيه وتستره حتى عن محمود . وكان كل ذلك مباحا للعيون التى تجمعت حولها .

ولا ترضى عن نفسها وتقرر ألا تذهب إلا الشاطىء مرة أخرى بعد أن بدت لرواده أكثر من عارية . بل لن تذهب إلى أى شاطىء آخر وانعد إلى القاهرة لتكن فى انتظار النتيجة وأصحاب النتيجة .

— ٢٧ —

الإشاعات . التنبؤات . التوقعات . التخمينات تسرى بين الطلبة والطالبات . يقطع البعض بالناجحين ويحدس الآخر بالراسبين . بينما الكثير يترنح بين حافة الأمل وهوة اليأس . ومحمود لاه عن هاك وذاك . يبحث عن فايزة . يلف ويدور ويسأل كل من يصادفه عنها حتى يجدها عند

حديقة المدخل بين زميلاتها . وتراه وتطل الفرحة من عينيها ويحملق هو فيها بكل شوق ويبادرها بالتحية « إزيك يا فايزة ... لكى وحشة كبيرة »
— مرسى ... إنت هنا من بدرى .
— وعمال أدور عليكى .
— عملت إيه فى البلد .
— فكر ومشغولية ومشا كل .
— أنا بقى كنت ح أغرق .
— (بإنزعاج) سلامتك .
— (باسمه) طارق إبن أخوى . الموجة سحبته دخلت وراه من غير ما أفكر إنى ما أعرفش أعوم .
— وبعدين ؟
— ربنا ستر ... وأدينى قدامك .
— حمد الله على السلامة .
وتتلفت حولها فلا تجد أحدا فتقول « الله كلهم مشيوا ؟ »
— الظاهر النتيجة اتعلقت ... بالله بينا .
وفى صالة كبيرة علقت النتيجة . وكل يبحث عن مصيره . الناجح يقفز ويهلل والراسب ينسحب منكسا رأسه ويتطوع أحد الناجحين ليخطر البعيدين عن نتيجتهم وينادى أحدهم « يا على .. . ياعلى .. . وحيانك نمرتى ١٣٦ »
على — مبروك .. مقبول .
محمود — يا على .. ١٤٥ .
على — مبروك جيد جدا .

ويلتفت محمود إلى فايزة فرحا « مبروك يا فايزة » ثم ينادى ٢٣٧ يا على . »

— مبروك يا محمود ... إمتياز .

ويفيض وجهه بشراً وسروراً وتقول له فايزة « مبروك يا محمود . الف مبروك . . »

محمود — متشكر . متشكر :

ويتكاثر الطلبة حول محمود يزجونه تهانيهم . وتصيح سهير من الخلف « محمود . شوف نمرتى ٨٧ » .

محمود — على ... يا على ... ٨٧

على — مبروك . . مقبول .

محمود — مبروك يا سهير .

ويخرجون جميعا وقد أمسك محمود بيد فايزة بقوة يبثها الأشواق والفرحة والأمل . وهى هانئة سعيدة لا تمانع ولا ترفض . ثم تلحق بهما سهير ويدركهم على معترضا طريقهم وقائلا لمحمود « هى المسألة فوضى ؟ ده إنت امتياز ... فين الحاجة الحلاوة ؟

محمود — يلا ع الكافتريا .

على — قديمة . قافله طبعا .

سهير — بالله على عمر الخيام وأنا اللى عزماكم .

على — الامتياز هو اللى يعزم .

محمود — أمرك يا على .

فايزه — بس أنا ما أقدرش أروح الأماكن دى :

على — إنتى كان حقتك تعيشى مع جدتى .

أسهير — قولكم . تعالوا عندى فى البيت .
على — أظن دى بقه مافيهاش لأ .
فايزة — طيب .
وفى منزل سهير يلاحظ على أن محمودا وفايزة يتبادلان حوارا هامسا .
فيعلق « نحن هنا » وتخجل فايزه وينظر إليه محمود متضجرا .
وتدخل سهير حاملة أكواب الشربات ويدور الحديث .
محمود — حكاية الامتياز دى هزانى .
سهير — المفروض انك فرحان جدا .
محمود — كنت مقدر لنفسى بالكتير جيد جداً .
على — خلاص يا سيدى إبعت تلغراف وإطمن فى النتيجة .
سهير — حد فيكم فكر حيشتغل فين .
فايزة — أنا كان نفسى أشتغل معيدة بالكلية . لكن مفيش فايدة
على — ده حوالى إتناشر واحد إمتياز . يعنى معيد دى فيها شك .
سهير — أنا بقى . . . رئيس مؤسسة الإئتمان الزراعى صديق بابى وكان وعده إنه يشغلنى فى قسم جديد عنده إسمه .. إسمه ..
على — (يغنى) إسمه الهوى .. إسمه .. إسمه الهوى .
سهير — إسمه قسم المتابعة الفنية .
على — أنا قتيل المتابعة الفنية .. أنا محسوب المتابعة الفنية
سهير — أترجانى شوية .
على — (يغنى) أسمر يا سمرانى .. مين قساك علىّ ..
فايزة — وأنت يا محمود ناوى تعمل إيه ؟

محمود — ناوى اشتغل فى جمعية زراعية نواحينا فى الشرقية .
على — يا قوة الله .. معاك امتياز وتختار الوظيفة دى .
محمود — علشان أبقى قريب من أهلى .. محتاجين لى .
فايزة — فين طموحك وأمالك .. فين الدكتوراه والبعثات .
محمود — أنا بحس بمعنى الحياه بين أهلى .
سهير — حد يسيب وظيفة معيد ويدور عل شغلانة فى جمعية زراعية ؟

محمود — يجوز كلامى غير مقنع لكن الإختيار ده يوصلنى إلى نقطة بداية صحيحة لحياتى . فيها إرتباط وتوافق بين إحساساتى وبين الواقع القائم اللى عشته واللى ح أعيشه .

وبينما محمود يتكلم تتعلق أنظار فايزه به تستوعب كلماته ويستحوذ عليها بذلك الوفاء والاخلاص ، بينما تعلق سهير «إنت أفكارك غريبة جداً يا محمود . . . ولا إيه يا فايزه ؟

فايزة — أنا شخصيا بأعتبر العمل أو الوظيفة مش هدف فى حد ذاته . لكن السعادة اللى يحققها الإنسان للمجتمع بعمله هى الهدف الصحيح .

على — الكلام ده مستواه عالى قوى . . . أنا مروح . . . قايم يا محمود ؟

ويتردد محمود قليلا ناظرا إلى فايزه ثم إلى على الذى نهض فعلا ، فلا يسعه إلا أن يقول لفايزه « بكره ح أستلم أوراقى من الكلية » .

فايزه — ح أكون هناك الساعة عشرة .

ويذهبان . وفى الطريق يقترح على « إيه رأيك نتمشى شويه وبعدين نا كل كام ساندوتش . »

— ما تيجى عندى أغديك غدوة فلاحى .

— وجب .

يفاجأ على بوجود فاطمه فى الغرفة ويرى محمود بنظرة ذات مغزى وتحرج فاطمه بذلك الزائر الغريب لكنها تكون أول من يترك دائرة الصمت . وتنهض إليهما وفى ابتسامة تبادر محمود بالسؤال « أقول مبروك ؟ » .

على — قولى الف مبروك .

وتنظر إلى محمود بابتسامة عريضة عرض أملها فيه « ألف مبروك » .

محمود — متشكر . . . وبارك كمان لعلى .

فاطمه — الف مبروك .

على — كفاية واحده بس .

ولا تفهم فاطمة مايعنيه ذلك المشاكس،فتلتفت الى محمود مستفسرة . فيعقب « أصله يدوبك ناجح . . . يعنى بالعافية » وتردف فاطمه « طيب أنزل أجيب الشربات » ثم تخرج تتمايل فتنة وحبورا وعلى يتتبعها بعينين تتمايل معها حتى تختفى فيسأل : « إيه الحتة دى يابو حنفى ؟ »

— دى مرات ابن عمى اللى مات من قريب . .

— أرملة ؟ . . . الأرملة الصغيرة ؟

ــ غلبانة ... حظها وحش .

ــ (يغنى) يا قلبي كفايه دق ... مادام حبيبك رق ... عينى بتقول أيوه ... وانت بتقول لا ...

ــ دى ذى أختى بالظبط .

ــ (يغنى) ياغالى على يا حبيبي ياخويا .

يا أجمل هدية من أمى وأبويا .

ويقع مع الغناء دخول فاطمه بأكواب الشربات . تقدم الى على حداها فيعترض « العريس الأول » وتجفل فاطمه لهذا القول وتنظر الى محمود بقلق والأكواب تتخابط عندئذ رنينا محذراً لا يهدأ ، حتى يردف على « عريس النتيجة » وعندئذ تعود الإشراقة الى وجهها وتتجه بالأكواب الى محمود وهى تهمس له « صاحبك خضنى قوى » ثم تسكن الى جواره ترشف الشربات وعيناها عليه تتحسس أملها فيه .

يلحظ على تلك النظرات فيغنى « قعدنا نحكى عن العشاق الى إنضنو بنار الأشواق ....

وتجذل فاطمه لهذا الغناء فنستزيده كان والنبى .... كان ،

على ــ (يغنى) ولما طال الكلام بينك وبينى .

فاطمه ــ أيوه .... الكلام طال قوى .

محمود ــ صوتك مزعج .

فاطمه ــ لكن كلامه حلو .

على ــ انت ما بتقدرش الفن .

فاطمه ــ لا يقدر ولا يساير .

على — (يغنى) الحلو ليه تقلان قوى ... تقلان قوى . . . ما أحنا كان حلوين قوى .

فاطمه — (تغنى) حلوين قوى .

ويقذف محمود فاطمة بنظرة غاضبة تسكتها وتقطع ضحكها ، فتدرك ما ألم به من حنق وتشرع فى الإنصراف وهى تعرض خدماتها « مش عاوزين حاجة قبل ما أنزل ؟ » .

على — متشكرين . . . الشربات كان لذيذ . . . وطعم .

فاطمه — ده من ذوقك .

وتمضى وهى ترمق محمودا بنظرة أخيرة لا تخلو من الفرح لغيرته عليها. وتخطر فى خطوها فى دل وطراوة مثيرة تجعل على يغنى « يا أمه القمـــر ع البـاب . . . يا أمه أرد الباب . . . ولا أناديله ياأمه . . . أمه .

— ياعلى مش طريقه دى . . . أنا هنا بقى لى أربع سنين ماحدش مسنى بكلمة . . . جاى انت النهـــاردة تلمح وتغنى . . . دى ذى ختى .

— خليك مقفل لغاية ما تطير منك .

— دى بتاعة جواز . . . مش بتاعة لعب .

— العب ياسيدى وبعدين اتجوز على مهلك .

— وما تنساش أنها كانت مراة ابن عمى .

— وما تنساش أنها حطت عينها عليك .

— أحسن حاجه حط عينك ع الفطير والجبنة ونتغدى .

ويخرج محمود مافى السلة ويضعه على المائدة وينهمك الاثنان فى

الأكل فى صمت لا يكسره إلا بضع تعليقات يستطيب بها على الفطير حتى إذا أتيا عليه يقول على « حتة آكلة عاوزه عشرة كيلو مشى »
— من هنا لغاية بيتك كام كيلو .
— يطلع سته كده .
— إهضم بيهم .
— عاوز توزعنى . . . طيب السلام عليكم .
— وعليكم مثل ما قلتم أيها المهندس المطرب .
وبذهاب على يهدأ كل شىء وينشط محمود فى إعادة ترتيب المكان ثم يعد لنفسه كوب شاى . ويظل واقفا وقد أسند يديه على حافة المائدة يرقب لهب الموقد وهو يتراقص كما تتراقص أفكاره بين فايزة وفاطمه . ثم يسمع خطوات فاطمه قادمة . وتدخل وتقترب حتى تقف خلفه تماما وهو ثابت لا تنم عنه حركه أو لفتة وتقول بصوت يقطر همسا « انت لسه زعلان منى ؟ »
— وأزعل ليه ؟
— علشان خدت وإديت مع صاحبك .
ولا يجيبها فتزداد اقترابا حتى يشعر بأنفاسها تلفح رقبته ثم تضع يديها على كتفيه، وتتساند برأسها على ظهره، وصدرها الناهد يلمسه مع كل شهقة . وتستمر قطرات الهمس « أنا ماليش غيرك » وتتشابك يداه ويتشبث بالمائدة لينجو من بحرها اللجب . وتتعلق عيناه بلهب الموقد المتراقص . وتهجم فاطمه بكل جسدها إلى ظهره . وتتحرك فيها الأنثى الكامنة . وتبلغ بها شأوا تطرح معه كل روية وتقدير وكل بصيرة ومصير، لا تروم من لحظتها إلاه . ويستشعر محمود أنات يديها وارتجافات

أناملها . وتنتقل مشاعرها إليه ويسرى فيه دبيب حسها العارم . ويغشاه بخار لافح كذلك البخار المتصاعد من إبريق الشاى . ويرفع يده ليضمها على يدها التى ارتاحت على كتفه منذ لحظات . وتطبق أصابعها وتحكم قبضتها عليهـــا تعتصرها ، وتتذوقها ثم تلفته إليها فيستدير نحوها طائعاً أو راغباً حتى يتواجهان صدراً لصدر وعيناً لعين .

وتهم به فاطمة تريد فمه وقد إنبلج ثغرهـــا عن فرجه صغيرة مهيأة له ، ويميل برأسه نحوها ويهم باحتوائها بذراعيه . . محاولة لم تتم . . إذ يغلى ماء الابريق ويفور محدثاً صوتاً مزعجاً يبتر إنفعالاتهما ويمحق صبوتهما وينتكس بعواطفهما الملتهبة إلى نقطة الصفر .

يضطر محمود الى ترك فاطمة ليطفىء الموقد ويجفف الماء الذى انسكب من الابريق وفاض على المائدة والأرض . وتحطم الصدمة فاطمة . وتلفها بحسرة عن أمل كاد أن يخترق شغاف قلبها ويضع نهاية لجريها ورعها ولهثها . وتجلس الى أقرب كرسى منهارة متهالكة

وتسمع طرقات خفيفة على الباب ويظهر أحد أشقائها ويقول «الحاج دسوقى جه وبيسأل عليكى علشان ماروحتيش المصنع النهارده» فتنهض تتبع أخاها . تجر أقدامها فى تثاقل وسأم دون أن تنبس بكلمة أو تأتى باشارة

ويفكر محمود فيما كان محتملا أن يحدث . ويدرك أنه لا طاقة له بهبات فاطمة الجامحة . وأنها ستجرفه بمدها ثم تسحبه بجزرها الى القاع حيث لن يستطيع أن يطفو على السطح مرة أخرى . ويستقر رأيه على الذهاب إلى قريته بمجرد أن يتسلم أوراقه من الكلية .

ينتظر محمود فايزة بفناء الكلية . ويلمح د . سلطان قادما فيحيه ويقول د. سلطان « ﻫ ... محمود العفيفى ... مبروك ورقتك أحسن ورقة فى المادة بتاعتى » .

— ده بفضل سيادتك .

— ناوى تعمل إيه بعد كده .

— ح أقدم فى الجمعية الزراعية نواحينا .

وينزع د . سلطان غليونه وينفث دخانا كثيفا ثم يقول بلهجة المستاء « أنا رشحتك معيد عندى بالقسم والعميد وافق. إيه رأيك ؟ »

— أشكرك يا دكتور بس أهلى عاوزينى .

— أظنك ح تحكى موضوع الفول تانى .

— تقريبا .

— وتفتكر إنك ح تقدر تعمل حاجه لوحدك .. فين أرض التجارب ؟ فين المعامل ؟

ويقف محمود مترددا وحائرا لا يدرى كيف يجيب . وعند ما يرى د . سلطان حالته يحسم الأمر « قدم طلبك لمسجل الكلية وقول له إنى موافق . . وأشوفك أن شاء الله فى العام القادم ومبروك» ويذهب د . سلطان تاركا محمودا فى حيرة شديدة لا يشعر بما حوله حتى تقترب منه فايزة وتسأله « مالك يا محمود واقف كده ليه » .

فيضحك ضحكة جوفاء « أبداً .. أبداً .. مفيش حاجة » .

— ده إنت ما دريتش بى لما وقفت جنبك .. لازم فيه حاجه .

ـــ أصل الدكتور سلطان قال إنه مرشحنى معيد عنده .
ـــ صحيح ؟ مبروك . . . دى حاجه جميله .
ـــ بس أنا محتار مش عارف أعمل إيه . أوافق ولا لا ؟
ـــ طبعاً لازم توافق . . . والا عاوز تشتغل فى بلدكم؟
ـــ أصلك بعيدة عن الأريا فـوما تعرفيش حاجة عنها .
ـــ كان مش معقول نرفض وظيفة معيد و إذا كان على أهلك ساعدهم بأى طريقة ثانية .
ـــ المساعده إنى أكون قريب منهم وأحل مشا كلهم .
ـــ إبقى سافر كل أسبوع .
ـــ مش كفايه أنا لو جنبهم أضمن إن أخوى صابر واسماعيل يتعلموا ألغاية الجامعة ، وأضمن أن أبوى ياخد حقه من الجمعية الزراعية ، والعيان منهم يلاقى سرير فى المستشفى ، وأبوى يقدر يشترى الكسب بالتسعيرة ويربى بهايمه ويكسب قرشين يعيش الناس اللى حواليه .
ـــ لكن الإهتمامات دى تخليك تسيب فرصة ومستقبل كبير ؟
ـــ مستقبلى وراحتى مع أهلى .
ـــ والفول غذاء الملايين ؟
ـــ لما أكون قريب منهم أقدر أساعدهم شوية فى الفول .
ـــ لازم تكون ضمن جهاز على يقـدر يساعدك بخبرته . لوحدك مستحيل .
ـــ نفس الكلام ده قاله الدكتور سلطان .
ـــ قدم الطلب أولا . . . وبعدين فكر على مهلك .
ـــ ما يضرش برضه .

ويذهبان إلى المسجل . فايزة لإستلام أوراقها ومحمود ليحرر طلبا لوظيفة معيد . ويسأل المسجل «الآنسة فايزة جابت تقدير جيد جداً .. ممكن تتعين معيدة ؟

المسجل — ما أظنش .. لكن المركز القـــومى للبحوث يقبل التقدير ده .

ويتحركان إلى المركز القومى للبحوث وتسأل فايزة الموظف المختص «ح تعينوا حد من المهندسين الزراعيين السنه دى ؟ »

— إحنا طالبين فى الميزانية الجديدة ويا عالم ؟

— طيب نعرف إزاى ؟

— شوفى بقى ياستى . . . عندك شهرين لما توصلنا الميزانية وخدى شهر إعلان فى الجرايد وعليهم ثلاثة أربعة إجراءات لجان وخلافه .

— يعنى أسأل بعد شهرين . . . ثلاثة .

— على الأقل

وفى طريق العودة يسألها محمود « ح تعملى إيه لغاية ما تظهر وظائف المركز .»

— ح أعمل إيه يعنى . . . أشتغل تريكو وأتفرج على التلفزيون .

— عموما الراحة مفيدة حاليا .

— وانت ح تسافر ولا ح تقعد يومين ؟

ويتذكر محمود موقفه من فاطمة فيقول متلعثما « لازم . . . لازم أسافر على طول » .

— وليه السرعه دى ؟

ـ فيه شوية اشكالات . . . فى البلد .

ـ وأنا يمكن أمضى الصيف فى اسكندرية .

ـ وبعد الصيف ؟

ـ يجى الخريف .

ـ بتهرب كالعادة .

ـ أنا اللى بأهرب وإلا أنت . . . اللى مش قادر تستنى يومين لغاية ما أسافر اسكندرية .

ـ وإيه فايدة إنى أقعد من غير ما أشوفك .

ـ ومين قال كده ؟

ـ مش ده كلامك المرة اللى فاتت .

ـ الظروف اتغيرت .

ـ إزاى ؟

ـ فيه محاضرات فى نقابة المهندسين الزراعيين . . . نقدر نسمعها سوى .

ـ وهى دى الظروف اللى اتغيرت ؟

ـ ولو ما كانش فيه محاضرات . . . كان مستحيل أقابلك .

ـ تبقى تعرف أنا فين وتيجى .

ـ وأعرف إزاى ؟

ـ بأى طريقة .

ـ أضرب رمل يعنى ؟

وتضيق فايزة بهذا الجدل العقيم فتصيح غاضبة ، المفروض إنك تدور علىَّ . . . وتيجى لغاية عندى فى مكانى ،

ــ وهو أنا أعرف وماجتش .

ــ تعرفه وسبق جيته .

ــ وكان جيته .

ــ أيوه ... إنت اللى مش عاوز تفهـــم ... عن إذنك أنا ماشيه .

وتركه ودبيب خطواتها يعلن مقدار غضبها وغيظها لجهله أو تجاهله. يذهل محمود لهذه الثورة المفاجأة . ويسترجع كلماتها وأخيراً يدرك أنها تعنى أن يذهب اليها فى منزلها . وعندما يدرك هذه الخلاصة يجرى خلفها ليلحق بها . لكنها تكون قد ذهبت واختفت فى إحــــدى عربات الاتوبيس .

— ٢٩ —

يحمل مختار إلى أبيه مظروفا وجده تحت الباب . يقرأه عم عبد الله بصوت مسموع وقد أحاطت به زوجته وفاطمه « لأسباب عاجلة تعجلت العودة إلى بلدتى دون أن أستطيع إخطاركم بنفسى . وإنى أشكركم كثيراً خاصة فاطمة . ومهما قلت فلن أستطع الوفاء فقد أشعرتونى بأنى واحد منكم . تمنياتى لكم بالسعادة حتى لقاء قريب » .

سنية ــ لقاء ؟ ... لقاء إيه تانى ؟ ... وحد يعمل كده ؟

وتهرع فاطمة إلى غرفتها شاحبة الوجه مصدومة العاطفة خائبة الرجاء. وتلحق بها أمها فى غضب شديد وتردف « مش قلت لك ونصحتك ما تجريش وراه »

— ... ...

— ده ذى ابن عمه عجينةواحدة .

— ... ...

— حد يسافر سكيتى كده من غير ما يسلم ؟

— ... ...

— ياما نضفق وغسلتى وطبخق .

— ... ...

— عمل لك إيه ده كله ؟

— ... ...

— اللى ما تمر ولا نفع .

وتهب فاطمةفجأة ترتدى ملابسها استعدادا للخروج . وتسألها الأم « رايحه فين كده ؟ ... مش شغلانة السجاد والمصنع خلصت ؟ »

— أيوه ... بس النجار معطل النولين عنده وكان أشوف بنتين علشان ابتدى .

* * *

وفى الاسكندرية يثور جدل بين فايزة وأسرتها .

فهمى — واشمعنى يعنى المركز القومى ؟

فايزة — فيه أبحاث واستقرار ومجال علمى مفتوح .

فهمى — يعنى تقعدى كده على فيض الكريم ... ويا ترى ؟

فايزه — وعاوزنى أعمل إيه ؟

فهمى — تشتغلى فى أى وظيفة ... مش لازم المركز القومى .

فايزة — أنا مصممة على المركز القومى .

الأب — أنا عندى فكرة .. تشوفى وظيفة مؤقتة لغاية ما تبان حكاية المركز .

فهمى — وأنا مستعد أخلق لها وظيفة فى أى شركة هنا .

فايزة — أنا عاوزه أشتغل فى مصر .

الأب — دورى فى مصر ... وفهمى فى اسكندريه والى تظهر الأول اشتغلى فيها لغاية ما يبان موضوع المركز القومى .

فايزة — معقول برضه .

* * *

وفى القـــرية يصبح نجاح محمود الخبر الأول وتدوى الزغاريد ويوزع الماء المحلى بالسكر ويفرح الأب بابنه . تكاد الدنيا لا تتسع لفرحته .. إلا أنه عندما يلحظ سكوت ابنه ووجومه يسأله « مالك يابنى ... زعلان ؟ »

— أبدا ... مفيش زعل ولا حاجة .

— أنا أبوك وعارفك ... بالك مشغول .. إتكلم ... اتحدت

— دى حكاية صغيرة ... مش مهمة .

— صغيرة ولا كبيرة لازم تحولها .

— الأستاذ بتاعى فى الكلية طلبنى أشتغل معاه .

— يعنى تبجى خوجه ذيه ؟

— أيوه .

— ودى حاجة تخبيها ... ده شى يبسط ويفرح .

— أنا لازم أبقى جنبك ... انت كبرت ولازم ترتاح .

— آنى عافى عنك .

— إنت يابا عملت اللى عليك ... وجه دورى أريحك .

— آنى لازم اشتغل ولازم أنزل الغيط كل يوم ... دى حاجة بجت فى دمى ... ومن غيرها يمكن أموت .

— يابا وجودى معاك ينفعك خصوصا فى الفول .

— إياك عاوز تجرب علامك حداى ؟

— وفيها إيه ؟

— يفتح الله ... أنا مش حمل تجارب حد .

— ما تخافش يابا .

— بصراحه يابنى أنا مش عاوزك تجعد فى الكفر هنا .

— ليه عامل خاطر للشيخ خليل والخناقة اللى حصلت ؟

— وتفتكر أبوك بيخاف من حد !

— أمال مش عاوزنى هنا ليه ؟

— لو جعدت هنا ح تنزل الأرض وتمشجها ذىٌّ وما تجدرش تسيبها .

— وفيها إيه ؟

— انت عارف إن اخواتك واجواز إخواتك ناظرين للارض جوى لانها حياتهم وعيشتهم . وأنا سبج وجلت لك زمان اللى يتوظف ما يتلفتش نواحى الأرض وانت واجت ... وألا نامى ؟

ويصمت محمود لحظة يتمعن فى كلام أبيه الذى يريده أن يبتعد عن

الأرض تجنبا لصراع قد ينشب بين الأشقاء والشقيقات بسببها . إن القضية وعناصرها تتكرر أمام عينيه كما حدثت بين أهل القرية . تكاد الآن أن تقتحم محيط الأسرة .

ويهز رأسه وقد استوعب قول أبيه ويردف « أمرك يابا . » ويضحك الأب داعيا لإبنه « الله يفتح عليك يابنى »

— يعنى لو سافرت مش ح تشتكى من حاجة .

— آنى عمرى ما اشتكى . . . لكن حاجة واحدة هى اللى تعبانى .

— إيه هى ؟

— البرد والغول .

— ربنا يقدرنى وأساعدك .

— وعد يابنى !

— وعد يابا

— روح . . . والله شهيدك .

الجزء الثـــانى

الفصل السادس

بين المدرسة والكلية والمشغل

— ٣٠ —

يعثر فهمى لشقيقته على وظيفة إذ يتفق مع الأستاذ بهجت صادق صاحب مدارس محرم بك الخاصة للبنات على تعينها فيها . وتقبل فايزة ذلك العمل بصفة مؤقتة ولا يصرفها ذلك عن أملها فى المركز القومى للبحوث .

ويقودها الساعى إلى غرفة الناظرة . تدخل حجرة متوسطة جلست فيها سيدة فى الحلقة الخامسة من العمر تميل إلى البدانة وتضع على عينيها نظارة سميكة . وتلقى بتعليمات إلى المدرسات والمدرسين ويقطع دخول فايزة حديثها ، فتنظــــر إليها شذراً . وتقول فايزة بصوت متردد « أنا فايزة . . . جايه علشان أشتغل مدرسة هنا » .

ــ معنديش وظايف فاضية .

وتميل سيدة مجاورة إلى الناظرة وتهمس لها « دى اللى كلمك عنها صادق بك » . وفى الحال تتبدل لهجة الناظرة وتعبيرات وجهها فتحل الإبتسامة محل الضجر وتقول « مش تقولى يا حبيبتى إن صادق بك باعتك ؟ . . . إتفضلى أقعدى معانا ده أول إجتماع بنعمله علشان العام الدراسى الجديد » وتجلس فايزة وتستأنف الناظرة « ذى ما قلت إحنا لازم نستفيد من الكتب اللى عندنا من العام الدراسى الماضى »

مدرس ــ ما ينفعش . . . المناهج إتغيرت

الناظرة ـــ إطبع التعديلات على ورقه (الاستنسل) وتتوزع مع الكتاب .

مدرس آخر ـــ مادة الحساب زاد عليها حاجات كثيرة للصف الثانى ومش ح تنفع الطريقة دى .

الناظرة ـــ زاد نقص عاوزنا نرمى الكتب اللى فى المخزن ؟

وتدخل إلى الاجتماع إحدى المشرفات وتبلغ الناظرة « أنا مريت على الفصول وعديت الإزاز المكسر والتخت اللى لازمها تصليح » وتقدم ورقة وهى تردف « وآدى البيان » .

وتقرأ الناظرة ثم تسأل الوكيلة الجالسة إلى جوارها « إحنا مش جمعنا فى آخر السنة اللى فاتت عشرين قرش من كل بنت تمن تصليح الحاجات دى » .

الوكيلة ـــ أيوه

الناظرة ـــ المبلغ كام كله ؟

الوكيلة ـــ ٧٦ جنيه ، ٤٠٠ مليم

الناظرة ـــ أظنه يقضى التصليح

الوكيلة ـــ صادق بك استلم المبلغ كله

الناظرة ـــ آه . . . طيب نكمل . وبالنسبه للنشاط المدرسى كل بنت لازم تدفع خمسين قرش المكتبة وجنيه للنشاط الرياضى .

مدرسة ـــ والموسيقى ؟

مدرسة أخرى ـــ والفلاحة والزراعه ؟

الناظرة ـــ لازم تعرفوا إن النشاط بيكلف كتير وصادق بك اشتكى من الحكاية دى .

وتتابع فايزة هذه المناقشات بدهشة بالغه فى هذه التجربة الجديدة حتى ينفض الاجتماع وتستبقيها الناظرة « فايزة أنا عوزاكى »
وتقترب فايزه إلى تلك الكتلة البشرية التى وتقول «انتى ح تدرسى علوم الصف، الثالث الاعدادى وكان إختارتك المشرفة عليها »
— حاضر .
— ح تتعبى شوية لكن انتى لسه صغيره .
وتبدأ الدراسة وتواجه فايزة التلميذات لأول مرة . الفصل مكتظ بهن يزيد عددهن عن خمسين فتاة كبيرات الحجم والسن إلا قله بسيطة . جريئات كثيرات الحركة والغمز واللمز ، عبثهن خليع وجدهن قليل .
تنتهز فايزة عدم صرف الكتب فتسأل كل طالبة عن اسمها .
وتقف واحدة « محاسن توفيق »
صوت من الصفوف الخلفية — محاسن شفروليه
ويضج الفصل بالضحك والصخب ويظهر الامتعاض على فايزه وتسأل « البنت اللى اتكلمت دلوقتى تقف »
ولا يقف أحد بل يتبادلن نظرات عابثة لاهية . تكرر فايزه السؤال « اللى اتكلمت طبعا خايفه من العقاب لكن أوعدها بانى مش ح أعمل أى حاجه لها » ولا تجد استجابة لطلبها . فتستمر الفتاة فى قولها « والدى متوفى . . . أسكن بالشاطبي
أصوات عديدة « فى الأنفوشى يا أبله »
وتلتفت الفتاه إلى زميلاتها وقد أخرجت لسانها لهن قائلة « مش أحسن من غيظ العذب »

وتصيح فايزه بأعلى صوت « بس ولا كلمة ... أقعدى ياهانم »
ويهدأ الفصل قليلا وتتجول فايزه بين الصفوف والمقاعد تدقق النظر فيهن فى محاولة لاستكشاف الفاعلة، دون جدوى. ولا ينقذ فايزة من هذا الجحيم إلا دقات الجرس.

وتستمر المناوشات بين فايزه والطالبات. وتهتدى إلى فكرة جديدة لتتغلب بها على مشاكساتهن. تقسمهن إلى قسمين. الراغبـــات فى التعليم تجلسهن فى الصفوف الأولى. والبـــاقى تخصص لهن الصفوف الأخيرة. وتبنى فكرتها هذه على أساس إعطاء التعليم لمن تستحقه منهن، إلا أن ذلك يكتل مجموعة كبيرة ضدها.

ويحدث أن تنهر إحداهن على إهمالها فى التحصيل « إنتى فاكرة نفسك صغيرة.. عندك كام سنة ؟ »

الفتاة ـــ سبعتاشر

فايزه ـــ عاوزه تسقطى تانى؟

الفتاة ـــ وأنجح ليه ؟

فايزه ـــ أمال جايه المدرسة ليه ؟

الفتاة ـــ علشان أبعد عن البيت.. ما حدش عاوزنى.

وتقترب فايزه من الفتاة وترمقها بإمعان لا تعرف كيف تتصرف ازاء هذه اللامبالية. ويتراخى بصر الفتاة فى حزن يحرك قلب فايزه فتضع يدها على كتفهـــا فى عاطفة مواسيه وتقول « لكن أنا عوزاكى تنجحى »

ويتساقط الدمع من الفتاة ويخرج منها نشيجا مقهورا تعيسا يمس شغاف القلب. وتتجه فايزه بها إلى النافذة حيث الهواء، تنعشها به

وتربت عليها فى حنان « طيب أسكتى بقى . . . اسكتى » لكن الفتاة تزداد بكاء ويعلو نحيبها . تتأثر فايزة بالفتاة وتغرورق عيناها فتخرج منديلها تمسحهما به وقد أولت الفصل ظهرها ثم تقدمه للفتاة لتزيل به دموعها . ويطبق على الطالبات صمت لهذه الاستجابة الانسانية التى جمعت زميلتهن بتلك المدرسة الصغيرة . وتخرج فايزة مشطا من حقيبتها تعطيه للفتاة وتقول لها « روحى سرحى شعرك ... شعرك حلو . ليه دايما ناكشاه ؟ »

وتعود الفتاة أكثر انشراحا والابتسامة على وجهها وتحاول أن تعيد المشط إلى فايزه التى ترفضه وتقول « خليه . هدية منى علشان تسرحى شعرك دايما »

— مرسى يا أبله .

ويذوب الجليد بين فايزة والطالبات . وتدرك فايزه ان التعليم ليس هو التحصيل وحشد الرؤوس بالعلوم والنظريات . التعليم هو الحب أو بمعنى آخر غرس الحب والعطف فى نفوس النشىء .

ويترسب فى عقلها أن أشد الفتيات مشاكسة هن أحوجهن إلى الحنان وأنها تستطيع أن تحولهن بالحنان والرعاية إلى فتيات لهن طموح وأمل

وتستحدث فايزه عادة جديدة . هى اصطحاب فتاة منهن ، بعد إنتهاء الدراسة ، فى طريق الذهاب والعودة من وإلى المدرسة . وتنشىء بذلك علاقة جديدة . وتزداد معرفتهن وبمشاكلهن . وتتنافس الفتيات على تلك الرفقة . وتصبح فايزة مدرستهن المفضلة المحببة ويصرن أكثر

طواعيه . ويكفى أن تمس لإحداهن أو تغاضيها لتظل الفتاة آسفة حزينة حتى تبسم لها فايزة أو تقبل عذرها .

وتفاجأ فايزة بإحدى طالباتها تقدم لها علبة بها إثنى عشر مشطا وتسألها فايزة « وليه ده ياهدى ؟ »

— علشان حضرتك توزعيها علينا ذى ما إديتى سلوى .

— ومش كتير تشترى كل ده .

— أنا ما اشتريتهاش ... أنا خدتهم من الدكان .

— دكان مين ؟

— دكان عمى .

— وهو عارف ؟

وتهز هدى رأسها فى إرتباك نفيا فتقول فايزة « وتفتكرى إنى أرضى لكى بحاجة ذى كده ... لازم ترجعيهم تانى . »

وتفزع الفتاة وترد وهى تكاد تبكى « والنبى يا أبلة بلاش ... أحسن عمى يموتنى . »

— طيب أنا أوديهم .

— مش ممكن ... ح يضربنى ... ويمنعنى عن المدرسة .

— طيب إنتى النهاردة تروحى معاى .

وفى الطريق بين محرم بك إلى محطة الرمل تحدث فايزة طالبتها هدى « وليه عمالة كده ؟ »

— عمى ده مش عمى ولا أعرفه .

— يعنى إيه ؟

— عمى ده جوز أمى ... باكرهه ... عاوزة أموته ...

بيضربنى ويشتمنى .

ــ وماماتك ؟

ــ أمى غلبانة مش قادرة تعمل حاجة .

وتتوقف الفتاة فى الطريق وقد اكتسى وجهها ذعرا « حضرتك موديانى فين . . . ؟ »

ــ لازم نرجع الأمشاط .

ــ (فى رعب) مش ممكن أرجع . . . أنا أروح أى حته . . . أمشى فى الشوارع أحسن

وتستمر فى التراجع باكية ناحبة « لا يمكن أروح عنده . . . لا يمكن »

وتؤخذ فايزة بذية الفتاة وتصميمها . وتخشى أن تفلت منها فلا تستعيدها إطلاقا ، وتصبح مسئولة عنها . وتحاول ان تهدىء الفتاة فتقول لها « تفتكرى يا هدى أنا عاوزة آخدك له . . إنتى عارفة إنى باحبك حتى وآخر جواب بعتيه لى شايلاه معاى فى الشنطة » .

وتبزغ وسط دموعها إبتسامة عندما ترى ورقة تلوح بها فايزة وهى تقول لها « اهو جوابك . . . تعالى شوفيه » .

وتمسح الفتاة دموعها بيدها وتقترب من مدرستها التى تسحبها من يدها وتسير بها وتسألها الفتاة « فين الجواب » .

ــ تعالى الأولى نشرب حاجة ساقعة .

وبين رشفات الليمون المثلج تسأل فايزة « لية الفصل مسمى محاسن شفروليه ؟ »

ــ أخلاقها وحشة وبتركب العربيات .

ــ عاوزانى أقول عليكى وحشة ؟

ـــ (بانزعاج) لا يا أبله . . ده أنا باحبك قوى .
ـــ يبقى ترجع الإمشاط من غير ما عملك يحس .
ـــ مش معقول . . . حيعرف .
ـــ لا . . . أنا ح اشترى منه أى حاجة . . . وألهه خالص لغاية ما تحطى الأمشاط فى مكانها .
ـــ ولو شافنى ؟
ـــ مستحيل . . أنا ح كلمه وألهيه عنك لغاية ما ترجعيهم .

ويتم لهما الأمر كما رسمتاه ودبرتاه وعند ما تودع هدى مدرستها تظل ممسكة بيدها بين راحتيها كأنها تمسك بأمل كبير فى حياتها .

وهكذا تتوثق العلاقة بين فايزة وفتياتها بل وتتحرر هى نفسها عاطفيا وتمارس هذا التحرر عمليا . تمنح الفتيات الحنان فتنال منهن الحب وتهبهن العطف فتحصل على الوفاء . وتتكشف خصالها الأنثوية الرقيقة . ويذهب عنها ذلك الغلاف الجاف الذى كان يحيط بها وبسلوكها . ويتغير مفهومها عن العـــلاقات الإنسانية وتنصهر فى بوتقة التجربة البشرية .

إلا أن هذه الإندفاعة نحو الفتيات لم تنسها أمرين ، المركز القومى للبحوث ومحمود . فكثيراً ما تخلوا بنفسها تفكر وتخشى أن تضيع بين هذه التعاطفات اليومية فتلهيها عن غدها ، أو يجرفها واقعها وعن أملها ؛ تخاف أن تعتاد ذلك الأسلوب من العلاقات مع الفتيات الصغيرات ، ويصبحن الرحيق الذى تستمد منه حياتها ويقل حماسها ويفتر طموحها رويدا رويدا إلى أن تتراجع كلية وبالتالى تعيش كزهرة عباد الشمس تتفتح مع بزوغ الشمس ثم تدور متعلقة بها حتى إذا أفلت إنكمشت إلى

أن يأتى نهار جديد . وهكذا تمضى حياتها يوما بيوم . هذا ما كانت تخشاه وهذا ما كان يؤرقها ويسلبها النوم ليالى طويلة .

— ٣١ —

تودع الأسرة محمودا كما لم تودعه من قبل . إنه يغادرهم لأول مره وهو ذو وظيفة ومركز مرموق . وهو لم يتغير فى شىء . لكن مجرد حمله لقب مهندس أضفى عليه فى خيال القوم هالة من القوة والرفعة . ارتقوا به درجة وزادوه احتراما . ويعبر له أهله عن صادق مشاعرهم باسلوب مادى نابع عن واقعيتهم فى فهم متطلبات الحياة . فالأب يخرج له من حافظته عشرين جنيها ويعطيها له قائلا « خد ... الشيخ خليل يمدر يستنى شويه »

أما الأم فتحمله زادا طيبا فى سله كبيرة مما اعتادت أن تزوده به . حتى جدته العجوز عندما يجلس إلى جوارها يودعها تخرج من صدرها منديلا باليا تفتحه وتستخلص منه عقدا ذهبيا تمنحه إياه وهى تتلعثم « الكر ... الكردان ده تقضى بـ ... بيه مشاريفك (مصاريفك) »

يرافقه حتى الطريق الزراعى جمع غفير من الأسرة والأقارب والأصدقاء يتصدرهم أبوه . يحملون عنه حقيبته والسله الكبيرة حتى موقف العربة التى تأتى بعد فترة وجيزة . ويسود الهرج والمرج وتعلو الصيحات وتتوالى على محمـود السلامات ، ويقتحم العربة وهم من ورائه يدفعون بحاجته إليه

وتتحرك العربة تلاحقه تحياتهم ودعواتهم . وتمضى به إلى

القاهرة وهو بين مغرق بفيض العواطف التى أبداها نحوه أهله وأقاربه، وبين تواق مشتاق للقاهرة وناس القاهرة ، وبين وجل هياب لحياته القادمة وعمله الجديد .

ويصل إلى مـــنزله العتيد . ويصعد السطح ويصدم بصره نولان منتصبان وأمامهما فتاتان تعملان وفاطمة تراقب وتشرف . صورة جديدة . المكان نفس المكان . كان مرتعا لعواطف فاطمة ثم أصبح مجال عملها ومحط طموحها .

وتلتفت إليه فاطمة وتنظر إليه غير مصدقة عينيها . وتبتسم ثم تضحك ثم تندفع إليه تسلم عليه بقوة وتود أن تحتضنه لكنها تنظر إلى الفتاتين فى خجل لم يستطع أن يؤثر على فرحتها بعودته . وتقول « حمد الله على السلامة . مصر نورت »

ــ الله يسلمك يا فاطمة .

وتعاونه فى حمل بعض متاعه وتتقدمه إلى الغرفة ويتخففان من أحمالهما ، وتقف أمامه وقد فاض وجهها بالبشر وتعقب « وحشتنى قوى »

ــ وانتى كان ... شكلك اتغير خالص

تنظر إلى نفسها لتتبين ما استجد عليها ثم تسأله « إيه اللى اتغير فى ؟ »

ــ وانتى واقفه مع البنتين حسيت انك بقيتى حاجه تانيه.

ــ لازم أقف وآخد بالى من شغل البنات والا السجاد يخسر .

ويشرع محمود فى تفريغ حقائبه وفاطمه تساعده والحديث لا يتوقف ويقول محمود « وعامله إيه فى السجاد ؟ »

ــ عال ، أول سجادتين ع النول وبعتهم والحمد لله .

ــ دى حاجة عظيمة ... وبتخلصى السجاده فى كام يوم ؟

ـــ فى شهرين أخلص إتنين .

ـــ وليه ما تمليش صدنا ف شعبية .

ـــ ما تنفعش معايا لأن الحكاية نولين . لازم أجيب معا ريفهم بالسجاد الغالى .

ـــ ده إنتى بقيتى معله كبيرة .

ـــ وإنت اتوظفت وإلا لسه ؟

ـــ أيوه بقيت مدرس فى الكلية .

ـــ (بفرحه) يعنى فى مصر . . . معانا على طول ؟

ـــ بس لازم أعزل .

ـــ (فى إستنكار شديد) ليه بقينا مش قد المقام .

ـــ وتظنى فىّ كده . . . بس أنا بقيت مدرس بالجامعة ولازم أظهر بمظهر مناسب .

ـــ يعنى طلعنا فوق حبتين .

ـــ لا فوق ولا تحت . . . الوظيفة لها أحكامها .

ـــ وعاوز تسكن فى شقة ولا فى لوكاندة .

ـــ لا ده . . . ولا ده . . . عاوز أوده مفروشة عند أى حد .

ـــ طيب سيب المسألة دى على .

ثم يخرج العقد الذهبى الذى أعطته له جدته ويقدمه إلى فاطمه « تعرفى تشوفى بيعة كويسة للكردان ده » . تأخذه منه وتتأمله ثم تضعه على صدرها ، وتلتفت إلى المرآة . يسقط نظره على صورتها بالمرآة ، ويتطلع إليها بشغف وأفتتان . ولم يدر أنها نفذت إلى أعماقه بصورتها الريفية الخلابة وتوقظه فاطمة من إستغراقته « إيه رأيك ؟ »

ـ جميل إتفضلى .
ـ مش ممكن .
ـ بس خليه عليكى شوية . . . خليكى لابساه .
ـ مستعجل على بيعه .
ـ أصل لازمنى شوية قصان وبدلة . . . لازم أظهر كويس قدام الطلبـــة .
ـ لو تصبر شوية أشتغلك بتمنه سجادة وتكسب لك عشرين جنيه
ـ أنا ماليش فى مسألة التجارة . . . ومحتاج لتمنه .
ـ أنا بس حبيت أخدمك .
ـ طول عمرك فيكى الخير .

وتنهض تغادره قائلة « لما أقوم بقى أشوف البنتين » . ثم تمضى تتموج وتتثنى بجسدها اللدن تثيره وتستفز شبابه . وعند ما تهم بغلق الباب تمسك بعينيه متلبسة ترنوان إليها فى شوق . ويرتبك محمود خجلا أو غيظا .

يذهب محمود إلى الكلية ويستقبله د . سلطان ويشكره على اختياره معيدا بالقسم . ثم يتجه إلى مسجل الكلية الذى يقدم له كشفا طويلا بالأوراق والشهادات التى عليه أن يستخرجها من الوزارات والمصالح . ويعانى محمود من هذه المهمة . يتردد على المكاتب كثيراً ويعرف الدمغات المقررة على كل ورقة ويلم بالتوقيعات والأختام التى يجب أن تذيل كل شهادة ويتعلم المجاملة والملاينة والاستظراف لييسر مهمته . ويشترى علبة سجاير من النوع الفاخر المستورد ليفتح بها

الطريق أمام أوراقه التى نسيت أو أنسيت أو ليتعجل توقيعا عليها .
تعلم وتمرس كثيراً حتى أنجز أوراقه .
وخلال ذلك تكون فاطمة قد عثرت على سكن جديد له . وما كان سعيها إلا لغرض فى نفسها، ليبقى على مقربة منها وعلى صلة بها وتخبره بأمر الغرفة الجديدة ويسألها « مين صاحب الشقة دى ؟ »
— الست نازك فريد .
— متجوزة وإلا بتشتغل ؟
— كانت ممثلة من زمان . وعايشة لوحدها .
— وعوزانى أسكن عند ممثلة ؟
— دى ست عجوزة ووحدانية .. مالهاش حد .
— يعنى ضمناها .
— تعالى اتفرج وإن ما عجبتكش تشوف غيرها .
ويكون يوم انتقال محمود من منزله القديم إلى سكنه الجديد يوما عصيبا . فرغم إقتناعه بضرورة ذلك إلا أنه يشعر أنه يودع جزءاً من عمره .وتتضارب فى نفسه الانفعالات وهو يحزم حاجياته ، وتنتاب فاطمه لوعة شديدة تمسك بيديها أن تمتدا لتهد أو تنقل أى قطعة مما فى الغرفة . ويتساقط الدمع من عينيها ويسمع محمود نشيجها فيتجه نحوها قائلا «مش كده يا فاطمه . . . كفاية . . . انتى بتخليني أحس إنى مجرم » .
— ده شىء لازم يحصل .
— أنا برضه ح أكون جنبك .. بينى وبينك . عشر دقائق مشى .
— العشر دقائق دول على قلبي ذى عشر ساعات . كنت بأسمعك فى فى الرايحة والجاية . كنت مونس حياتى وعايشه بك .

ـــ طيب بلاش أعزل .

ـــ وده معقول . . . لازم أتحمل وأتعود .

ـــ وتبقى تيجى تطل عليَّ برضه .

ـــ وانت كان لازم تيجى وتسأل .

ـــ وهى العشرة تهون؟

وتكون لحظات الوداع ملتهبه، تتماسك الأيدى وتتلاقى العيون وتلوذ فاطمة بصدره وتلفحه بأنفاسها فيتنبه إلى المنزلق القريب ، فيقطع ذلك الاسترسال العاطفى ويدعوها لمساعدته فى الحزم والربط وإعداد أمتعته للنقل .

يحدد د. سلطان لمحمود عمله الجديد فى المعمل والمحاضرات. يتهيب محمود الأمر ، ويحرص على أن يستمع لمحاضرات الأساتذة خاصة د. سلطان. ويتابع المعيدين القدامى فى المعمل . يراقبهم ويكتسب بعضا من خبراتهم بل ويصاحب المحضرين ليتعرف منهم على الأجهزة والأدوات الموجودة بالمعمل . ينمى خبرته بكل الوسائل ويتلمس طريقه فى هذه البيئة الجديده كما يتلمس الفلاح الخطوط فى حقله بصبر ومثابرة .

وفى أول لقاء له مع الطلبه يلاحظ ميلهم إلى الممازحه أو إثارة الأسئلة الجانبيه للخروج عن موضوع الدرس، لكنه ينجح فى تجنب هذه الألاعيب الطلابية ، ويتمسك فى شرحه بالموضوع يساعده فى ذلك حسن إعداده له. ويتغلب فى الطلبة جديه العلم على الميل للممازحه. ينتهى اللقاء الأول وهو راضى عن نفسه وقد أزاح عنه وهما كبيراً كان يؤرقه .

وعندما يأوى إلى سكنه الجديد يقابل المرأة العجوز ويرى فيها شيئا

جديداً مثيرا ألا وهو شغفها وتعلقها بالمسرح . تحدثه عن التمثيل حديث الفنانة ، وتحكى له عن أمجادها السابقة . وهو يجد فى حديثها متعة ذهنية تكشف له عن جوانب جميلة فى الحياة لم يسبق له بها عهد ، بل وتدفعه لمشاهدة بعض المسرحيات وتحمسه ليزور بعض المعارض الفنية والمتاحف وهكذا يكتسب ثقافة جديدة وخبرة جديدة .

— ٣٢ —

إذا كان انتقال محمود إلى سكنه الجديد قد أصاب فاطمه فى موجع فقد فرغها ذلك لعملها . تستهلك فيه وقتها الذى كانت تخصصه لمحمود ترعى الفتاتين وتلحظهما . وتطابق النسيج على الرسم المصمم لها . وتفحص العقد وتكتشف الخطأ . وتقع عيناها على انكسارات فى خطوط إحدى السجادتين . فتصيح فى الفتاة « انتى مش تخلى بالك . . هاتى الشنكل » وتناولها الفتاة شنكلا حديديا صغيرا . تمسكه فاطمه وتنزع به العقد المعيبة واحده تلو الاخرى ثم تبدأ فى عقد أخرى بالطريقة الصحيحة . تطلب المقص ، وتهذب سطح العقد الجديدة وتمرر يدها على السجادة وكأنها تحنو على وليدها ثم تقول « تعالى يا بت كملى . . . وفتحى عنيكى »

وكثيرا ما تبقى بعد انصراف الفتاتين لتعمل وحدها خاصة عندما يجافيها النوم أو يسهدها الفكر . تفضل أن تقف أمام النول تعمل وتكد من أن تستسلم للأرق والقلق . وأحيانا تصعد اليها أمها وتقول « مش كفاية شغل ؟ . . من الصبح وانتى فى الهم ده »

ـــ أخلص ده وأحصلك .

ـــ أنا قاعده معاكى لغاية ما تنزلى معاى وتتمشى .

ـــ فول برضه ؟

ـــ هو فيه غيره .

ـــ بكره يامه أوكلك باسطرمة وجبنة رومى . . . . وجاتوه كمان .

ـــ فى بيتك إن شاء الله .

ـــ أنا يا أم مش ح اتجوز إلا لما أقف على رجلىّ ويبقى عندى مصنع صغير .

ـــ ساعتها يفوتك قطر العرسان .

ـــ طيب إيه رأيك فى السجادتين دول ؟

ـــ فشر الحاج صديق وشغله .

ـــ عارفه يا أم أنا ناويه آخد أوده السطح وأحط فيها النولين وأشغل أربع بنات كل اثنين ورديه .

ـــ ولازمته إيه المصاريف دى ؟

ـــ أبداً . . . ده أنا فى الحالة دى أخلص سجادة كل خمستاشر يوم .

ـــ بس خايفه عليكى تتعبى .

ـــ يبقى حد من اخواتى يطلع شويه يساعدنى .

ـــ وليه ما يطلعش أبوكى بدل ما هو قاعد ع القهوة ؟

ويتم لفاطمة ما أرادت وتستأجر الغرفه وتزيد عدد العاملات إلى أربعة ويزداد ربحها . تستثمر بعضه فى تشغيل نولا ثالثا فى مصنع الحاج صديق لحسابها والباقى تدخره أو تساعد به أباها لإعالة الأسرة الكبيرة

وتزداد سيطرتها على أخوتها بعد أن اعتادوا اللجوء إليها لقضاء مطالبهم، بل وتغيرت علاقة أمها بها ، فأصبحت أقرب إلى الصداقة والندية .

ولم تلهها تلك الانهما كات عن محمود . فهى من حين لآخر تزوره وقد يسعدها الحظ فتلقاه . وإذا جلست تجده مستغرقاً فى حديث مع المرأة العجوز عن التمثيل والمسرح وشئون الحياة . ولا تستسيغ فاطمه تلك الأحاديث لأنها تحرمها من الإنفراد به . لكنها مع الإصغاء والإنصات تتعلم وتستوعب وتلتقط كلمة من هنا وعبارة من هناك . وتتشجع وتدلى بدلوها فمرة تصيب وأخرى تخطىء . وتلحظ المرأة العجوز ذلك الإهتمام فتجذبها إليها، وتوثق علاقتها بها وترتاح فاطمة لها وتسألها العجوز « بتحبيه يا فاطمه ؟ »

— قوى يا خالة نازك . . ومعذبنى .

— وهو يلاقى زيك ؟

— أنا خايفة تكون واحده شغلاه عنى .

— الرك على الجمال والخفـــه بس . . . لازمك شوية شياكة وإكسسوار .

— أنا قدامك آهو . . . واللى تقوليه ح أعمله .

— ليكى علىّ أدورك وأهندمك لما أخليه يجرى وراكى .

— (بفرحة) بالذمة ياخاله نازك ؟ . . . والكى الحلاوة .

ولا تألو العجوز جهداً فى تعليم فاطمه فنون السحر والجمال ، وصنعة الكلام، وإطلاق اللسان ، ومعاملة الرجال . توجهها إلى المظهر الأنيق والمسلك الرقيق وتتفهم فاطمة كل ما يقال . وتتطور وتتشكل إلى صورة

جديدة أقرب الى سيدة مهذبة منها إلى فتاة غضة طموحة .

لا يشعر محمود بهذا التغير فى لقاءاته القليلة بها . فهى قد رسخت فى ذهنه بصورة محددة وسكنت خياله بمعالم ثابتة . وأصبح لا يرى غير ما بطن فى عقله ، وكأن على عينيه غشاوة الماضى تحجب عنه الحاضر المتغير .

وتدعوه العجوز إلى عيد ميلادها وتوصيه « أوعى تتأخر عن خمسة أنا عازمه ناس قرايبى .. ما تكسفنيش معاهم . »

— حاضر .

وفى الموعد المحدد يدخل محمود ومعه علبة صغيرة هديته إلى العجوز . يقدمها لها قائلا « عقبال ميت سنة . »

— فى حياتك يا بنى .

ويلمح فى غرفتها سيدة أنيقة جالسة وقد أولته ظهرها ويسألها محمود بالإشاره عنها . فتجيبه « إيه مش عارفها ؟ » . ويهز محمود رأسه نفياً . وتقول العجوز « بص كويس وأنت تعرفها »

ويحذرها محمود بأصبعه ألا ترفع صوتها فتحرجه . لكن العجوز تدفعه إلى غرفتها حيث أعدت مائدة الشاى . ويقترب محمود من السيدة يسترق النظر وفجأة يفتح فمه دهشة وذهولا قائلا « فاطمه ؟.. مش معقول » وتقف فاطمه متراشقة والعجوز من الخلف تشير لها ألا تقف وأن تباداه التحية وهى جالسة . هكذا علمتها سلوك سيدات المجتمع . لكن فاطمة لا تستطيع أن تتخلى عن طبعها أو أن تكبت عواطفها وانفعالاتها .

وتفرح فاطمة لدهشة محمود وتناوله يدا رخصة ناعمة تسلم عليه .

ويظل محمود ممسكا بها يتأملها بإمعان شديد. يبحث فيها عن فاطمة البسيطة التي عايشها سنوات طويلة . ويتذكر آخر صورة لها عندما تزينت بعقد جدته (الكردان) كانت لحظتها قريبة من قلبه. أحس بها وكأنها أخته أو قريبته أو جارته أو إحدى فتيات قريته. إنسان أليفة له . أما تلك التي أمامه فهي شيء آخر لا عهد له بها . وأخيراً يمسك كتفيها بيديه ويقول لها « إيه اللي عملتيه ده ؟ . . . إنتي مش فاطمة » ثم يهزها بشدة « إنتي مجنونة وسمعتي كلام الولية المجنونة دي »

ويجلس إلى الكرسي والعرق يتساقط من وجهه . وتبتلع فاطمه صدمتها وتهدأ . وتفكر وتفهم سر غضبه وتتقبل ثورته . إنه يريدها كما هي وكما عرفها . وترتاح لهـــذا الخاطر بل وينشرح صدرها لمجرد أن صورتها عالقه بذهنه. لا يرغب تغيرها. وتبتسم وتقترب منه وتحتضن رأسه في صدرها وتقول له هامسة « أنا غلطانة . . . سامحني . . . كنت فاكراك عاوزني أبقى زي البنات اللي معاك في الكلية لكن خلاص ياحبيبي . . . خ أفضل زي ما أنا . . . فاطمة اللي عرفتها من زمان »

ثم تتركه لحظة وتعود وقد أزالت زينتها وأرسلت شعرها وخلعت حليها . عادت إليه كما اعتاد أن يراها . وتسر إليه في أذنه « دي ما انت عاوزني ح أكون لك على طول . »

ويرفع بصره إليها ويهم باحتوائها لكن العجوز الواقفة ـــ تنظر اليه شذرا وقد غاظها ضياع جهدها ـــ تذهب بصبوته وتخمد عواطفه .

الفصل السابع

فاق جديدة

— ٣٣ —

يجلس محمود فى مكتب د . سلطان ينتظره . ويصل يتابعه كالمعتاد جمع من الطلبة والطالبات فى حوار وحديث وتعليق أثناء سيره حتى يجلس إلى مكتبه . وبعبارة بسيطة يوجهها لهم ينصرفون .

ويبدأ محمود الحديث « أنا جيت حسب الميعاد » .

— فكرت فى حاجة علشان الماجستير بتاعتك .

— أنا عندى فكرة من زمان .

— ح تكلمنى عن الفول ... طبعا .

— أصله التزام بينى وبين أهلى .

— وانت عاوز تبحث فيه إيه ؟

— أبحث أمراضه فى مرحلة التزهير .

— الموضوع جميل وبراق لكنه واسع قوى وعاوز تجارب كثيرة حاجة مش سهلة أبداً .

— البركة فيك يا دكتور تسهل لى كل الامكانيات . وأنا باعتبره بحث القسم لأنه موضوع يهم قطاع كبير من الفلاحين .

— شوف يا محمود أنا أستاذ جامعة بقى لى أكثر من عشر سنين وسابق زمايلى بأربع خمس سنين ، تفتكر ليه ؟

— لأن سيادتك ركزت كل وقتك للدراسة والبحث العلمى .

ـــ أهم من ده كله إنى اخترت موضوعات بسيطة للماجستير والدكتوراه . تجاربها سهلة ومراجعها موجودة . بعد الدكتوراه بدأت أهتم بالأبحاث العلمية العامة .

ـــ يعنى سيادتك عاوزنى أشوف موضوع تانى .

ـــ طبعا وإلا زمايلك يسبقوك . وتلاقى نفسك متأخر فى التعيين مدرس وبعدين فى أستاذ مساعد .

ـــ بس أنا باعتبر نجاحى فى موضوع الفول أحسن من تعيينى مدرس .

ـــ ده كلام عاطفى ... من غير لقب دكتور ما ليكش وزن فى الحقل الجامعى .

ـــ بس يا دكتور أنا شايف إنى أقدر ..

ـــ (مقاطعا فى حدة) أنا بصفتى رئيس القسم باقولك إصرف نظر عن الموضوع ده وشوف حاجه تانيه أسهل .

وتنزل هذه العبارة أو هذا الأمر على محمود نزول الصاعقة . فيلزم الصمت وتحيطه خيبة الأمل ثم يردف د . سلطان « وقبل ما أنس عاوزك تروح لرفقى بك تشوف حديقته . هو كان اشتكى لى زهرة الجلاديولاس . »

ويخرج من سترته بطاقة يدون عليها العنوان وكلمة تعارف ثم يعقب « آدى كرت بالعنوان ... رفقى بك يهمنى جدا وأنا لو فاضى كنت ساعدته بنفسى . وإذا لقيت حاجة صعبه قولى »

ويأخذ محمود البطاقة ثم يخرج . البطاقة بين أصابعه كجمرة نار .

لا يدرى ما يفعله بها هل يذهب أو لا يذهب إلى ذلك الرفقى بك ؟ ماذا يحدث إذا تجاهل طلب د . سلطان ؟ ولماذا يرفض موضوع الفول ؟

أسئلة تلاحقه حتى المساء عندما يدخل غرفته . ويشعر بحاجته لشخص ما . شخص يفهمه ويدرك أبعاد المشكلة، يستطيع أن يسأله المشورة . وترد فايزه على خاطره . إنها من يستطيع الإعتماد على رأيها، لكنها هناك بالاسكندرية . يفكر فى أبيه الذى قد يؤول الأمر على أنه محاولة للتنصل من وعده ؟ ولاشك أنه سيعفيه منه . ثم يفكر فى فاطمة فيراها دون مستوى المشكلة . ثم يتذكر العجوز التى لا تصلح إلا للحديث عن الفن والمسرح . فلا يجد مناصا من السفر إلى الاسكندرية وما أن تطأ قدماه أرضها حتى يتجه فورا إلى فايزة فى مدرستها .

وتأتى بوجهها البسام وشعرها المعقوص للخلف . وينسى محمود كل شىء إلا إنها أمامه يستقبلها بشوق مكتوم وتبادره فايزه «أهلا محمود .. انت عرفت مكانى إزاى ؟

ـــ اللى يدور ما يتوهش .

ـــ جيت فى رحلة مع الكلية ؟

ـــ خدت أجازة وجيت لك مخصوص .

ـــ مرسى .

ـــ عاوز آخد رأيك فى موضوع مهم .

ثم يتلفت حوله باحثاً عن مكان لحديثه الهام فتدرك غرضه

وتقول « دقيقة واحدة أخلى حد يحضر حصتى وآجى » .

وتعود ضاحكة « يالله بينا »

ـــ على فين .... على نادى النقابة ؟

ـــ هنا مفيش نقابة ... هنا البحر والهواء والإنطلاق .

وفى مكان منزوى بصالة أتينيوس بجلسان وأمامهما البحر تمرح أمواجه من خلف النافذة الزجاجية . الحديث هامس والشاى ساخن وقطع الحلوى شهية وكل شىء جميل . لا يعيران انتباها لأولئك الشيوخ وأصحاب المعاشات والأمجاد السابقة المنتشرين حولها لا عمل لهم إلا الجلوس والفضول .

ويدور الحديث يبدؤه محمود « أظنك عاوزه تعرفى جيت ليه »

ـــ طبعا .

ـــ انتى أكتر واحده فاهمانى وعارفه ظروفى .

ويندفع الدم إلى وجهها لهذه المقدمة المحملة بالتقدير والتى تنبىء عن شىء مثير .

ـــ ودايما باحس إنى محتاج لرأيك . وبصراحة انتى أول واحده جت على فكرى .

ويزداد إندفاع الدم إلى وجهها . وضربات قلبها تدق فى عنف .

ـــ فاكرة موضوع الفول ومشكلته فى الكفر عندنا . وعدت أبوى إنى أساعده فيه . وكنت فاكر إن الكلية مجال طبيعى أبحث فيه أمراض الفول .

ـــ ....

ـــ لكن الدكتور سلطان رفض وقال لى شوف حاجة تانيـــة أسهل .

ـــ . . . . . .

ـــ وفى آخر مقابلة معاه إدانى كرت لواحد اسمه رفقى بك علشان أساعده فى الجلاديولاس .

ـــ . . . . .

ـــ مالك يا فايزه ساكته ليه ؟

وتجيبه فى صوت مهتز وبعباره مقتضبة « أبدا . . . . أبدا . . . . باسمع » .

ـــ ودلوقت أنا محتار . . . مش عارف أعمل إيه ؟

ـــ وإيه اللى محيرك ؟

ـــ (بانفعال) إنتى مش فاهمه موقفى ؟ . . . لا قادر أرفض ولا قادر أقبل .

ـــ لازم طبعا تصر على موقفك .

ـــ يعنى أرفض موضوع رفقى بك ؟

ـــ قصدى تروح لرفقى بك وتشوف طلباته وفى نفس الوقت تصر على موضوع الفول .

ـــ وبعدين ؟

ـــ قدم ورقة للدكتور سلطان واشرح فيها بالبيانات والأحصائيات الخسارة اللى بتحصل من تساقط أزهار الفول فى البرد .

وتبقى الورقة ح تكون أقوى من الكلام اللى قلته .

ــ العلماء عادة ، الأرقام تهز تفكيرهم أكثر من الحساس والعواطف .

ــ وإذا أصر على رأيه أعمل إيه ؟

ــ بلاش نسبق الحوادث .

ــ وإذا رفض يبقى وجودى فى الكلية ذى عدمه .

ــ مهما كان الوضع . وجودك فى وسط علمى أفيد لك وأفيد لأهلك .

ــ دوشتك بقشا كلى .

ــ أبداً .

ــ وعامله إيه هنا ؟

ــ فى انتظار إعلان الوظائف بتاعة المركز القومى .

ــ يعنى ما غيرتيش رأيك .

ــ طبعا لا . . . أنا أغير طريقتى لكن ما أغيرش رأى .

ــ لسه شغالة بطريقة عسكرى المرور .

وتسرح فايزة إلى شىء بعيد وذكريات خالية وتقول بنبرات حالمة « انت لسه فاكر . . . ؟ »

ــ طبعا فاكر .

ــ الواحده لما بتحتك بالحياه بتحس إن أمانيها اللى كانت متصورة إنها فى إيدها بقت بعيدة وصعبة .

ــ بكره تبقي باحثة عظيمة فى المركز .

ــ تعرف بياعات الواقع اليومى بالبنات واندماجى معام ينسيني

موضوع المركز القومى .

ـــ لما تيجى أجازة الصيف ح تنسى البنات والمدرسة .

ـــ أنا خايفه أحب البنات وأحب التدريس ومع الوقت أضحى بكل حاجة علشانهم .

ـــ (بقلق) ... لا ... أوعى تعملى كده .

ـــ البنات بتدينى أشباع ذهنى وعاطفى .

ـــ أشباع لا .... قولى تعويض معلهش .

ـــ يجوز ؟

ـــ أنا شايف إن إحنا لازم نزود اتصالنا ببعض علشان مانبعدش عن بعض ونتوه فى الدنيا الواسعة .

ـــ ابقى تعالى على قد ما تقدر .

ـــ تيجى إلتى ..... آجى أنا . آهو اللى يحس بحاجته التانى يتحرك .

ـــ وهو يعنى لازم يكون فيه حاجه علشان تيجى أوأنا أروحلك؟

ـــ أنا مش عاوز أوجد إطارات نعيش جواها . أنا أحب الإنطلاق والحرية . يعنى متضايق آجى لك . فرحان أشاركك فى فرحى .

ـــ يعنى فيه مشاركة فى كل حاجة ؟

ـــ إحنا بينا مشاركة فى الفهم وفى التخصص وفى الآراء ، وباحس إنك أقرب إنسان لىَّ .

ـــ وأنا كان أحب أعرفك بعيلتى علشان تبقى عارفنى بشكل سليم .

ـــ وأنا أكون سعيد لو عرفتينى بأهلك .

ـــ طيب ح تعمل إيه النهارده ؟

ــ على فيض الكريم .

ــ ما تيجى عندنا البيت أعرفك بأخوى .

ــ ماعنديش مانع .

ــ فهمى ح يعجبك ... أكبر منى لكن روحه شباب عنى .

ــ انتى مكبره نفسك قوى .

ــ عيبى إنى بافكر كتير فى الصغيرة والكبيرة .

ــ مشكلة الإنسان المرهف .

وتكتب فايزة على ورقة العنوان ورقم التليفون وتعطيها له وتعقب « ولو تهت اضرب لى تليفون آجى آخدك من مكانك .

— ٣٤ —

يقف محمود أمام باب حديدى ضخم لقصر شامخ وفى يده بطاقة ، يراجع فيها العنوان . ويعبر المدخل ، وتدهشه الحديقة بمساحتها الكبيرة وأشجارها الباسقة التى تحيط بالقصر تكاد تخفيه عن العيون . القصر أبيض جميل .

يدهشه ضمنا ذلك العدد الكبير من النوافذ المغلقة . وكأن القصر مهجور أو أن أصحابه يتحاشون النور والهواء والناس .

هذه الصورة الثابتة لا تأخذ بمجامع نفسه كما أخذتها صورة أخرى متحركة نابضة بالحياة . إذ يلمح فتاة كالغزال . تلبس بنطلون أسود وقميصا أزرق وتربط شعرها بشريط ذهبى ، تدلى طرفاه ، يتداعبان . وتقبل فى خطو سريع ، وتلمس الأرض بقدمين صغيرتين تريدان أن تطيرا .

وتصيح وهي مسرعة « آتندى شيرى » (انتظر يا عزيزى) .

هذه هي الصورة التى لم تلبث إلا قليلا ، جعلت محمودا يتبع فى مكانه يتابعها برأسه وبعينيه متعجبا مندهشا . ويذهبه صوت البواب الأسمر « حضرتك آوز حاجة ؟ » (حضرتك عاوز حاجة) .

— رفقى بك موجود ؟

— أيوه .... اتفضل .

ويتقدمه البواب وهو يتلفت ويتأمل الإتساع والخضرة والأصص المتعددة الألوان وأحواض الزهور والأشجار الكثيرة . ويصعد سلما عريضا يؤدى إلى مر ينتهى بصالة فخمة . يذهله رياشها وسجادها وتحفها وزخارفها . . أشياء لم يشهد لها مثيل من قبل .

ويتوقف أمام لوحة كبيرة تصور رجلا تبدو عليه مخايل القوة والسلطة مستندا بيده على ماكينة غزل ضخمة وخلفه يظهر بعض العمال .

يسمع صوتا قويا يناديه « الأستاذ محمود . . . أنا رفقى بسيونى » .

— تشرفنا ...

ويتصافحان ويرمق محمود الرجل ويتضح له إنه صاحب الصورة ، وإن كسا الشعر الأبيض رأسه ويلبس سروالا أبيض وسترة رياضية من الصوف الأبيض . ويمسك بيده عصا صغيرة ثمينة ويقول « د . سلطان كلمنى عنك وذكاك للعمل معاى فى الحديقة . . . وإنت متخصص فى أمراض النباتات ؟ »

— أنا معيد بسيط مع الدكتور سلطان .

— طيب ، بينا نلف فى الحديقة شويه .

وبين الأشجار والأحواض يشرح رفقى بك قصة اهتمامه بزراعة الحديقة « طبعا عندك فكرة إنى كنت مدير شركة أرشاك للغزل والنسيج وأكبر مساهم فيها . الشركة خدها القطاع العام وبعدها أصبت بمرض شديد والأطباء نصحونى بممارسة عمل أو هوايه بسيطة . وما كانش قدامى إلا حديقة القصر .

— لكن دى كبيرة قوى ... فدانين تقريبا .

— بالضبط سبعة آلاف وخمسميت متر . وشغلت نفسى بهواية الزهور لدرجة إنى فى مسابقة الربيع السنوية خدت الجايزة الثانية .

— حاجة عظيمة .

— وكان للجايزة تأثير على صحتى ... خفيت ... خفيت ، فعلا ، وجالى تجار الزهور واشتروا بعض انتاجى بثمن مربح . لكن فى الموسم التانى لقيت الأزهار ضعيفة و ذبلة . والدكتور سلطان نصحنى بالاستعانة بك .

— خدمتك .

ـ طيب وتقدر لنفسك أتعاب كام ا... يكفيك عشرين جنيه

— الموضوع ده مالوش أهمية حاليا ... الاول نصلح الجنينة .

— عموما اعتبر المبلغ ده مصاريف مواصلات لغاية ما نتفق على لاتعاب .

وأثناء سيرهما ينحنى محمود ويلتقط ورقة من أحد الأحواض ويفحصها يردد بصوت خافت « فيوزاريوم »

— (باهتمام) إيه .... فى حاجة خطيرة ؟
— نوع من الفطر يصيب النباتات ويمنع نموها ويخليها تدبل .
— وعلاجه إيه ؟
— له طرق كتيرة . لكن لو انتشر يحتاج إلى تطهير وحرق الأرض .
— وإيه ضرره على الجلاديولاس ؟
— يخليها ضعيفة ويصغر حجمها .
— ده بقى اللى حصل الموسم اللى فات ، عموما أنا عاوزك تساعدنى علشان أفوز بجائزة الجلاديولاس .
— ربنا يسهل .
— وأنا مستعد لأى تكاليف . الجايزة مهمة ، ح تعملى بروباجندا فى الصحف وأقدر أبيع الإنتاج بثمن كويس .
— طيب تسمح لى أشوف الأرض .
— تحب أكون معاك .
— مالوش لزوم .. بعدما أشوفها آجى لسيادتك وأقولك رأى .
— طيب سالم الجناينى يقولك على كل حاجة .
ويأتى سالم مهرولا . ويخبره رفقى بك « المهندس محمود ح يشرف على الجنينة . عاوزك تساعده وتشرح له كل حاجه عنها . »
ويتجول محمود وسالم فى ممرات الحديقة وبين الأحواض ليتعرف على ما بها ويسأل محمود « إيه اللى جاب الدبول ده هنا ؟ »
— (بضحكة ساخرة) أمر ربنا .

ـ أنتم لازم اشتريتوا شتلات غريبة ولا تعبانة .

ـ هو إحنا نقدر نتحرك إلا بأمره ... ده لو يسيبنا فى حالنا كنا وضبنا الجنينة دى تمام ... بس هو اللى تاعب نفسه وتاعبنا معاه .

ـ ما هو لازم يعمل كده ... هو عنده حاجه يشتغلها غيرها !

ـ معاك حق يا بيه ... ده كان مشغل الشركة ذى النار . ورديتين وتلاتة يوماتى ... وكان ينام فى استراحة الشركة ومايجيش إلا السبت والحد ومعاه ضيوف من كل ملة وجنس .

ـ كانت أيام هيصة .

ـ هيصة وفلوس وفرفشة ... مش دلوقتى سكوت هس ...

(ويشير إلى نوافذ القصر المغلقة)

ـ وإيه إللى يسكنه فى حتة مقطوعه كده؟

ـ القصر ده كان بتاع الخواجه أرشاك وبعد العدوان الثلاثى حب يهاجر لبلده فباع شركة الغزل والقصر لرفقى بك ... شروه لقطة .

ـ وإنت هنا من زمان ؟

ـ من أيام الخواجه الكبير وحافظ الجنينه شبر شبر .

ـ عال ... يبقى ح نعرف منك كل حاجة عن الجنينه .

ويستمر محمود فى جولته الاستطلاعية وهو يفحص الأرض وينزل بعض الزهور ويمعن النظر والتدقيق دون أن يفصح عما يكتشفه . ويثير ذلك فضول سالم الذى يسأل « بذمتك فيه جنينة أجمل منها ؟ »

ـ هى فعلا جميلة بس عاوزه شغل كتير ... فيها إصابات كثيرة .

وينفتح سالم فمه يكاد لا يصدق قول محمود ويردد بهمس « عجايب والدى عجايب »

يتردد محمود على القصر فى ساعات فراغه من الكلية. يباشر عمله بالحديقة التى يدب فيها النشاط ويزداد عدد العاملين بها يعزقون الأرض، وينزعون الأزهار والأشجار التى تعترض التخطيط الجديد. الأحواض تغسل بمزيد من الماء ثم تعالج بالمحاليل، وتقسم إلى أحواض جديدة. الاشجار الباقية ترش بالمبيدات، ومحمود لا يهدأ ولا يكل معبرا عن إصالته الزراعية الكامنة فى أعماقه منذ صغره. ويستغرقه العمل الجديد ويشده إليه فى تعلق حبيب بالأرض. ويمتزج شغفه بالزراعة بذلك القدر من العلم والخبرة التى إكتسبها فى الكليه وينتج عن هذا المزيج عملا متطورا، يجعل الحديقة تبدو فى ثوب جديد. قد يكون أقل جمالا وأكثر قتاما بعد أن اقتلعت الأزهار والورد وكشفت الأرض عن لونها الأسود، لكن رغم كل ذلك فإنها بدت أكثر قوة وأصلح لإنبات بذورا قوية وفقا لأفكار محمود الجديدة.

وإزاء هذا العمل لا يبخل رفقى بك بالمال لإحداث التغير المنشود، خاصة عندما يرى ما يبذله محمود من علمه وخبرته. ولا يتدخل رفقى بك فيما أصله لا يسأله إلا لمجرد الاستفسار وجلبا للفهم وليطمئن قلبه. وإزاء ما يبذله محمود يتركه، يعمل بقوة إندفاعه الذاتى.

تبدأ بشائر البراعم تشق طريقها فى التربة تواقه إلى النور والهواء. وتنمو الأعواد ومحمود يحنو عليها ويرعاها ويفرح بها كثيرا. ويشاركه رفقى بك سروره وهو يرى أمله يبزغ وينمو.

وفى مكان خاص وعلى خطوط متوازية منتظمة المسافات والأبعاد تظهر أعواد الجلاديولاس. ويضع محمود بطاقة من البلاستيك على كل

عود . ويرقمها بأرقام مسلسله . ويسجل بياناتها فى سجل خاص يدون به تطور كل عود ودرجة نموه وأى تغير يطرأ عليه ويسجل مواعيد كل ريه أو معاملة كيمائية .

ويشتغل حماس محمود بالحديقة ويهتم بالجلاديولاس إهتماما خاصاً . ليس بسبب الجائزة فقط ولكن ليرضى نفسه ويشبع هوايته الزراعية. وكأنه يستعيد طفولته وصباه بين تلك الأحواض والأشجار . وإذا لمح نباتاً غريباً أو فرعاً مريضا سارع لينتزعه ليبقى الباقى بيئة صالحة وليحميها من الطفيليات التى تمتص رحيق حياتها . وتزهر الحديقة مع إقتراب الربيع ومحمود مشدود إليها . يجد فيها هدفاً مباشرا يستهلك فيه طاقته . وكثيرا ما تصدم عيناه رفيعة عابرة أو جارية راحة من بعيد. وفى كل مرة ترتدى رداء جديدا يلفت أنظاره ، وفى كل مرة وهى على وشك مبارحة الحديقة تودع أباها صائحة « باى باى . . . دادى » ثم تلوح له بذراعها العاجية . ويرد أبوها تحيتها بإبتسامة « باى روفى . . . باى » .

لا تعير محمودا أى اهتمام . وكان تأثيرها عليه فى هذه الفترة هو الإنبهار . الإنبهار برشاقتها وأناقتها وزهوها بنفسها وهى تطيح بشعرها إلى الخلف . ويراها محمود دائما مسرعة . تدخل مجال بصره فجأة. وتغادره فى لمحة كطائرة نفاثة تمرق عبر النظر يسبقها ضجيجها العالى ويخلفها صوتها الداوى .

ويحدث أثناء أنهماكه بفحص بعض الجذور وهو مرتكز على قدميه أن يجدها فجأة واقفـــه جواره لا يفصلها عنه إلا خطوة ، يراها عن قرب لأول مرة . جميلة مثيرة ومن ورائها يبدو القصر بأشجاره الباسقة كخلفية رائعة تكمل صورتها . وينهض مرحبا « أهلا وسهلا . . . .

اتفضلی ... اتفرجی بنعمل إیه ؟ » ثم یشیر إلى أعواد الجلادیولاس.
وترد رفیعة بصوت هادیء خافت « مرس » ثم تمضی تخطر أمامه ،
ویشع منها موجات فاتنة تلتقطها عیناه. وأخیرا یفیق لوقفته ویأتی بحرکة من
کتفیه ویدیه ویحدث نفسه « م ... طیب وجت لیه؟ » ویعود إلى سابق
عمله یحاول أن یتلهى به عنها .

وتترك هذه الرؤیا القریبة أو المعاینة القریبة آثارها علیهما . محمود
یعتنی بملابسه ومظهره فی حدود التیسرات المالیة الجدیدة. وهی تکثر من
التجول بالحدیقة . یحاول کل منهما أن یخفی ما ألم به من تطور ویداریه
عن الآخر.

الفصل الثامن

التحامات واشتباكات

— ٣٦ —

الأيام تمضي والأحداث تجرى والالتحامات تترى والانفعالات تجال . والربيع ينشر جماله ، ويشيعه في النفوس ويحررهم من الشتاء ، ويطلق العواطف لتتحرك وتتفاعل . بل وتثور أحيانا . ومن اللاتى يثيرهن الربيع مدرسة من زميلات فايزه . عانس تخطت الحلقة الرابعة من عمرها ولم يمسسها بشر حلالا أو حراما . تنفث هذا الحرمان في الطالبات خاصة الجميلات أو اللعوبات . تخرج هذا الكبت الحارق فى قذائف وإهانات وعقوبات تصبها عيهن .

ويشاء القدر أن تضع فى أصبع طالبة جميلة خاتم الخطبة . وتشاء زميلاتها أن تهللن وتمرحن وتصرخن حولها . ويشاء طالع يوم امنحوس أن تكون فيه الآنسة العانس هى القائمة بالإشراف على النظام المدرسى . تلحظ ذلك المرح الصاخب . تتحرك فيها جميع عقد الكبت والحرمان . وتتجه بقوتها الضارية ودفعه التفات إلى حيث التفت الفتيات اللاتى ما يلمحها قادمة حتى يهربن . ولا تبقى إلا العروس الصغيرة وتركز عليها المدرسة بؤرتى حدقتيها الملتهبتين وترى الجريمة الكبرى فى بنصرها . الشيء الذى تمنته لسنوات طوال دون أن تلمسه حتى صار كحلقة نارية تهيج كوامنها . وتمسك بالفتاة من شعرها وتسحبها إلى الناظرة تتهمها بالاخلال

بالنظام وتزعم العصيان .

وعرفت الفتاة من المدرسة على أن تحضر ومعها ولى أمرها . تبكى الفتاة وتلجأ إلى مدرستها الحبيبة تستنقذها . أبوها لا يرحم وعريسها متزمت لو علم ، قد ينقض عهده . وتنبرى فايزه للدفاع عنها .

وتنشب معركة أمام الناظرة بينها وبين المدرسة العانس . وفى النهاية تصر الناظرة على العقوبة غير مبالية بدفاع فايزة ورجائها . ولا تدرك فايزة سر انحياز الناظرة إلى جانب زميلتها الطاغية حتى تعلق إحدى فتياتها « أصـــل يا أبله الإثنين عوانس . الغيره واكله قلوبهم »

وترن الكلمات فى أذن فايزة ثم تصرفها من تفكيرها . . غير مهتمة بها . لكن عندما تسترجع نظرات الحقد التى انبعثت من عينى زميلتها ، يغشاها الخوف . وتنتابها رعشة من ذلك الوحش الضارى الذى يحيط بضحيته يحرمها من الزواج والجنس الآخر ويقذف بها إلى هوة الحرمان ويظل ملتفا حولها ، يمتص من قلبها الرحمة والحنان ويسلب أعصابها الهدوء ويفقدها الشعور بالأمان والجمال . ويشعل فى أعماقها بركانا لا يخمد ولا يسكن . نار على نار . . تحرق كل من تصادفه .

وينتهى الأمر . . . الجرس يدق والقافلة تسير . . . . وتصطف الفتيات . . . قيام جلوس . . . والسبورات الســـوداء . . .

والأوراق البيضاء . . . والوجوه الصفراء . . . والإمتحانات الصماء . . .

والأيام تمضى . . . بل وتجرى ، والخاتم فى أصبع الفتاة لا زال يبرق ... بريق الأمل . . . بريق عينى محمود وترتاح على أملها فيه . إن للخاتم بريقا ... والأجراس تدق وزميلتها العانس لا زالت تهدر وتزيد فتثير مخاوفها وتقلقها .... أين محمود يطمئنها؟ إنه لم يحضر منذ شهرين ، بل ثلاثة أشهر. لم يراسلها بكلمة .... شكر أو عتاب. وتتوجس ويؤرقها صمته . فتصمم على الذهـــاب إلى القاهرة لتتقصى الحقيقة .... حقيقة وظائف المركز القومى للبحوث . هكذا قالت لنفسها وهذا ما إدعته لأخيها . لكن فى قرارة نفسها تعلم إنها راحلة يه لتتقصى أمره وسر صمته .

— ٣٧ —

الأيام تمضى والأحداث تجرى ، والالتحامات تترى ، والانفعالات سجال. الربيع ينشر جماله ويشيعه فى النفوس. وأعوادالزهر تنمو تجذب الطيور والنحل والفراشات ، حتى رفيعه يحركها الربيع ويشدهـا إلى الحديقة حيث أعدلها مكانا تتمدد فيه وتسترخى ، تستقبل أشعة الشمس متقلبة ذات اليمين وذات اليسار ومعها يقلب محمود بصره مرة إليها ومرة إلى الأزهار والأعواد التى بين يديه. سعيد بعمله فى هذه اللوحه الغناء . أكثر سعادة مما لو كان يعمل فى قريته . هنا الجمال والنعيم وهناك البؤس والشقاء والسيقان العجفاء وخوار العجول ونهيق الحمير .

هى تستمتع بالشمس وهو يستمتع بها . الشباب يحركهما التدافق

والمجتمع يفرض الفرقة والتباعد . صراع ينتصر فيه الربيع فيزداد تعلق رفيعة بالحديقة . تجرى وتلهو وقد لبست بنطلون فضيا وقميصا بلون حبات الرمان . ويبزغ منه ذراعان عاريتان ونحر جميل ، وبينما هو يرقب هـذه الصورة الفاتنة يسمعها تنادى « تعالى هنا . . . . آمى واقفه على الشجرة » ويظهر عندئذ صبي أسمر يحملق بعينين مفتوحتين إلى لا شيء وتشده الفاتنة إلى جوارها وتقرب رأسه من رأسها حتى التلاصق ، وتوجه نظره إلى مكان بأعلى الشجرة . ويتأمل محمود هذه الصورة ويجد فيها التناقض التام فى اللون والجنس والمجتمع .

وتشير رفيعه إلى الصبي النوبي « آمى واقفة هناك »

— شفته ياست هانم . . . . دى فرس النبي . بس هرام (حرام) نمسكه

— ليه ؟

— شوف رافع إيديه إزاى اسا . يدعى ربنا ينجيه منا بلاش ياست هانم .

— بس دى شكلها جميل .

— بلاش أهسن (أحسن) اللى يمسكه يصله هاجات وهشه (يحصله حاجات وحشه) .

وتستجيب رفيعه للصبي فتقول « بلاش يا منصور » ولا يترك محمود تلك الفرصة تمر دون أن يجعلها وسيلة إقتراب . فيحضر فى اليوم التالي كتابا عن الحشرات الغريبة وبه تفاصيل عن حشرة فرس النبي ، وعندما يراها بالحديقة يتجه إليها محييا « صباح الخير »

— صباح الخير .

— تسمحى لى أقدم لك الكتاب ده ، فيه شرح عن حشرة فرس النبي

وتأخذه منه وتداعب صفحاته ، بينما محمود يستمر فى حديثه «أنا شفتك غاوية صيد الحشرات جبت الكتاب ده».

ــ لكن حرام صيدها .

ــ دى إعتقادات غير صحيحة . الحشرة دى متوحشة . لما ترفع إيديها بعض الناس تفتكر إنها بتصلى لكن فى الحقيقة علشان تفترس حشرة تانية وتأكلها .

وتضيق رفيعة بهذا الحديث ويظهر على وجهها التبرم فتقول له بجفاء « طيب مرسى » ثم تمضى فى خطو سريع نافر تاركة محمودا يحدس ويخمن هل أساء القول وأثقل عليها . ويقرر أن يتحاشاها .

اليوم عيد ميلادها الحادى والعشرين . تنشط نشاطا غير مألوف. تصول وتجول فى أرجاء القصر تجهزه لهذا اليوم الموعود . تريده حفلة يتحدث عنها الجميع . وتلمح (الفازات) خالية من الزهور تشعر ناظرها بالخواء، فتهبط إلى الحديقة لتقطف بعض الزهور . وتنتقى من حوض الجلاديولاس الأعواد الممتازة وتقطع سوقها بالمقص . ويراها محمود ، فيجرى نحوها ويقول « يامدموزيل الأعواد دى علشان المسابقة »

ــ مسابقة

ويمد يده إلى ماتحمله منها ويقرأ البطاقات التى عليها ويصيح بانفعال « وكان قطعتى ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ .... دى أحسن أعواد عندى ... رفقى بك ح يزعل جدا »

ــ إيه ١٠٥ ، ١٠٦ ... عموما يا أستاذ أنا ح أقول لبابا .. واطمن » . . .

ــ العيدان دى كانت تكسبنا الجايزة..
ــ اتفضل خدهم مادام مهمين كده .
ــ بعد إيه .. خلاص مفيش فايدة .
ويقبل رفقى بك و يشاهدماتحمله ابنته وانفعال محمود فيدرك ماحدث ويسألها « عجبك الجلاديولاس بتاعتى ؟ »
رفيعة ــ قوى يادادى .. بس الأستاذ زعلان .
رفقى بك ــ أصلها بتاعة المسابقة .
رفيعة ــ وأنا أعرف منين ؟ مش لازم يقولى بدل ما يقف ساكت .
رفقى بك ــ (موجها كلامه إلى محمود) وليه مانبهتهاش ؟
محمود ــ أنا فكرى إنها جاية تتفرج ذى مابتعمل كل مرة .
رفيعة ــ وأنا أعرف منين إن ١٠٥ ، ١٠٦ بتوعك مهمين للدرجة دى ؟
محمود ــ الظاهر يامدموزيل إنك الوحيدة اللى مش عارفه إحنا بنعمل إيه ؟
رفيعة ــ شايف يادادى المزارع بتاعك بيكلمنى إزاى ؟
محمود ــ (بغيظ) أنا يشرفنى إنى أكون مزارع وأحب أعرفك إنى بدرس لميت واحده ذيك فى الكلية .
ويشتد غضب رفيعة فترمى بالازهار إلى الارض بعد أن تصوب اليه نظرة غاضبة ثم تذهب .
ويتردد رفقى بك فيما هو فاعله . أيتبع إبنته ؟ أم يبقى ليناقش محمودا ويتكلم محدثا نفسه « الحقيقة كان لازم أقول لها كل حاجة ...

أحكى لها إيه اللى بنعمله ... وليه ؟ ثم يلتفت إلى محمود « بس إنت يا أستاذ كلمتها بشدة »

ـــ هى السبب . وإذا كان وجودى يعمل مشاكل فأنا أمشى والدكتور سلطان يبعت حد غيرى .

ـــ وهو معقول تمشى بعداللى عملته فى الحديقة . وكمان المشروعات اللى فتحتها معاى مين حيشتغلها غيرك ؟

ـــ أنا متشكر لتقديرك ... لكن ...

ـــ (مقاطعا) إسمع بقى خليك معانا ، وإعتبر روفى ذى طالبة عندك بالكلية .

ـــ سيادتك بتأمرنى .

يجمع رفقى بك الأزهار من الأرض ويضيف إليها أعوادا أخرى ويحمل كل ذلك إلى إبنته الغاضبة فى غرفتها . يلمح دموع الغيظ فيرق لها ويأخذها بين أحضانه ويناجيها « روفى بقى حبيتى بتميط ؟ شوفى أنا جبت لك إيه ؟ .. قومى رتبيها فى الفازات »

ـــ أنا مش عاوزه حاجة من الراجل الغجرى .

ـــ إنتى لسه زعلانه ؟

ـــ طبعا لأنك لسه ساكت له .. علشان مسابقة مالهاش فايدة .

ـــ فى الحقيقة عندى حاجات كثيرة لازم أكلمك عنها . تأجلها بعد عيد ميلادك ... ومحمود شاب طيب .

ـــ أنا ماليش دعوة بيه إذا كان طيب ولا لا .

يغادر محمود القصر حانقا متبجرا بهذه الفتاة المرفهة التى لا تقدر قيمة العمل ولا تدرك مدى الجهد الذى يبذل فى حديقه والدها . وتهدم إنتاجه ببساطة وبلا مبالاة وتقطع أحسن الأعواد بل ولا تتورع عن إتهامه وإدانته وتأثيمه . وعلى هذه الحال يدخل منزله فيجد فاطمة جالسة فى الصاله تنتظره ويحيها محمود « أهلا فاطمة ... فينك ... السجاد خلاص استولى عليكى .

ـــ أبدا إنت اللى رفقى بك استولى عليك .

ويؤخذ بهذه العبارة المغرضة لكنه يكظم غيظه « دى شغلانه بضيع فيها وقتى بعد الضهر . »

ـــ بتتسلى يعنى ؟

ـــ (بحدة) لا باشتغل وباخد ماهية .

ـــ بيقولوا عنده بنت حلوة

ـــ مش بطالة .

ـــ وإنها طالعة فيها قوى .

ـــ شوية .

ـــ يعنى كل اللى بيتقال صحيح .

ـــ (بحدة أشد) إنتى دايرة تتجسسى ورايا ؟

ـــ أخبارك بتيجى لغاية عندى ... ولاد الحلال كتير .

ـــ إنتى بتتدخلى فى شئونى ليه ؟

ـــ بتهمنى وخايفة عليك .

ـــ (صائحا) مالكيش دعوة بيه .

— خلاص نسينا فاطمة الغالية . . وكلامك الحلو راح؟ . . متشكر يا فاطمه . . . ربنا يقدرنى على رد جمايلك يا فاطمه . . .

— بلاش الكلام ده

— نسيت زمان . . . ياما سهـــرت وعديت خطاويك رايحه وجاية .

— (صائحا غاضبا) بس بس اسكتى .

— مش ح أسكت . . . لازم تعرف انى مش ممكن أسيبك لبت مفعوصة تلهفلك ع الجاهز

— اخرصى واقفلى بقك .

— دلوقتى أخرص وأقفل بقى .

ويثور ويدفعها بشدة للخلف فتسقط على أحد المقاعد ويصيح فى هياج شديد « كفاية . . . كفاية بطلى كلامك اللى ذى السم »

وتكور فاطمة على نفسها وتبكى وجسمها يهتز اهتزازا عنيفا . وتدخل العجوز وتدنو فاطمة « مش كده يابنتى . . محدش يعمل كده . . طلعتى الجدع من خلقه »

ويدخل محمود غرفته ضائقا بنفسه وبالجميع . . . رفيمه التى أثارته وفاطمة التى استفزته وفايزه التى هجرته والدكتور سلطان الذى دفعه إلى خضم القصر . لكنه يشعر بأنه تحامل على فاطمه . . فهى لها أن تغار ولها ان تعاتبه بل وتغلظ له القول لعزوفه عنها . . . ولكنها أيضا أثارته بكلماتها الموجعة .

ويعود اليها فيجدها لا تزال تبكى وتنشج نشيجا مكتوما مقهورا

فيشفق عليها ويقترب منها ويضع يده على كتفها وبلهجة مليئة بالأسف يعتذر لها « ماتزعليش منى يافاطمة . . . أنا إتهجمت عليكى غصب عنى وانتى كان ظلمتينى »

وتستمر فى نحيبها وهو يراضيها بكلماته « كفاية بقى والا ح أزعل منك . . . ايه ماليش خاطر عندك ؟ » وينحنى إليها فى محاولة ليضع قبلة على رأسها وهى تتملص منه وأخيرا وبمساعدة العجوز يستطيع أن يمسك برأسها ويهمس فى أذنها حقك على . . كفايه » ويقبلها قبلة خفيفة على رأسها يكون لها فعل السحر فتهدأ وتسكن وتنظر إليه نظرة المعاتبة الولهانة .

وتقترح العجوز « ما تاخدوا بعضكم وتخرجوا . . . فيه مسرحية جديدة فى الأزبكية »

محمود ـ وحد له مزاج للحاجات دى . . . إعمل لنا شاى أحسن ، مش كده يا فاطمة ؟

فتهز له رأسها موافقة . وتذهب العجوز لإعداد الشاى ويمسك محمود يد فاطمة يحتضنها بين يديه فتسند رأسها إلى صدره تريد مزيدا من الحنان ومزيدا من العطف ومزيدا من الحب .

— ١٧ —

يدخل رفقى بك غرفة ابنته ويجدها تفترش الأرض ومن حولها الكثير من الهدايا تفحصها وتحصيها وبيدها مفكرة صغيرة وقلم تداعب به شفتيها ويحيها قائلا : « بنجور دوفى »

— بنجور دادى .

ثم تنهض وتعطيه خدها فيقبلة ويربت على كتفها فى حنان ويشير إلى الهدايا المبعثرة قائلا « ايه اللى بتعمليه ده ؟»

— برتب الهدايا وباكتبها فى مفكرتى .

— ومين اللى قدم لك الكتاب ده ؟

— الأستاذ محمود ... كتاب عن الحشرات

— حشرات . . . حد بيهادى بكتاب حشرات ؟

— على قد ما بيفهم فى الذوق .

— ما يهمكيش منه . . . إحنا لينا شغله وبس .

— امتى تخلص من المسابقة ويرحل ؟

— محمود ح يستنى معاى بعد المسابقة . فيه مشروعات فكرت فيها أنا وهو نستغل بها الحديقة .

— الحديقة ... ليه ؟

— محمودقدم لى مشروع عظيم لاستغلال الحديقة . جزء أزرعه نباتات الزينة أبيعها أو أصدرها لأوربا حتى السور أشيل شجره وأزرع مكانه شجر أبو كاريا بتاع عيد الميلاد ... والحديقة الصغيرة دى ح تجيب دخل عزبه من غير ما ندفع مليم فى الأرض .

— ما دام عرفت أفكاره يبقى ما لوش لزوم لوجوده

— هو أنا أقدر على مشروع كبير كده . ده عاوزه شاب فاهم شغله .

— أنا عندى فكرة . . . أحسن نبيع القصر ونشترى عمارة نأجرها ونسكن فيها

ـ (بلهجة حزينة) القصر ده ما نقدرش نبيعه ... مش بتاعنا إحنا هنا ساكنين بدون أجرة .

ـ (بانزعاج وحيرة) مش فاهمة حاجة أبداً .

ـ القصر ده كان تبع المصنع ولما الحكومة أممته سابت لنا القصر ننتفع بيه مدى الحياة .

ـ (بذهول) مش معقول ؟

ـ دى الحقيقة ... يعنى لازم أشتغل فى الحديقة ... وإنتى كان لازم تشتغلى .

ـ (بدهشة) أشتغل ؟

ـ أيوه تشتغلى ... ح أفتح لك محل لبيع الزهور .

ـ (باحتجاج) أنا رفيعة رفق أقف فى محل وأبيع ورد ... مستحيل .

ـ ليه لأ ؟ .. ميرفت هانم فتحت إتيلية ... مدام فيظى فتحت صالون تجميل .

ـ هـو أنا فى سنهم ... البنات اللى زيى بتتمتع بشبابها فى الحفلات والرحلات والبارتز .

ـ وهو العمل عيب ؟

ـ إنت يا دادى ... ابن بسيونى باشا تقول لبنتك الكلام ده؟

ـ أيوه ... الدنيا إتغيرت .

ـ أصحابى يقولوا علىّ إيه ؟ ... ح أبقى بياعة ورد فرجه .

ـ هدى نفسك شوية ولازم تعرفى الحقيقة ... أنا فعلا ربيتك

وعلمتك علام بنات القصور مش علشان تشتغلى ... لكن الأيام دى راحت ... النهارده لازم نشتغل ونكسب علشان نعيش .

— إنت يادادى عاوز تضحك النهارده .

— (فى حدة) أنا باتكلم جد ... إتفضلى إقرى .

ويخرج من جيبه ورقة هى إخطار بثروته فى البنك ويناولها لها . وتقرأها رفيعة بصوت مرتعش « الرصيد دائن بمبلغ ٤٧٢٣ جنيه » وتنحى الورقة جانبا ثم تنظر إلى ابيها « بس يا دادى ؟ »

— أيوه ... مفيش إيراد وفيه صرف وكان تكاليف علاج المرحومة فى لندن .

وتجلس رفيعة وقد تهدلت أطرافها وصوتها وهى تردد كأنها تحدث نفسها « مش معقول ده يحصل ... مش معقول »

ويأتيها صوت أبيها جامدا كأنه صاعد من الأعماق السحيقة فزلزلها « محل الزهور ح يكون فى أرقى حى ... ح نتعامل مع العائلات الكبيرة والأجانب . ح نكسب ، ح يبقى لك إيراد جديد بدل الأسهم والمصنع اللى راح » .

— (فى يأس) وهو أنا أفهم فى الشغلانه دى ... أنا عشت حياتى بدون مسئوليات .

— المسألة ح تيجى بالتدريج وبالصبر والمكسب كل حاجة تبقى سهله وجميلة .

— (فى انتباه قليل) لكن أنا ما أعرفش أفرق بين الفل والياسمين إزاى أعرف أشغل محل زهور .

— أنا أعلمك ومحمود كان يعلمك .

ويثيرها ذكر اسمه فتشتعل غضباً قائله « ما تجبش سيرته » .

ـــ لازم تحسنى علاقتك معاه .

ـــ مش ح أقدر ... وأرجوك يادادى ما تضغطش علىّ .

ـــ خليكى عاقلة بقى ... استعملى ذكائك .

ـــ طيب لما أشوف آخرتها .

ويبتهج رفقى بك برضاء ابنته فيصيح جذلا « ح نسميه معرض زهور روفى ... فلير روفى » ويظهر طيف ابتسامة على ثغرها تعلن تقبلها فكرة محل يحمل اسمها .

— ٤٠ —

تحضر فايزة الى القاهرة وتذهب الى الكلية بحثا عن محمود ولتذهب معه الى المركز القومى للبحوث . تصاب بخيبة أمل عندما يخبرها أحد زملائه « ده يدوبك بيقمد المحاضرات ويمشى » وتعتريها حالة إكتئاب وتشعر بحاجتها إلى المناقشة والحديث مع أى صديق أو زميله لتخرج من دائرة الضيق . وتتذكر سهير وتذهب اليها فى منزلها وترحب بها « ازيك يافايزة ... وحشتينى عامله إيه ؟ »

ـــ آهو ... عايشه .

ـــ وبتشوفى محمود

ـــ مرة واحدة فى اسكندرية .

ـــ وناويه تقابليه .

ـــ حاولت مالقيتوش فى الكلية ومسافرة بكرة .

ـــ وده معقول تيجى وترجعى من غير ما تقابليه

ـــ وإيه اللى أعمله ؟

ـــ بطلى أفكارك القديمة واعملى ذى

ـ مش فاهمة حاجة ؟

ـ هو انتى مش عارفه، أنا وعلى خلاص اتفقنا على الجواز .

ـ لا معرفش .. مبروك.

ـ الله يبارك فيكى ... وتعرفى أن برغم بساطته لكن دوخنى

ـ إزاى ؟

ـ فضل يطاردنى لغاية ما اشتغل مساى وبعدين هات يازن فى وداتى عن الحب والغرام . ولما أروح ، التليفون يشتغل بالساعات .

ـ ماوقفتهوش عند حده ليه ؟

ـ إنتى عبيطة ؟ .. واستمر يكلمنى عن الحب المجرد والحب المطلق .

ـ ذى الحب للحب والفن للفن .

ـ وفاض بى والآخر صارحته بأفكارى عن الحب وقلت له إن الحب وظيفة إجتماعية بالنسبة للفتاة هى الجواز . وبدونه يبقى حب ناقص .

ـ كان ردة إيه ؟

ـ راح مغنى « حب إيه اللى انت جاى تقول عليه »

ـ عملتى إيه بعد كده ؟

ـ قاطعته . مفيش عشرين يوم كان جاى يخطبنى .

ـ وعاوزنى أعمل كده مع محمود ؟

ـ وليه لا ؟ .. . الأول تكسبى حبه وبعدين تفهميه إللى إنتى عاوزاه .

ـ ما أقدرش أعمل كده ... وكان مسافرة بكره .

ـ أجلى سفرك يومين .

ـــ إيه الفايدة ؟ .. مش ح أقدر أروح الكلية تانى .

ـــ ابعت له على ونقعد مع بعض فى أى مكان .

وحول مائدة فى كازينو قصر النيل يجلس الأربعة ويغنى على « أحب إتنين سوى الميه والهوا ... ياسلام على حبهم »

سهير ـــ مش تبطل غنى .

على ـــ لما أبطل حب .

سهير ـــ (ضاحكة) بقى كده .

محمود ـــ طيب سؤال على الفنوة ، الأهم الميه وإلا الهوا ؟

سهير ـــ الهوا طبعا .. لأن الانسان يموت إذا فقده لمدة دقيقتين بالكتير .

على ـــ الهوى اللى باغنيه بياء المقصور وليس بالألف والهمزة وعلى ذلك فالهوى أهم شىء فى الحياة .

محمود ـــ شاطر يا سيبويه .

على ـــ (مشيرا إلى محمود وفايزة) مش أحسن من خيبويه .

وينفجر الجميع فى الضحك عدا فايزة التى تكاد أن تبتسم ، وتلاحظ سهير صمتها فتسألها « ساكتة ليه يا فايزة ؟

فايزة ـــ هو على بيخلى حد غيره يتكلم ؟

سهير ـــ معاكى حق ... قوم بقى ياعلى نسبقهم ع السينما ونتقابل هناك .

فايز ـــ أنا ماليش مزاج السينما .

سهير ـــ طيب خليكم وإحنا نروح السينما .

وتجذب سهير عليا من يده الذى يتوقف ليقول لفايزة « فكى شعرك المربوط ده » وتشده سهير بعنف لتمنعه من الاسترسال فى تعليقاته .
وما أن يذهبا حتى يلتفت محمود اليها ويسألها « أخبار تلميذاتك إيه ؟ »

ــ أنا قاعده معاك ساعه ولا اتنين .... ما تكلمنيش عن حد تانى .

ــ طيب أخبارك انتى ؟

ــ زهقانة وعندى شعور بعدم الاستقرار .

ــ مش قلتى إن اسكندرية بتساعدك على التحرر ؟

ــ فعلا ده حصل ... لكن بأحس فيها بعدم الاستقرار .

ــ فيه حاجه تعبا كى فى المدرسة ؟

ــ بالعكس مبسوطة .. بس باعتبرها حاجة مؤقتة ... يعنى أيامى دى مش محسوبه من عمرى ، لانى ما بدأتش فى طريقى وحياتى الفعلية .

ــ وأنا ذيك ... متهيأ لى إنى ماشى فى طريق غير طريقى .

ــ ليه ؟ .. انت دلوقت معيد وقدامك طريق واضح ومحدد .

ــ الدكتور سلطان لغاية النهاردة ما وافقش على موضوع الماجستير .

ــ وعملت إيه فى المذكرة اللى قلت لك عليها تقدمها له ؟

ــ فى الحقيقة شغلى مع رفقى بك واخد وقتى كله .

ــ وعامل إيه معاه ؟

ـــ ماشى الحال . . . يمكن نكسب جايزة الجلاديولاس .

ـــ بجد

ـــ ماتيجى دلوقت أفرجك على الجنينة وتقول رأيك .

ـــ أروح إزاى لناس ماليش معرفة بيهم ؟

ـــ مالناش دعوه بيهم . . ويمكن ما نقاباش حد منهم .

وهناك تتطلع فايزة فيما حولها مأخوذة بما تراه. تتلفت هنا وهناك ثم تعلق « ده قصر هايل . . . جنينة تطول العمر . . . لكن إيه االى يخلى رفقى بك يبنى القصر ده فى حتة بعيده ؟ »

ـــ ده أصله بتاع خواجه وهاجر . وكان بيمضى فيه أجازة الأسبوع .

ـــ كل ده علشان أجازة الأسبوع . . ده ينفع مدرسه ولا مستشفى .

ـــ تعالى أوريكى حوض الجلاديوس .

ويمسك يدها يقودها بين الممرات الضيقة حتى يصلا إلى الجلاديوس .

وتقف فايزة تتأملها عن قرب وتمسك أعوادها بيديها وتمعن النظر فيها. تريد أن تقبلها أو تسر إليها كلاما خاصا . ويتركها محمود تهيم بين تلك الأزهار ، ويختفى لحظة قصيرة ، ثم يعود ومعه وردة بيضاء مكنونة ، لم تتفتح للربيع بعد . ويقدمها إليها وتأخذها وتتشمم عبيرها ، ثم تتحسسها بوجهها . وتنظر إليه بعينين مثقلتين بالتعبير الذى لاتستطيع أن تفصح عنه ، وهو يتأملها وقد ذابت نفسه وتاقت لأن يحتضنها

فى صدره وبين إحجامه وتردده يأتيهما صوت رفقى بك « محمود.. أنت هنا ؟ »

— أيوه يا رفقى بك .

ويقبل فيرى فايزه إلى جواره وتأخذه الدهشة لوجودها ثم يرحب بها « أهلا وسهلا » ويقوم محمود بمهمة التعارف قائلا « زميلتى فايزة.. وباحثة بالمركز القومى » .

فايزة — بإعتبار ما سيكون .

محمود — رفقى بك من كبار الاقتصاديين .

رفقى بك — (ضاحكا) باعتبار ما كان .

وبعد أن يتأملها يسألها « وحضرتك متخرجة من كلية الزراعة برضه ؟ »

فايزة — أنا ومحمود تخرجنا مع بعض .

رفقى بك — جه اليوم اللى البنات تنافس فيه الرجالة .

فايزة — أنا مش شايفـــه منافسة . . . أنا بأشعر بالزمالة والمساواه .

رفقى بك — مساواة !! أوعى تصدق إن الرجالة يعتقدوا فى المساواه مهما كانت شهادات البنت . دايما يحطوها فى المراكز والوظائف الاصغر .

فايزة — رغم كل ده فيه نوع من المساواة .

رفق بك — آخر مرة زرت فيها لندن كانت الجميات النسائية بتطالب بمساواة أجور المرأة بأجور الرجل .

محمود ـــ عندنا مفيش فروق فى الأجر ... كله ذى بعضه .

ثم يسمعون صوتا ناعما آتيا من بعيد « دادى ... دادى ... انت فين ؟ » .

رفقى بك ـــ (ملتفتا إلى مصدر الصوت) ـــ أنا هنا عند الجلاديولاس .

وتصل رفيعة بعد لحظة ، وقد لبست بنطلونا أسوداً وقميصاً أبيضا ملائكيا وتركت شعرها ينسدل على كتفيها فبدت كحورية من حوريات الأساطير . ولا يثير دهشتها واهتمامها إلا فايزة ولا يفحص رفيعة بعين ثاقبه إلا فايزة . كل تعاين وتقيم الأخرى . هذه أرسلت شعرها مطلقا وتلك شدته الى الخلف . تباين فى الشعر بل وفى معالم أخرى .

يقوم رفقى بك بتعريفهما ببعض ، وتتبادلان الإيماءة بالرؤوس مع إبتسامة خفيفة . ثم تعلق رفيعة ، يا ترى أنا قطعت كلامكم ؟ »

محمود ـــ دى مناقشة بين رفقى بك وفايزة عن مركز امرأة فى المجتمع .

رفيعة ـــ يبقى مش ح تروحوا الليلة .

ويدعوهم رفقى بك إلى تناول الشاى فى الشرفة . وهناك حول المائدة يستأنف الحديث ويقول رفقى بك « طبيعة المرأة وتقاليد المجتمع وتكوينه تحد من المساواة بالرجل فى الوظائف العامة » .

فايزه ـــ علميا ثبت إنه لا يوجد فرق بين ذكاء المرأة والرجل .. وتقاليد المجتمع هو اللى حطها وهو اللى يقدر يغيرها ويطورها .

رفقى بك ـــ الرجل حياته العمل والمرأة حياتها الحب والزواج

الرجل يقدر يضحى براحته وبنفسه فى سبيل عمله ، أما المرأة فاهتمامها ببيتها وأسرتها أولا .

رفيعة — يعنى يا دادى إنت من أنصار المرأة للبيت وبس وما تشتغلش .

رفقى بك — (ضاحكا وقد فهم مرماها) كان زمان المرأة والفتاة تقدر تأمن نفسها بالأسهم والسندات والعقارات . لكن النهاردة العمل هو الوسيلة البديلة .

فايزة — طيب سيادتك عاوز إيه من الفتاة .

رفقى بك — أقصد أنها تشتغل فى أعمال تناسب طبيعتها كأم وزوجة .

وعندئذ يحضر الخادم بالشاى وتنهمك رفيعه فى تقديمه وصبه وتعقب على كلام أبيها « الواحدة مهما اشتغلت لايمكن تنسى أنوثتها وإلا فقدت نفسها » .

يعقب رفقى بك « المرأة دايما فى صراع بين عملها وبيتها وده بيخليها منفعلة وغير مستقرة »

فايزة — المجتمع هو السبب . لو يديها حقوقها كاملة تقدر توفق بين الاتنين .

رفقى بك — المرأة لما تغير تفقد نص تفكيرها .

وتعلق رفيعة وهى تصب الشاى لمحمود « لكن يا دادى الجميله ما تغيرش . »

محمود — (فى محاولة لتجنب احتدام المناقشة) يبقى لازم تعمل مقاييس الجمال ضمن شروط الوظيفة .

فايزة — انت عاوز تضحك شوية ؟

محمود — ده حاصل فعلا فى تعيين المضيفات والسكرتيرات وعاملات محلات التجميل والعطور .

فايزة — الجمال فى حد ذاته شىء لا وجود له إلا فى إحساسنا وشعورنا . وإذا اتغيرت الأذواق اتغيرت النظرة للجمال . والجميلة النهاردة بكره تبقى عادية .

رفيعة — أنا أخالفك فى الكلام ده . . . مقاييس الجمال واحدة فى كل زمان . نفرتيتى مثلا جميلة من آلاف السنين ولغاية النهارده تمثالها يعتبر أجمل رأس لإمرأة .

فايزة — وليه ما تقوليش إن إعجابنا هو بفن المثال وإبداعه مش برأس نفرتيتى .

رفيعه — لولا جمالها ماكانش المثال اتحرك وأبدع .

رفقى بك — يعنى الرجل هو القادر على الإبداع والخلق والمرأة هى الحافز .

محمود — رفقى بك بيستغل الانقسام فى صفوف الخصم ويكسب نقطة .

رفقى بك — كان المرأة مهما اشتغلت محتاجة للراجل للامان النفسى والمادى .

وتقدم رفيعة طبق الحلوى إلى محمود وتقول « تمام يا دادى الواحدة بتعجب بالرجل القوى ويجوز تعطف على الرجل الضعيف » ثم تلتفت إليه هامسة « الكيك عجبك . . . حتة كمان ؟ »

وينظر اليها محمود مأخوذاً مندهشاً ويردد «لا ... لا ... متشكر»

أما فايزة فتنبرى لمعارضة رفيعة «ويجوز العكس تحب الضعيف وتسيب القوى»

رفقى بك — المرأة دايما تحب القوى، فى البلاد المتقدمة مثلا تعجب بالرياضى والفنان والعالم، والغنى وفى البلاد، المتأخرة تحب الصياد الماهر والمقاتل الشجاع والراقص البارع .

رفيعة — النهارده الراقص البارع والمغنى فى أرقى البلاد بيجنن البنات ويموتوا فيه .

فايزه — ده مش تقدم ... ده تخلف .

رفيعة — عاوزه تقولى إن الروك أندرول ، والتشاتشا رقصات متخلفة .

فايزة — أنا ما أقصدش الرقص نفسه ... أنا أقصد جنون وهوسة الرقص .

رفيعة — أنا مش معاكى فى الكلام ده .

وتنظر فايزة إلى ساعة معصمها ثم تلتفت إلى محمود «أظن نروح بقى .... عن اذنكم» ثم تنهض ويتبعها محمود بينما رفقى بك يعلق «لسه بدرى والحديث ممتع» .

رفيعه — (وهى تنهض) لسه بدرى .... والليل طويل .

فايزه — الليل طويل للى نهاره قصير .

رفقى بك — فرصة سعيدة ونحب نشوفك مرة ثانية .

فايزة — مرسى .

ويزعق رفقى بك آمرا باحضار العربة لتقلهما إلى منزليهما .

وتتحرك السيارة وينشب حديث بينهما ويقول محمود «أنا شايف ان رفقى بك كان معجب بمناقشتك» .

— كان رفيعة كانت بتخصك باهتمامها .

— دى أول مرة اتكلم معاها . . . . حتى أنا استغربت لما قعدت معانا .

— امال كانت بتوشوشك ليه ؟

— كانت بتسألنى الكيك عجبنى .

— طبعا هى ما تقصدش الكيك !!

— أمال تقصد إيه ؟

— تقصد رأيك فيها .

— (ضاحكا) دى ما حدش مالى عينها .

— يعنى حاولت وصدتك ؟

— طبعا لا . . . ده أنا كنت ح أسيب القصر بسببها .

— ايه زعلتك ؟

— جدا . . . جت بمناسبة عيد ميلادها وقطعت أحسن أعواد الجلاديوس .

— حاجه مثيرة .

— إيه اللى مثير فيها ؟

— طبعا مثيرة بعد اللى شفته النهارده .

ـ ماهو طول ما إحنا بعيد عن بعض يبقى مما كحق تتصورى أى حاجه.
ـ ما انت اللى ما بتجيش .
ـ آجى فين ؟
ـ اسكندرية .
ـ وليه انتى ما تجيش ؟
ـ طيب ما أنا جيت أهو .
ـ علشانى وإلا علشان وظيفتك بالمركز القوى ؟
وتخلد فايزة لإطراقة بسيطة تفكر كيف ترد هذا الاتهام ثم تجيبه « أنا جيت علشانك . . . أربع شهور منتظراك قلقت ، عملت حجتى الوظيفة وجيت» وإزاء هذا التصريح الأمين يذوب محمود ويجول بعينيه على صفحات وجهها ثم يمسك بيديها يتحسسها بعاطفة جياشة وهى ساكنة يهزها الشوق من الداخل وتتقبل ملامساته وتتمنى مزيدا . ويود هو لو يطبع على يدها قبلة يبثها حبه لكنه يخشى رفضها وصدها . يتمنى هو الآخر ولا يجسر .
وتقف العربة أمام منزلها ويظل قابضاً على يدها لا يريد أن يتركها وهى لا ترغب أن تغادره ويهمس لها محمود « ح آجى اسكندريه قريب فى أول فرصة . . . مع السلامة يافايزة »
فايزة ـ (وهى تهبط من العربة) . . . منتظراك . . . مع السلامة»

الفصل التاسع

(تردد ثم تردى)

— ٤٣ —

كان شاى الشرفة بداية مرحلة جديدة فى العلاقات الإنسانية والمادية بين أناس القصر. فقد أزالت كلمات رفقى بك عن ابنته غشاوة المجد الزائف واجتازت بها حاجز الضباب . . . ضباب الماضى ، وجعلها ترى الواقع كما هو قائم وليس بما كان . وكان اقترابها من محمود فى الشرفة وتبادل الحديث معه وظهور فايزه زميلته سببا آخر لكى تعيد رفيعة النظر فى محمود وتقيمه تقييما جديدا . وتدأب على ملاحظته وهو يعمل فى الحديقة بحماس لا يفتر وهمه لا تنضب ، لكنه يتوقف تماما عندما يسمع صوتها أو عندما تدنو منه ، فيحيها التحية المناسبة. وتتسع لها ابتسامته رويدا رويدا كلما زادته إقبالا واهتماما .

ويبدأ رفقى بك الدرس الأول لابنته ليؤهلها للعمل الجديد. واختار الورد موضوعا . وأمام أحد أحواض الورد يقول « الورد أنواعه كثيره وألوانه متعددة وريحته جميلة ويستخدم فى الأفراح والمآتم »

— (مقاطعة) باى يا دادى . . . بلاش تتكلم عنه . .. ده صنف شعبى وبيتباع على الأرصفة .

— ما كل حاجة بقت على الأرصفة حتى حاجات كريستيان ديور وجان فات واليزبث أردن .

ـــ مفيش محل كبير بيبيع الورد .
ـــ أحسن حاجه أنده محمود يفهمك وأستريح أنا منك .
ثم ينادى محمود الذى ما أن يحضر حتى يسأله « قولى يا محمود... الورد شعبى ؟ »
محمود ـــ أيوه شعبى
ـــ رفيعه ـــ (مهللة ومصفقة) برافو ...شفت كلامى مظبوط .
رفقى بك ـــ قصد رفيعه إن المحلات الراقيه ماتبعش الورد .
محمود ـــ شعبى يعنى الناس بتحبه ويشتريه الغنى والفقير ... عموما مفيش تفرقة طبقية بين الزهور .
رفقى بك ـــ أنا عاوزك تديها كام درس عن الأزهار وقيمتها التجارية ومناسبات استخدامها .
محمود ـــ (مندهشا) المدموزيل رفيعة ... مش معقول ؟
رفقى بك ـــ أصلى ناوى أفتح لها محل زهور .
محمود ـــ (أكثر دهشة) محل زهور ... ! !
رفيعه ـــ ليه ... ما أقدرش ؟
محمود ـــ مش قصدى . . . أنا شايف أنها عمليه متعبة .
رفقى بك ـــ فى الأول بس وبعدين كل حاجه تبقى بسيطة .
ثم يلتفت، إلى ابنته « وانتى كان تخلى بالك وتسأليه عن كل حاجه » ثم يغادرهما إلى القصر
ويبقيان معا لأول مره . هو مرتبك حائر بهذه المهمة المفاجئة. لكن إبتسامة رفيعة المشجعة وأعواد الورد والايريس والداليا وجمال الربيع تزيل عنه كل حرج وحذر كان يطبع سلوكه

نحوها . وتدعوه رفيعه بصوت رقيق عذب « اتفضل . . . اتفضل آنا جاهزة للدرس »

محمود — الورد من أقدم وأشهر الزهور أعواده معمرة . يزهر طول السنة خاصة فى الربيع والخريف ألوانه كثيرة ، ويزرع فى معظم دول العالم .

— رفيعة يعنى دولى .. مالوش وطن .

— وطنه الأرض . . . وطول ماهو فيها تلاقيه قوى .

— لكن بيدبل بسرعة بعد القطف .

— لأنه إنفصل عن موطنه .

— يعنى ضعيف ما يقدرش يتحمل التغير .

— برضه بيعيش يومين ثلاثة بعد قطفه .

— وعلشان كده رخيص .

— لكنه مطلوب وناس كتير بتحبه .

— تجارته غير مربحة . . . . أحسن حاجه نصرف نظر عنه .

— أحسن حاجه آجيب لك كتاب عن نباتات الزينة تقريه وبعدين أشرحه لك .

— ذى كتاب الحشرات .

— إيه ما عجبش ؟ . ده مبسط وفيه معلومات ظريفة .

— أنا رفضت أقراه . لأنى حسيت انك بتستعرض علمك .

— أنا بقى اعتبرته وسيلة تعارف وتفاهم .

— يجوز ده كان قصدك لكن دى كانت فكرتى عنك .

ـــ وده سبب نفورك ؟

ـــ أبدا . . . ده أنا أحب الناس والمجتمعات .

ـــ بان . . . كنت كل يوم خارجة .

ـــ وانت كنت واخد بالك منى ليه ؟

ـــ طبيعى إنى آخد بالى منك .

ـــ طيب ليه ؟

ـــ لانك ملفتة للنظر ومثيرة للاهتمام أولا .

ـــ (بدلال فياح) وثانيا ؟

ـــ دايما بتجرى أو ماشية بسرعة .

ـــ (بدلال عارم) وثالثا ؟

ـــ وكل يوم بلبس جديد وهدوم جديدة .

ـــ ورابعاً ؟

ـــ مالوش لزوم رابعا دى .

ـــ لا . . . لازم أعرفها .

ـــ جميله .

ـــ وهى دى الكلمة اللى مش عاوز تقولها .

ـــ فيه حاجات تتفهم من غير ما تتقال .

ـــ مش محتمل إن الطرف الآخر ما يقدرش يفهم بالإشارة ؟

ـــ الأذكياء يفهموا بالاشارة وتعبيرات الوجه .

ـــ بلغة العيون ؟

ـــ دى لغة المستقبل . كلام قليل . وتفاهم أكثر بالعيون .

— تبقى مشكلة لأن ما حدش يقدر يحتفظ بسر فى نفسه.

— الحياة ح تبقى بسيـ . . . نوايا سيئه أو اتجاهات عدوانية المجتمع ح يكون للخير والسلام .. يبقى مفيش لزوم الاسرار

— لكن كل واحده تحب يكون لها سرها الخاص ... طبع لمرأة كدة .

— فى عالم المستقبل الندية ح تكون كاملة بين الرجل والمرأة سواء فى العمل والسلوك . وبالشكل ده فيه حاجات فى طباع المرأة ح تتغير .

— يعنى العواطف ح تختفى بين الرجل والمرأة ؟

— العواطف والمشاعر الإنسانية مستمرة لكن العلم ح يهذبها ويرقيها .

— والحب ؟

— الحب باقى بقاء البشرية بس ح يخضع للتفكير والعقل

— يعنى مفيش حب من أول نظره ؟

— الحب ح يكون من النوع المحسوب . يعنى الواحد يدرس الواحده . يقدر صفاتها وعقلها وشخصيتها وأهدافها فى الحياة . وإذا وجدها تتوافق معاه يبتدى يترك لعواطفه الحرية لتنمو وتتجه للطرف الآخر وبالشكل ده ينشأ نوع من الحب المدروس . .

— كلام جميل .

— والأجمل منه إننا نرجع للدرس والواقع بتاعنا

— أنا شايفه إن وافعنا حلو ومبشر

ويؤخذ محمود بهذه الاشارة اللبقة ويفاجأ بها تغادره ضاحكة وتودعه « باى ... باى ... » ويتابعهـــا وهى تغر أمامه حتى تختفى .

— ٤٢ —

يتجول د . سلطان فى أحد حقول التجارب بالكلية ومعه محمود . وبين الحين والآخر ينحنى ويفحص بعض البراعم ثم يقف ويوجه سؤالا إلى محمود « قطاعات الأسبوع اللى فات عملت فيها إيه ؟

— فى الثلاجة .

— أنا عاوز أصورها تصوير ميكروسكوبى بالالوان .

— مفيش إلا جهاز المركز القومى اللى يطلع الصور دى .

— وماله ابعت جواب وعندنا اعتماد التجارب جاهز . نصرف منه .

— أروح انسق معاهم الأول على المواعيد وبعدين الجواب .

— موافق ، بس بهمنى السرعة لأنى عاوز أوصل لنتيجه محدده وكمان يلزمنى بعض التحاليل عن التربه .

— دى سهله عندهم قسم أبحاث التربة .

— عاوز أخلص من تجاربى بسرعة واكتب البحث وأبعته منظمة الأغذية العالميه بروما

— إن شاء الله .

— ولو إتقبل البحث اقدر أحضر المؤتمر السنوى .

وعندئذ تطل من عينى محمود استفهامات عن بحثه. ويلتقط د. سلطان ما يدور برأسه فيسأله « وعملت إيه فى موضوعك؟ »

— أنا سبق قدمت تلات موضوعات لسيادتك . . . ورفضتها.

— لازم نشوف حاجه تانية.

— أنا لازم أكون مقتنع بالموضوع ، اللى ح ادرسه.

— وعامل إيه مع رفقى بك ؟

— عندى أمل نكسب جايزة الجلاديولاس.

— وياترى مسجل بياناتك عن نموه وأمراضه ؟

— (بحماس شديد) أنا عامل شغل نموذجى. بطاقة لكل عود مسجل فيها مراحل النمو ، المعاملة الكيمائية ، الرى ، درجة الرطوبة والحرارة.

— إيه رأيك لو تخليه موضوع الماجستير

— أنا الفول فى دمى ومستولى على فكرى.

— (بغضب شديد) هو أنا كل ما أكلمك تفتح موضوع الفول انت مش عاوز تفهم مصلحتك

— يهمنى سيادتك ماتزعلش منى

— طبعا زعلان لأنى صبرت عليك كتير وفهمتك وانت مش عاوز تقتنع ... زمايلك سجلوا موضوعاتهم وانت لسه

ويتردد محمود بين الإجابه والرفض . لا هو قادر أن يقول « نعم » ولا يستطيع أن يلفظ « لا » الضباب والحيرة تلفه تماما . ويلقى إليه د . سلطان كلاما أشبه بأمر أو بتعليمات « تجهـــز ورقة بالموضوع وتجيبها المكتب علشان أوافق عليها ... وما تنساش

القطاعات والصور » ثم يذهب فجأة تاركا محمودا غارقا فى أفكاره لا يدرى ما يفعله وقد أصبح لزاما عليه أن يتخذ قرارا ...

ويخلو بنفسه فى غرفته كعادته كلما أحاط به ضائقه أو عندما تختلط عليه الأمور . ويدخل فيجد فاطمة جالسة مع العجــــوز فى محاولة لكشف المستور والمكنون بين أوراق (الكوتشينة) . وتستقبله فاطمة بابتسامة عريضة وقد بدت فى أكمل زينة . ويحييها محمود « أهلا فاطمة ... وحشانى » .

فاطمة — « صحيح ولا بس كلام » .

محمود — لازم يكون صحيح لأنك من مدة طويلة مش باينة .

فاطمة — جيت كذا مرة وانت اللى مش موجود .

محمود — هم مرتين بس اللى جيتيهم ... مش كده يا ست نازلى ؟

العجوز — أيوه يابنى ... هى رخرة مش فاضيه . السجاد واكل عقلها .

محمود — فعلا الشغل يلهى .

فاطمة — لكن عمره لهانى عنك .

محمود — فيكى الخير ... العشرة مأثره فيكى .

ويجلس الجميع وتقول فاطمة « أناجاية أشورك فىموضوع مهم . »

— خير .

— إنت عارف الحاج صديق . عاوزنى أشاركه فى مصنعه .

— تشاركيه ... إزاى ؟

— بقيمه الاربع أنوال بتوعى ... ومش عارفة أعمل إيه ؟

— وهو عنده كام نول ؟

— صبحنا شر .
— يبقى تشاركيه بالنص .
— وهو معقول يوافق .
— هو إنتى ح تشتغلى فى المصنع والا لأ ؟
— ذى ذيه ... هو ست ساعات وأنا ست ساعات
— يبقى تتمسكى بالنص .
— ولو رضى ... أوافق ؟
— طبعاً .
— بس أنا مش مرتاحه له ؟
— ليه ؟ إعلى العقد عنه واحد عامى .
— مش قصدى ... أصل الحاج بيبص لى بشكل غريب كده .
— ده راجل كبير ذى أبوكى .
— كان نفسى تقولى ما تشتغليش معاه .
— ليه ؟
— نفسى أحس إنك بتغير علىّ .
— أنا أصلى واثق منك .
— أما أنا فقلبى بياكلنى من ناحيتك .

ويضحك محمود دون أن يجيبها ثم يدعوها للغذاء « ما تتغدى معايا النهارده » وتجيبه فاطمة « سبقتك ... المرة اللى جاية تتغدى سوى بس أنا اللى أجهز كل حاجة » .

— موافق .
— خليتكم بعافية .

يذهب محمود إلى فايزة بالاسكندرية . باحثا عندها عن حل لمعضلته . لعلها تأتيه برأى مفيد بعد أن بات على مضض لا يستطيع أن يجزم أى الأمرين أصلح وأجدى . أيقبل ما طلبه د . سلطان منه أم يرفضه ؟

ويدخل المدرسة كما دخلها أول مرة . ويسأل عنها السكرتير الذى يفيده « دى خرجت من شوية » .

— ح ترجع إمتى ؟

— ما أقدرش أجاوبك ... لكن شفتها خارجه مع الدكتور . . الدكتور ندا .

ويبهت محمود ويقول « سمير ندا »

— تمام . . . حضرتك تعرفه .

— شويه . . . لما تيجى الآنسة فايزة قولها إن محمود العفيفى حضر .

ثم يعود بنفس الطريق والوسيلة التى أتى بها وقد اجتاحته عاصفة مدمرة من الغيرة والغضب . لم ينتظر لحظة ليسألها عن منافسه الذى عرف مكان عملها وزارها . . . وسعى اليها . . . لم يتردد لحظة فى ظنه أنها لا زالت تتأرجح بينه وبين هذا الدكتور . . . ومن يعلم ؟ . . فقد تكون فضلته أو هى فى سبيل ذلك .

ويكون عليه فى الصباح التالى أن يبدأ درسه الثانى مع تلميذته الجديدة، التى تقف أمامه وقد ارتدت فستانا يحدد المعالم الثورية فى جسدها الفاتن

ويبرز الاستدارات الانسيابية المتسقة . تمسك بيدها كراسة صغيرة وبالاخرى قلما تستند طرفه إلى خدها وتغلف هذه اللوحة الرائعة بابتسامه مشعة . ومحمود من ضيقه وما يعانيه لا يلم بهذا الجمال وهذه الفتنة ويقول بصوت جاد كل الجـــد « النهارده حنتكلم عن الجلاديوس »

ولا تعلق رفيعه على عبوسه وتحتفظ بصورتها الخلابة لتحدث تأثيرها فيه . ويستمر محمود « وهى من الأبصال الغالية التى نجحت زراعتها فى مصر بشكل كبير . تستورد أبصالها من هولندة . ولها أسواق تجارية كثيرة فى أوربا » وتقاطعه رفيعة « مش لازم تقطف لى واحدة علشان تشرح عليها » .

ويفعل محمود ما أرادته ويقدم لها واحدة يانعة مثلها وتأخذها منه ثم تسأله « ودى بقى ١٠٥ ولا ١٠٦ ؟ »

ويبتسم محمود قائلا « إنتى لسه فاكرة ؟ »

— طبعا لأنى كنت متوقعه منك إنك تختار لى بوكيه جميل بمناسبة عيد ميلادى .

— أنا فعلا إنفعلت قوى . بس لازم تعذرينى لأنى اهتمامى مركز على المسابقة والجايزة .

— وإنت يعنى ضامنها ؟

— تسعين فى الميه .

— باه . . . ده إنت عظيم الثقة فى نفسك قوى .

ـــ أنا زرت الجناين والمشاتل المنافسة لينا فى المسابقة . اقبعه زرعنا أحسن منهم كتير .

ـــ ومش عيب تتجسس ؟

ـــ ده مش تجسس .. . سميه فضول .. سميه دراسة المنافسين .

ـــ لو كسبنا الجايزة دادى ح يعملك حفلة كبيرة .

ـــ مالوش لزوم .

ـــ ده أبسط تقدير لجهودك .

ـــ الكأس فى حد ذاته أكبر تقدير .

ـــ إيه فايدة إنك تكسب الجايزة من غير ما حد يعرف ؟

ـــ الصحافة ح تكتب وتنشر عن المسابقه .

ـــ لكن أصحابى وصديقاتى مش ح يعرفوا .

ـــ ما يقروا الصحف .

ـــ دول بالكتير يقروا العناوين الكبيرة ، وكان مش ح يرضوا إلا بالحفلة .

ـــ وهى الحفلات سهلة الدرجه دى ؟

ـــ أبدا بتكلف وبتاخد تحضير كتير لكن المهم المجتمع والهيصه والرقص والمرح .

ـــ إعفينى من الحفله دى .. ح أكون غريب بين الموجودين .

ـــ أنا ودادى نعرفك بيهم ، مع كاس يخليك تندمج فيهم بسرعة .

ـــ ما بأشربش .

ـــ أهلك ذى ما بتعلمنى .

ـــ أنا باعلمك حاجة مفيدة .

ـــ وأنا أعلمك المرح والإنطلاق .

ـــ مهما اندمجت معاهم ح يفضل بيني وبينهم حواجز .

ـــ حواجز ؟ .. حواجز ؟

ـــ حواجز زجاجية نشوف بعض لكن تفصل بينا .

ـــ أنا مش فهماك ولا فاهمة الحواجز بتاعتك دى .

ـــ الحواجز موجودة بين الناس وبعضهم فى التقاليـــد والثقافة والتعليم والمستويات الاجتماعية والمعتقدات السياسية .

ـــ واحد متعلم ذيك مش ممكن يقول الكلام ده ولا يفكر فيه .

ـــ الحواجز فى أعماقنا .. نشأنا لقيناها فينا ومعانا .

ـــ طيب مانشيلها ونستريح .

ـــ صعب جدا ، لأنها مش مشكلتنا لوحـــدنا ، دى مشكلة الجيل كله .

وتغيض الإنشراحة والابتسامة من وجهها ويحل مكانها ضيق وزهق وتقول له « أنا مش قادره أفهمك، ساعه أحس بيك قريب مني وفجأة ألاقيك بعيد » .

ـــ آهو ده رد الفعل بتاع الحواجز اللى كلمتك عنها .

ـــ (فى غضب) انت النهارده بتكلمنى بلغة غريبة ... من يومين ما كنتش كده .

ـــ بكلمك بلغه المنطق ... ما نقدرش نوقف عقولنا .

ـــ (بانفعال وضجر) نوقفها شويه .. إذا كانت حتتعبنا .

— ونعيش ازاى ؟

— بشعورنا باحساسنا الصادق .. كل ده مش كنايه ؟

ويتأثر محمود بحرارة كلماتها فيردد متمنيا « ياريت ... ياريت » ويرين عليهما صمت مرهق منهك . هى صامتة تداعب الزهرة التى فى راحتها وهى تتاملها ويتابع كل لفتة وحركة منها . وأخيرا يصدر عنها ما لا يتوقعه أو يتخيله . ترفع الزهرة إلى فمها وتقبلها ثم تقدمها له بكفيها وترفعها ، وكأنها كأس خمر ، إلى فمه . فيميل بوجهه يلثمها فتتولاها رعدة وانتفاضه تسرى إليه تهزه من أخمصه إلى هامته فيقبل راحتيها ورسغها بافتتان . وفجأة تسحب يديها منه ، وتستدير بسرعة جارية فى اتجاه القصر دون أن تعقب بكلمة . وتكتفى بأن تعبر عن نفسها بالتصرف وبالموقف . ويتجمد محمود فى مكانه ومن حوله كل شىء هادىء ساكن لا حركة ولا صوت حتى الأشجار والأوراق والأغصان . . . حتى العصافير تطير طيرانا صامتا .

وفى الصباح يقدم محمود ورقة بموضوع بحثه يقرأها الدكتور سلطان بصوت مسموع « أمراض الجلاويدلاس » ثم يهز رأسه موافقاً على نقاط البحث ، ويلتفت إلى محمود قائلا « مبروك ويوقع على الورقة ... ويردف « تبقى تورينى شغلك أول بأول »

— حاضر

ليالى الربيع دائما جميلة . الليلة يحتفل رفقى بك وابنته ومحمود بجائزة الجلاديولاس . كأس معدنى لامع يعكس اضواء الشموع المحيطة به . يهتز لهيبهـا راقصا يزف الكأس ويحتفى به . وكما يلمع الكأس تلمع عينا رفقى بك ببهجة الفوز وأملا فى مزيد من الدخل والرخاء يبعد عنه غمه المورد الناضب . وتلمع عينا رفيعة وتنتقل بهما بين الكأس ومحمود . وتتجول على صفحة وجهه . ترى فيه البطل الذى ثابر وكد وفاز . وتلمع عينا محمود ببريق النصر فى معركة خاضها بعلمه واصالته الزراعية .

مائدتان لا ثالث لهما وثلاثه جالسون لا رابع لهم . المائدة الأولى عليها الكأس والثانية حفلت بأطيب الأطعمة وأمتع المشروبات .

ويملأ رفقى بك الكؤوس الثلاثة من قنينه جميلة . ويرفع إحداها إلى فمه وتتبعه رفيعه أما محمود فيلزم الفضيلة . وترجوه رفيعه بصوت يذيب كل مقاومة « دى ليلتك وحفلتك . . علشان خاطرى »

— بس أنا عمرى ما . . .

— أول حاجة أطلبها منك ترفضها .

— بس أنا . . . .

وتقدم له الكأس فيقربها إلى أنفه ليشمها ثم يمدها مترددا .

لكنها تدفع يده بها حتى شفتيه ويتجرعها غير مستسيغا مذاقها غير أن الدفء يسرى فى عروقه والنشاط يدب فيه

ويصب رفقى بك صبا ويحتضن الكأس ويقبله بين الحين والآخر فى حنان وافر وتحتج رفيعه « وأنا ح أغير وأزعل » .

— ياحبيبتى مش قادر . . . هو النهارده . . أما إنتى حبيبتى على طول

محمود ـــ حلاوة النجاح تطلق اللسان والعواطف.

رفيعه ـــ طيب وقاعد ساكت ليه ؟

محمود ـــ ظاهريا فقط .

رفقى بك ـــ خد الكاس ... احضنه شويه ... وبوسه كمان... ده بتاعك .

محمود ـــ العفو يا رفقى بك ... انت برضه صرفت وتعبت .

رفيعه ـــ أنا حاسه انى عاوزه أطير ... عاوزه أجرى .

رفقى بك ـــ الدنيا واسعه قدامك ... انفضلى طيرى .

رفيعه ـــ لوحدى .. ؟ تعالوا معايا .

رفقى بك ـــ طيرى انتى ومحمود ... أما أنا مش متحرك من جنب الكاس .

رفيعه ـــ يالله بينا إحنا .

ويسيران جنبا إلى جنب ثم يسرعان الخطى .. ثم يجريان ... ويتوغلان فى الحديقة حتى يلفهما الظلام ... ويلهثان ويمشيان ... ويتقاربان وكلما ازدادت حلكة الظلام كلما التصقت به . وتتلامس الأيدى . ولا يدريان أيهما الأسبق بها للآخر . وتضع رأسها على كتفه العريض وتهمس له « الكاس جسد أملى فيك ... أعصابى هديت .. وقلبى مرتاح . »

ويحيطها محمود بذراعه، وتستمر فى قطرات الهمس « أنا كنت شارده ... تايهة ... ما ليش بكره ... ولا كان يهمنى أعرفه ... دلوقت حاسه بنفسى ... بقى لى أمل ... شاعرة بالسلام والأمان

وترفع عيناها شبه المغمضتين وقدانبلجت شفتاها عن فتحة صغيرة كانت كافية لأن تعصف بمحمود وتذيب حواجزه وتنسيه كل شيء إلا شبابه وهذهالفاتنة اللاذنة بصدره . يفوح منها عبير الأنوثة يحركه ويستدعيه . ويهبط برأسه عليها وتتماس الشفاه فى لين ورقه .. ثم تتطابق فى عنف عارم وشوق حارق ، حتى يجهدهما الوقوف فيجلسان إلى أقرب صخرة وعواطفهما لازالت مشبوبة . القبـــلات وسيلتهما للتعبير . والهمس ترنيمتها المفضلة . وتردد رفيعة « محمود ... محمود » .

ـــ رفيعة .

ـــ لا ... روفى .

ـــ روفى ... إنتِ كنت فين من زمان .

ـــ جنبك .

ـــ كنت دايما بتجرى .. ذى الغزالة الهربانة .

ـــ باهرب من الصياد .. لكن الصياد مسكنى أخيرا .

ـــ بس لإمتى ؟

ـــ على طول ... على طول مش ح أسيبك أبدا ...

ـــ مش معقول .

ـــ ليه ، أنا متأكدة من عواطفى ... ومتأكدة من ســـعادتى معاك .

ـــ مش أحسن نصبر شوية ونفهم بعض أكتر ونختبر عواطفنا .

ـــ أنا متأ كدة من نفسى . مقتنعه بيك شريك عمرى .

ـــ فيه حاجات لازم تعرفيها عنى وعن أهلى قبل ما تقولى الكلام ده.

ـــ أنا عرفاك ومش عاوزه أعرف حاجة أكثر من كده .

ـــ الجواز مش سهل .... لازم تعرفى كل حاجه عن أهلى .

وتضع رفيعة يدها على فمه تحبس كلماته المندفعه منه وتقول « أنا سعيده بيك .... وفرحانه بيك .... ودادى مش ممكن يقولى لا .

ـــ بس لازم تعرفى ....

ـــ (مقاطعة) أنت عاوز تزعلنى فى الليله دى سيب المنطق شوية .

ـــ وتنهض واقفة وتشده من يده تسحبه جــــريا حتى يصلا إلى رفقى بك الذى يقول بلسان متلعثم « إنتم جيتوا .... حبيبى خلاص مش قادر يشرب معاىَّ » مشيرا إلى كأس الجلاديولاس .

رفيعه ـ أنت يادادى شربت كتير خالص .

رفقى بك ـ (متلعثماً) أبدا ... دول ست كاسات لى وستة للجايزه هاها ... هاها ... ها ...

وتهمس رفيعة لمحمود « مش ممكن أكلمه الليلة وهو فى الحالة دى » ثم يجلسان وتملأ رفيعة كأسين تناول محمود أحدهما فيعترض .. لكنها تلح عليه وتصر على أن يشرب قائله « الليلة دى بقت ليلتى أنا ... ولازم تشاركنى كل حاجه » ويشرب ، وتجرى الدماء حارة فى عروقه ويزداد إفتتانا بها وبخطراتها وقبلاتها الخاطفة . وتدير رفيعة راديو صغير على موسيقى راقصه، وتدعوه ليراقصها فيقول لها « ما أعرفش ..

عمرى مارقصت » فتفتح له ذراعيها تدعوه إليها قائله « أعلمك ...
ومن هنا ورايح ح أعلمك حاجات كتيره »

ويقف لا ليرقص ... لكن ليحضن ذلك الخصر الدقيق ويدنو منها ...
لايدرى أين هو ، أين قدميه ... وتتحرك وتشرح له حركات الموسيقى ...
وهو شارد عنها ... شارد بشفتيه على خدها وعنقها وكتفها .... وأى
شىء يطوله منها . وهى تصرخ وتمرح وتداعبه .

يستمر الحفل بين اللهو والضحك والرقص حتى يبدو التعب عليه ويقل
كلامه وتثقل رأسه ويشعر بحاجته إلى النوم ويسأل « الساعة بقيت كام »

وتنظر إلى معصمها ثم تقول ضاحكة « يا إتنين يا تلاتة .... »

محمود ـ لازم أروح ... ده أنا عندى محاضرات بكره .

رفقى بك ـ (متلعثما) اسه بدرى .... يا محمود .

محمود ـ (أكثر متلعثما) لازم أقرا .... المحاضرات وإلا الطلبه
يصفروا لى .

رفقى بك ـ ايه هو أنت برجيت بردو .... هاها ....

محمود ـ (غاضبا) .. لا أنا محمود العفيفى .

رفيعة ـ طيب يا محمود .. السواق يوصلك ..

ويركب وتلوح له رفيعة بيدها البيضاء وهو يكاد بصعوبة أن يهز يده
لها . وتمضى العربة به وقد فتح نافذتها ليتنعش بهواء الليل الرطب ... حتى
تجتاز العربه كوبرى أبو العلا فيطلب من السائق إيقافها ، ويغادرها منضلا
قطع باقى المسافة سيراً على قدميه ليفيق ويذهب عنه ذلك الطنين الداوى
فى رأسه .

ويمشى بخطوات مترنحة ويترنم بأغنية شائعة . وتحمله قدماه دون أن يعى إلى الشارع فضالى أبو الذهب حيث منزله القديم . ويصعد الدرج بصعوبة لا يكاد يتبين من الظلام موطأ قدمه .

ويصل السطح بعد لأى . ويخطو نحو غرفته السابقة ويولج أحد المفاتيح فى بابها فى محاولة لفتحه باصرار من عقله اللاوعى، وكأنه يبحث عن ماضيه. وتحدث محاولاته جلبة توقظ فاطمة ثم أباها وأمها. ويتململ كل فى سريره، ويظن الجميع أنه لص. ثم يسمعون صوت جسم يسقط على الأرض ويندفعون إلى الصالة فى خوف ووجل. ويلحق بهم مختار الذى يقول « ده حرامى نازل بالسجاد فوقع »

ولا تتحمل فاطمة مزيدا ويتغلب حرصها على ممتلكاتها على كل جبن فتندفع إلى الباب تفتحه وتنير السلم . وتشهق شهقة المذهولة وتصيح « ده محمود يا أم . . . الحقينى» وتدب فيهم الحركة ويذهب عنهم شلل الخوف، ويتجمعون برؤسهم فوقه ويحاول مختار أن يشده إلا أن محمودا يظل على حالته ممددا على الدرج ورأسه إلى أسفل فى أغمائه . تقترب منه سنيه ثم تقول « ده باين عليه سكران ريحته خمرة» ويرفعونه حتى يعتدل ويجلس ويردد بصوت متلعثم « أنا فين . . »

سنية ـ عندنا ياخويا . . . عندنا .

ويهم بالنهوض وتخذله قواه ويتساند على مختار وفاطمة هابطا الدرج، ثم يسقط بعد عدة درجات ويتطاول عليهما فى حمية « سيبونى...سيبونى»

سنية ـــ أسكت . . . الجيران تصحى وتفضحنا معاك .

وتتعاون فاطمة ومختار فى رفعه حتى يدخلا به الشقه ويجلسانه على

الأريكه وتقول فاطمة لأمها « عملى شاى وألا قهوه علشان يفوق »

محمود — لا . . . أنا عاوز وسكى .

عم عبد الله — وسكى . . . ده بقى طينه خالص ،

فاطمة — لما ينام ح يفوق .

عبد الله — ينام . . ؟ . . ينام فين ده ؟

فاطمة — فى أودتى وأنا أنام هنا فى الصالة .

ثم تردف القول بالعمل وتمسك محمودا وتقول لأخيها « يالله ياغتار إسنده معاى على أودتى» بينما عم عبد الله فى ذهول بما يجرى أمامه . ويضعانه على السرير . ويخلعان عنه سترته ورباط عنقه وحذاءه . وتأتى سنية بالقهوة وتعلق « معقول الكلام ده . . أنا مخى ح يطير »

فاطمة — يعنى نسيبه يمشى علشان يقع عالسلم ولا فى الشارع . وبعد أن تسقيه فاطمة القهوة يخرجون تاركينه راقدا ممددا لا يدرى شيئاً مما حوله .

تذهب فاطمة إلى أريكه الصالة لتنام . ويهدأ كل من فى البيت على فراشة يستدعى النوم ، إلا فاطمة التى لا يغفو لها جفن بعد أن تحركت كل افكارها وتصاعدت عواطفها فى حدة . وتجتاحها تيارات عنيفة من الاضطراب والحب والشوق والرغبه والحـــيرة . وتتساءل أين كان حتى هذه الساعه ؟ ومن الذى أسقاه خمرا حتى ثمل ؟ وتهتدى بفكرها الأنثوى إلى المحرضة . . . إبنة رفقى بك ولا أحد غيرها . لكنه جاء إليها فى النهاية . . لينام عندها . . ليأوى إليها . أنه يريدها . . ويثلج صدرها تلك الشهوات .

تذهب عنها حيرتها ويبقى الشوق والرغبة وكما يريدها فهى تريده . .

إنه على فراشها وعلى خطوة منها .. تريده لها يستوى أن يتم ذلك جهرا في وثيقة مسجلة، أو فى روابط مستورة من العشق والهوى. ماذا لو ذهبت إليه وأخذته لنفسها ، وفى الصباح يجد نفسه قد صار لها وصارت له . وتبعد عنها شياطينها المعربدة . وتضع الوساده على رأسها تسد أذنيها عن سماع شهيقه وزفيره . تنشد السلام وأنى لها ذلك وهو يتقلب فى فراشها يزوم ويهر ويتمتم بكلمات غير واضحة ..

الجميع نيام وفى سبات عميق. ويفجر هذا السكون آتون شوقها وتتلوى على الأريكة معذبة. ويصدر عن محمود أصواتا غريبة .. أنات أو غصه أو حشرجة . وترتعد وتستوى قاعده .. وتستمر الأصوات الغريبه . وتترك الأريكه ، وتسترق الخطى وتذهب إليه وفى يدها كوب ماء لتنقذه بها، وتقترب منه وتنحنى إليه تناديه وتناجيه بصوت خافت « محمود .. محمود .. » ثم تستيقظه بهزه رقيقه من يدها المرتجفة . يلتفت إليها برأس غير ثابتة قائلا « أنا فين .. أنا فين ؟ » فتهمس له بشدة « هس وطى صوتك » وترفع رأسه بذراعها العارية لتسقيه جرعة ماء . وتتثاقل رأسه على ذراعها فتسندها بصدرها . وما أن يمسها حتى يضطرم كيانها وتشتد ضربات قلبها . وتسقيه الماء بيد مرتعشة وهو ينظر إليها مرددا « أنا فين ؟ »

وتجيبه « هس ... حد يسمعك » وتهم باعادته إلى رقدته لكنه فى صوت متلعثم يسألها « أنا فين ... أنا فين؟» فتضع يدها على فمه تسكته فيمسك بها ويقبلها ويتلمظها ويلعقها . وتتلاشى كل إرادة لمفارقته.

وتزول عنها كل نازعة خوف ويختنق منها كل تفكير فى أبيها وأمها وما يمكن أن يحدث وما يحتمل أن يكون . لم تعد تدرى إلا بذلك الدم الحار يسرى فى عروقها يحرك عواطفها المخزونة وتطلق لها العنان كل العنان . وتسعى إليه عندما يجذبها نحوه وتلاقيه بشفتيها عندما يقترب بفمه منها وتلهث وتنتشى وهو يدعكهما دعكا وحشيا. وتئن أنينا مكتوما وهو يفريهما فريا. وفجأة يطرق سمعها حركة آتية من إحدى الغرف ، وتبتعد عنه فى توتر شديد تنصت بكل جارحة وتكتم أنفاسها اللاهثه ، تتبين الصوت ومصدره ولا تسمع إلا ضربات قلبها . وما عدا ذلك فالسكون شامل والنوم يغشى الجميع . تهدأ وتطمئن بهذا الصمت المشوق وتلتصق به. ويطويهما الظلام فى غلالته المحرقة . تنظر إلى ذلك الراقد جوارها وقد تعرى صدره وظهر شعره وتضع يدها عليه تداعبه ثم ترتاح برأسها عليه وجسدها الساخن ينبض نبضات متتابعه . ويتحرك محمود ويفتح عينيه قليلا لا يدرى من هى . . ويحتضنها ، يضمها إليه وينهل منها نهلا غزيرا وخياله المخمور يخلط عليه تلك الملتحمة به فايزه . . . بفاطمة. . . . برفيعة . الثلاثة معا.

وفى الصباح تكون سنية أول من يستيقظ وتمر بابنتها النائمة فى خدر لذيذ ثم تدخل الغرفة حيث يرقد محمود فلا تجدة وتهرع إلى إبنتها سائلة « فاطمة . . . فاطمة . . . محمود راح فين ؟ »

وتجيبها فاطمه وهى ناعسة والابتسامة تعلو ثغرها « ده خرج على وش الفجر » .

ـــ من غير ما يقول لحد .

وبنفس الصوت الحالم تقول فاطمة « قالى » .

وتهز الأم رأسها بعد أن أدركت سر ابتسامة ابنتها الهانئة وتتقلب فاطمة تولى أمها ظهرها لتعاود نومها الجميل لا تدرى بأمها ولا يهمها أن تدرى .

الشمس تضرب النوافذ فى شدة توقظ النيـــام . لكن رفقى بك لا يزال فى فراشه من أثر حفلة البارحة . وتهل رفيعة نشطة باسمة باءمة وتقبله قبلة الصباح وتقول « إنت شربت كتير قوى إمبارح يا دادى »

— من نفسى مرة ... بقى لى سنين لا شربت ولا ضحكت .

— كنت عاوزة أقولك على موضوع مهم جدا جدا جدا .

— جدا جدا جدا ... اتفضلى جدا .

— خلاص اتفقت أنا ومحمود .

— إيه ... اتفقتم على الحل .

— حل إيه يادادى ... حاجة أحسن .

— إيه ... شركة كبيرة .

— هى شركة ، بس خاصة بينا إحنا الإتنين .

— مش فاهم .

— باختصار إتفقت معاه على الجواز .

وتهز الكلمة رفقى بك ويزيح الغطاء عنه ويغـــادر الفراش ويواجهها « بتقولى إيه ، ... تتجوزى؟» وتجيبه بإيماءة من رأسها .

— (غاضبا) تتجوزى محمود ؟ ... إنتى عارفة هو مين وإبن مين ؟

فتهز رأسها له مرة أخرى .

— محمود فلاح وإبن فلاح ... ما تتغريش بمنظره .

— إحنا اتفقنا ... وما أقدرش أرجع فى كلامى .

ــ ليه الشبان الكويسين انتهوا من البلد ؟

ــ أنا مبالة له ... وانت السبب .

ــ أنا السبب ؟ أنا قلت لك روحى حبيه ؟

ــ أيوه ، انت اللى خلتنى أتباسط معاه وأفهمه ويفهمنى .

ــ أنا قلت خليكى لطيفة معاه واعرفى منه أنواع الورد والزهور.

ــ يا دادى إنت متصور إن العــلاقة بين الناس بتقف عند حد معين ؟

ــ كان لازم تاخدى بالك باستمرار انتى إيه وهو إيه ؟

ــ محمود بأرتاح له . باحس إن حياتى معاه لها معنى ...

ــ أشغله معاى إزاى دلوقتى ؟ بعد الإتفاق بتاعك ده .

ــ وإيه اللى يمنع مش هو اللى جاب لك الكاس وهو اللى يقدر ينفذ مشروعاتك .

ــ مستحيل ... لان معنى كده إنى موافق على الجوازه دى .

ــ وإيه أسباب عدم الموافقة ؟

ــ حسبك ونسبك وأصلك .

ــ أصلى وحسبي ده الماضى اللى أصبح بدون قيمة ... بدون أسهم وعقارات ... لازم أبص للمستقبل .

ــ إنتى يا روفى اللى تقولى الكلام ده ؟

ــ طبعا .. لأنك إنت اللى صحتنى من خيال الماضى وأمجاده الضايعة . ولقيتنى باشوف محمود بصورة جديدة .

ــ أمال تاسو اللى كنتى مشغولة بيه ... نسيتيه .

ــ تاسو كان مرحلة من حياتى وفاتت .

— إعتبرى محمود مرحلة وفاتت ،

— إنت يادادى عاوز تلغى قلبى وتدفن شعورى .

— أبداً . . . أنا عاوزك تفكرى وبشوية مقارنة بينك وبينه ح تقتنعى إن الجوازة دى فاشلة.

— إنس الماضى يادادى . . . الدنيا اتغيرت ومحمود اتغير واحنا كان لازم نتغير .

— التغيير اللى إنتى شايفاه ده سطحى . لسه فيه الفقير والغنى والجاهل والمتعلم وإبن الأصل والواطى .

— بس محمود حاجة تانية ما تبصش له فى عيلته . . . حطه فى الجامعة بين الأساتذة ومع الدكتور سلطان .

— الدكتور سلطان أستاذ كبير ومن عيله كبيرة .

— محمود برضه ح يكبر ويبقى أستاذ كبير .

— إنتى مش عاوزة تفهمى .

— أنا راضية بمحمود وحاسة إن هو اللى ح يسعدنى

— عموما إنتى حرة . . . واعملى اللى عوزاه .

— بس لازم توافق يا دادى

— أوافق بالعافية يعنى ؟

وتقترب منه وتحيطه بذراعها وتقبله « أنا كبرت يا دادى . . . وبافكر كويس ومحمود هو الشخص الوحيد اللى اقتنعت بيه . . . وممكن اعتمد عليه ويريحنى » وينظر إليها متشككا ثم يقول « أنا ح أوافق على فكرة الخطوبة » وتقبله رفيعة مهلله « مرسى . . . مرسى قوى يا دادى » .

ــ بس لى شرطين ...

وتجفل قليلا عند سماعها ذلك وتقول « إيه هم ؟ »

ــ الأول إعلان الخطوبة يكون بعد إفتتاح المحل .

ــ موافقة .

ــ والتانى فترة الخطوبة تكون طويلة علشان تفهموا بعض كويس .

ــ مرسى يا دادى ... يا أجمل دادى فى الدنيا .

وتقبله ثم تدير رأسه إليها وتنظر فى عينيه قائلة «بس أوعى ياوادى تعامله وحش ولا تزعله منك » .

ــ تأكدى إنى لازم أعامله كويس .. على الأقل علشان يشتغل بهمة معاىَّ .

ــ (بدهشة لهذا التفكير) ... مرسى .

الفصل العاشر

إلى أين؟ . . . بعدما ؟

— ٤٦ —

منذ تلك الليلة الليلاء ومحمود بادى الندم ، مثقل الضمير فى دوامة التأنيب . تدميه حيرته بين تأثيم نفسه واستبرائها . فما سعى إليها وما غوى . لكن هى التى جاءته على غير وعى منه ودلفت إليـــه وهو مخمور وإجتاحته بعواطفها العاتية . وما رغب أن يتردى وما أراد أن ينزلق . بل وكثيراً ما انتصر على نفسه معها وأفلت من أعاصير حبها الجارف حتى كانت تلك الليلة .

أفاق فاذا بها بين أحضانه نائمة على ذراعه نوم البريئة . وهيء له أنه حالم حتى حركت ساقها العارية تؤكد الحقيقة العارية . ولمح على نور الفجر الخافت ابتسامتها الخفيفة تعلن له أنها بلغت مأربهـــا وأحكمت نطاقها حوله ، وتسربت إلى كيانه واستولت عليه من الداخل حتى طبع بصمات جسده عليها .

لايذكر كيف ارتدى ملابسه ولا ما قاله لها وهو يغادرها هاربا ولا كيف عاد إلى غرفته ولجأ إليها ليناقش نفسه ويستعيد ما حدث له معها . . .

وإذا كانت غرفته منحته الهدوء بضع ساعات فقد أصبحت الكلية الملاذ والملجأ . يغرق فيها بين الأوراق والكتب والمحاضرات والمعمل

ينغمس فيما يقرأ بأكثر مما يطيقه ذهنه . يدون ويسجل ما يرتبط ببحثه عن الجلاديولاس . وأحيانا يذهب إلى المعمـــل يفحص قطاعات الأوراق والسوق واللحاء والجذور تحت المكبر . يراقب ويضاهى خلاياها ويدرس أشكالها وألوانها . وأحيانا يلاحظ بعض الفطريات والميكروبات . يرى حركتها ونموها وإنقسامها وتكاثرها السريع فى سبيل الحياة والبقاء أو تقوقعها المثير، تدرأ عن نفسها عوامل فنائها . يرى فيها حركة الحياة وتداعى الفناء . أبسط المخلوقات أنشطها دأباً للحياة .

لـكن فاطمه لا تتحمل غيابه تلك الأيام واختفاءه هذه المـــدة . وتتوجس خيفة من هروبه فتشتد فى تعقبه وتجهد نفسها فى تتبعه . لـكنها لا تعثر عليه ، ولا تلقاه أبدا. وتلحظ الأم ابنتها وشقوتها فتدلق «مش قلت لك ونصحتك . . . ده ذى ابن عمه »

— . . . .

— لا منه فايدة ولا عايدة .

— . . . .

— مش بتقولى السجاد بقى فى دمك .

— . . . .

— آهو جالك صاحب السجاد كله لغاية رجليكى .

— . . . .

— نص المصنع حد يطول .

— (فى حـــدة بالغة) أدى له الأربع أنوال وأشغل المصنع ويتجوزنى كان علشان نص المصنع .

ـ النهارده نصه بكره كله يبقى بتاعنا ...

ـ أنا رايحه لمحمود ... ولازم أرسى معاه على بر الليلة .

ولا تذهب إلا وفق تدبير محكم . تجهز طعاما شهيـــا مستطابا .
وتتزين كما يحبها إن تتزين وتمنح العجوز مبلغا لتذهب إلى أحد المسارح .
وتطالبها أن تتغيب لأطول مدة ممكنة وإن استطاعت تبيت بالخارج .

يصل الفارس الهارب والأمل العازف ... ويفاجأ بها ويتجمد في مكانه خلف الباب ... لا هو قادر أن يقبل عليها .. أو أن يدبر ويفلت . أحيط به ... وحوصر . ويهمهم ويزمجر ويهر كما يهر القط الغاضب . وهي واقفة وقد فرشت على ثغرها ابتسامةمغرية . وأرسلت إليه نظرات هائمة ، وتتأمله بشغف ووله . ويتمعن فيها بدوره ، وبعينين زائغة قلقة وفكر حائر وانفاس مضطربه وصوت نازع يكشف عن خفايا نفسه الرافضة المتمرده ... ويسقطنظره على المائدةالمحملةبأطيب الأطعمة ... أرز ... لحم .. دجاج ... لحم ... لحم ...ثم ها هي واقفة ... وقد كشفت عن نحرها وذراعيها وصدرها ... والأخدود العميق... أسخى عرى وأبذل عرض...وتسكون صورتها والمائدة نهاية تماسكه وخاتمه صمته . وتعصف بعقله حالة من الرفض والتمرد...فيصيح بلا وعى « لا ... لا ... لا »

وتتعجب فاطمة وتسأله بصوت منزعج « مالك يا محمود ... إنت تعبان » وتقترب منه لتهدئه فيزداد صياحا « ابعدى عنى ... إبعدى عنى» وتقف فاطمة حيث هي مرتاعة خائفة « أنا فاطمة .. أنا فاطمة يا محمود أنا حبيبتك ... »

ـــ انتى مش حبيبتى ... إنتى عاوزانى .. عاوزه تتملكينى ذى الأنوال والسجاد .

ـــ أنا يا محمود ... ده أنا مستعدة أديك روحى واللى حياتى .

ـــ أنا فاهمك ... وفاهم حركاتك دى ... أربع سنين بتلفى علىّ .

ـــ أنا يا محمود أعمل كده ؟ أنا صابرة ومستنية علشانك .

ـــ تستنينى ليه ... سكتى غير سكتك ... طريقى غير طريقك ... سيبينى فى حالى وابعدى عنى .

ـــ بعد السنين دى كلها جاى تقولى الكلام ده .

ـــ فقت وعرفتك على أصلك .. ح تشترينى بأكلة ولا بليلة .

ـــ إشتريك .. إنت يا محمود تعبان ؟.. حد وزك من ناحيتى ؟

ـــ كنت سكران ... إنتى اللى جيتى لحد عندى ... عاوزة تعيدى الحكاية تانى ... تربطينى بيكى ... إمشى ... إمشى اطلعى بره ... بره .

وبعلو صياحه ويزداد هياجه وهو يندفع نحوها يصرخ « بره .. بره » وتخاف فاطمه وتفزع وتجرى حول المائدة وهو يلاحقها فى حركات تشنجية حتى تنفذ من الباب وتخرج وتولى هاربة تكاد تقفز السلم قفزا . ويرتمى محمود على الكرسى يلهث فى انفعال شديد .

لا تستطيع فاطمة أن تواجه أمها بحالتها اليائسة الموجعة . وتصعد إلى غرفة السطح تبكى فى مرارة وحسرة أملها الضائع وحبها الغارب . وتواجه الأنوال التى ما فكرت فيها إلا بسببه ، وما تحمست لها إلا لتلحق به ، وترقى إليه ، ليرضى بها شكلا وموضوعا . إنه ذهب وضاع . وبقيت الأنوال والسجاد ... وتضع يدها عليها تتحسسها .. وتستشعر

سطحها الناعم وكأنها تتواسى بها فى محنتها . وتربت عليها . . . فتجد بعض الخيوط متراخية . وبحركة لا شعورية تأتى بالمشط الحديدى تضرب به السجادة حتى تنضم خيوطها . تضربها بعنف غاضب .

وتسمع خطوات أمها صاعدة ، فتمسح آثار دموعها . تريد أن تبـــدو أمامها قوية متجالدة . . . وتسألها الأم « إيه اللى جابك قوام كده ؟ »

— . . . . . .

ـ أنا كنت عارفه آخرة جريك وراه ؟

— . . . . . .

— ده ذى القطط تا كل من صاحبها وتخربشه .

— . . . . . .

— ماله الحاج صديق . . . راجل مليان ومبسوط .

— . . . . . .

— ح يكتب لك نص المصنع وكان خمسميت جنيه مهر ويجهزك من عنده .

— . . . . . .

— قلتى إيه ؟ . . . إهدى واعقلى .

— . . . . . .

— لو كان له غرض فيكى كان اتقدم لك من زمان . . . لـكن ما تمرش فيه .

— . . . . . .

— قلتى إيه بقى ؟

ولا تتفوه فاطمة بكلمة ولكن تزداد ضرباتها بالمشط على السجادة تضم خيوطها المتباعده ويدها صاعدة هابطـــة فى قوة وتصميم . ثم تتحسس سطحها الأملس بهدوء وتروى ، وكأنها تتلمس طريقها إلى حياة جديده .

— ٤٧ —

ذهبت فاطمة وانحسرت عنه أمواجها العاتيه، لكنه لايزال يعانى من أحداثها معه . لايزال يتألم ليس بسبب القطيعة بقدر ما هو بسبب القسوة التى عاملها بها والفظاظة التى طاردها بها . يلوم نفسه على شططه وكان الأجدر أن يتحمل اقبالها بصبر طويل حتى يدركها اليأس فتبعد عنه باختيارها . ولا يكون هو القاطع الباتر ... هكذا يظن ويفكر . لكنها كانت تنمى فيه حاجته اليها ورغبته فيها حتى وصلت به إلى نقطة المنتهى . وكادت أن تتملك ناصيته وتربطه بها وهذا ما يخشاه منها .

ما رفضها لذاتها . لكن رفض فيها طاقتها الجاذبة . تشده إلى فلكها ليدور فيه دورانا أبديا . وما خافها لكن خاف قدرتها الاستحوازية ونزعتها التملكية ، فكانت غضبته وثورته .

وهو ان أعطى لنفسه بعض العذر فيما بدر منه فانه لم يستطع أن أن يتناسى حدبها وعطفها ورعايتها له وسهرها على راحته ... ومن هنا كان لومه لنفسه ... ومن ثم كانت معاناته .

ويزداد التصاقا بعمله وبحثه ، ولا يجد فى نفسه رغبة فى الذهاب إلى

رفقى بك أو مقابلة رفيعة، فهو يشعر فى قرارة نفسه أنها مسئولة ضمناً عن إثارة انفعالاته وتحريك عواطفه التى فاضت بمجرد أن لامسته فاطمه .

ويستدعيه د . سلطان ويسأله : عامل إيه فى بحثك ؟

ـــ بجمع فيه لسه.

ـــ لازم تضمن بحثك أمراض الجلاديولاس فى فـــترة تخزين الأبصـــال .

ـــ دى إضافة جديدة ؟

ـــ بس ضرورية للبحث ... وبالمناسبه عملت إيه فى الصور ؟

ـــ ميعادى أجيبها من المركز القومى الأسبوع القادم .

وتذكره كلمات د . سلطان بموضوع الجلاديولاس وحاجته إلى بعض البيانات من حديقة القصر . وبالتالى يتذكر آخر مقابلة له مع رفيعة ، وما دار فيها من تصريحات ووعود حول الزواج، ومداعبات وغراميات بين الكأس والراح . ويشك فى جدية الوعد والاتفاق ويرتاب فى صدق نية رفيعة. ويأول الأمر كله على أنه هزل جاء عفو لحظته . ومهما كان الأمر هزل أم جد فإن عليه لأصحاب القصر عملا ينجزه وله فيها عمل يتعلق ببحثه عن الجلاديولاس .

ويذهب ويقابله رفقى بك « انت فينك يا محمود .. . تجار الزهور جم علشان يشتروا الانتاج بتاعى »

وينظر إلى رفيعة فيجدها تتجاهله وتكاد لا تشعر بوجوده . ويرتد إلى رفقى بك سائلا « وعملت إيه معاهم ؟ »

ـــ مفيش حاجة، مستنى آخد رأيك فى اللى نبيعه واللى نخليه تقاوى.

ــ نقدر نبيع كل أحواض الجلاديولاس ما عدا الحوض الرابع نخليه للابدال .

ــ واحد منهم عرض علىّ مائه وخمسين جنيه للجلاديولاس .

ــ سعر قليل قوى ... يعنى عاوز يشترى العود بقرش .. . وانتاجنا ينفع للتصدير وسعر التصدير شلن للعود .

ــ ياه .. يعنى العود يكسب أربعة قروش .

وتؤخذ رفيعه بحديث الأرقام فتقول «أربعة صاغ فى العود الواحد !!»

محمود ــ بعد خصم تكاليف التعبئة والنقل .

رفيعة ــ يعنى شغلانة التصدير مربحة .

رفقى بك ــ جدا جدا .. أكثر من اللى ح نكسبه احنا أصحاب الحاجة .

محمود ــ حد عرض تمن للنرجس والأميريللس والورد ؟

رفقى بك ــ إتفرجوا عليها بس .

محمود ــ من رأى نبيعها كلها .. ما تنفعش للبذور ولا للابصال والسنه اللى جاية نشترى أو نستورد أصناف جديدة .

رفقى بك ــ وسعر البيع كام تقريبا ؟

محمود ــ ما عنديش فكرة .. أنزل السوق وأعرف .

رفقى بك ــ لازم الليلة علشان يمكن حد يجى يشترى بكره .

محمود ــ طيب انزل قبل المحلات ما تقفل .

رفقى بك ــ روفى كانت نازلة تشترى شوية حاجات .. انزل معاها بس لازم تعرف الأسعار الليلة

محمود ــ إن شاء الله

ويجلس إلى جوارها وهى تقود العربة وتحاول اجتياز حاجز الصمت بينهما فيقول «أنا متأسف .. كان لازم آجى من مدة لكن ماقدرتش ... وبصراحة لا كنت مشغول ولا عيان ... كنت بأفكر فى الاتفاق اللى تم بيننا .. وشايف إن إحنا تسرعنا شوية .»

ــ أنا قلت لدادى ... ووافق خلاص .

ــ انتى متأكدة من شعورك ومن نفسك ؟

ــ انت لسه عندك شك ؟

ــ المسافة الكبيرة اللى بيننا بتخلينى محتار .

ــ لازم يكون عندك ثقه بنفسك .

ــ وكان لازم أبص فى مستواى .

وتجتاح رفيعة نوبة غضب فتوقف العربة إلى جانب الطريق ثم تلتفت إليه «انت دايما مطلعنى فوق »

ــ لأن دى الحقيقة .

ــ أبدا إحنا بينا ميول مشتركة واهداف مشتركة .

ــ الميول والأهداف المشتركة ما تلغيش المسافات اللى بينا .

ــ اللى بينا أقوى من المسافات والمعادلات بتاعتك .

ــ أنا فهمت دادى، وأقنعته وقلت له إنى اتغيرت وبقيت حاجة ثانية

ــ بقيت حاجة ثانية ؟ ؟

ــ ايوه تفكيرى اتغير ... أهدافى اتغيرت وقيمى اتغيرت ولو فيه اختلاف بينا فهو شكلى والزمن كفيل إنه يضيعه .

ــ فعلا الزمن كفيل إنه يلاشى الخلافات والفروق، لكن ح نتعب ويمكن ما تتحملش التجربه .

ـــ ليه تفترض النتيجه دى ؟

ـــ نظرتنا للحياة مختلفة . طريقة التفكير مختلفة . العادات مختلفة . لازم يحصل صدام ... وزعل ونشوز ...

ـــ الكلام ده بيحصل فى كل بيت وفى كل جواز لكن بالحب تنتهى كل المشاكل .

ـــ واللى بينا ده حب ولا مجرد شروع فى الحب ؟

ـــ لسه مش عارف ؟ لسه مش قادر تحس ؟ الظاهر انى كنت حسنة الظن بنفسى أكثر من اللازم .

وتغرورق عيناها بدموع القهر والعجز . وتفعل دموعها فيه فعل السحر فيشعر بالحنين وتأخذه الشفقة بتلك الفاتنة الباكية ذات الكبرياء وعزة النفس . ويقترب منها يتأمل ضعفها الجميل على صفحة وجهها الحزين ... ثم يخرج منديله يمسح دموعها وتلفت رأسها بعيدا عنه تدارى أشجانها ... لكنه يتابعها ... ويعبر لها عن أسفه « سامحينى يا رفيعة ... أنا عذبتك معاى ، ويربت على رأسها ويمسح شعرها الناعم ، « أنا محتار ياروفى ... خايف أكون باجرى ورى أمل بعيد » .

وتستدير إليه « ليه اليأس والدنيا واسعة وحلوة والأمل قدامك قريب منك ، وينظر إلى عينها ويردد « فعلا .. الدنيا واسعة وحلوة . » ويمسك يدها يهدهدها بين راحتيه ، وهى تنهد تنهيده حارة تخرج بها معاناتها ، بينما حركة إناملة المرتجفة تعزف على يدها الرخصة افتتاحية لمعزوفة غرامية صاخبة .

القصر مزدحم ذهب عنه المظهر الهادىء وشملته حركة وصخب .
الوجوه جديده غريبة وجوه تدخل القصر لأول مرة . أصوات وضجج
ونداءات . خليط من تجار الزهور . لا تربطهم رابطة إلا الورد والزهور .
يحولون أجمل ما يخرج من الأرض ، إلى جنيهات ... مئات ...
وألوف ، لا طعم ولا رائحة لها إلا لدى أصحابها .

اليوم يوم المزاد الذى اقترحه محمود بعد الفشل فى بيع نتاج الحديقة
بثمن مقبول . التجار منتشرون فى كل أرجاء الحديقة . يفحصون ويقيمون
ما بالحديقة . تظهر بينهم سيده ضخمه فى ملابس سوداء تبدو عليها القوة
والسطوة . يقترب منها أحدهم ويقول « إيه رأيك ياحاجة زاهية ؟ »

— ممكن نتفاهم وكل حاجة تمشى عال .

— بأقول كده برضه .

— طيب روح إتفق مع الحاج سرور والمعلم صالح .

وفى الشرفه يقف الثلاثة يراقبون هذا الجمع النشط المبعثر هنا وهناك .
حيث كل معنى بأمره . ويعبر رفقى بك عن خوفه «أنا مش مرتاح للمزاد ده»

رفيعة — ليه يادادى ؟

رفقى بك — كنا بعنا وخلصنا .

ويلاحظ محمود تحلق التجار فى جماعات صغيره بعد تشتتهم ويقول :
« شوفى يارفيعه إتلموا إزاى »

رفيعة — بيتشاوروا دول ولا إيه ؟

رفقى بك ــ (بانزعاج) دول بيتفقوا علينا وعلى السعر .. إيه العمل دلوقت ؟

رفيعة ــ نأجل المزاد .

محمود ــ مش ممكن . الزهور لو استنت أكثر من كده تنشف .

رفقى بك ــ وإيه العمل وهم عارفين إن إحنا لازم نبيع ؟

رفيعة ــ (قافزة إلى أعلا) عندى فكره . . . أكلم أنكل حمدى يجى ومعاه فتحى وكمال ويدخلوا المزاد يرفعوا الأسعار شوية .

رفقى بك ــ فكره مش بطاله . . . بس إياك تنلح .

وبين حلقات الدخان الذى تنفثه تتطلع رفيعة بين فترة وأخرى إلى الباب . ترقب قدوم المنقذين ، بينما جماعات التجار تتقاسم الغنيمه بين صيحات المساوامات . ويشتد الجدل والنقاش . وتلوح بوادر منازعات تهدد مخطط الاتفاق . ويتكفل البعض بارضاء الساخطين بمعسول الكلام والأوراق المالية . وكلما أبرمت الاتفاقات كلما إزداد هلع رفقى بك ويشتد قلق رفيعة . تشعل السيجارة تلو الأخرى حتى يقبل المنقذون فتهجم تقبل أباها مرة ومحمودا أخرى وهى تقول « آهم جم .. جم يادادى »

وتقابلهم رفيعة بعيدا عن أعين التجار وتشرح لهم الدور التمثيلى المكلفين به والأسعار التى يساومون ويزايدون عليها . وتتركهم ليندسوا بين التجار الذين يغلب عليهم التساؤل والحيرة لرؤياهم .

يعلن الدلال المزاد « ست أحواض جلاديوس حسب المعاينه نبتدى عليهم المزاد »

تاجر ــ ١٥٠ جنيه

آخر ـــ ١٦٠ جنيه

ثالث ـــ ١٧٠ جنيه

حمدى ـــ ١٨٠ جنيه

فتحى ـــ ٢٠٠ جنيه

تاجر ـــ ٢١٠ جنيه

كمال ـــ ٢٣٠ جنيه

فتحى ـــ ٢٤٠ جنيه

تاجر ـــ ٢٥٠ جنيه

الدلال ـــ ٢٥٠ جنيه .. ٢٥٠ .. مفيش حد يخش .. مفيش حد يزود .... ٢٥٠ جنيه ومبروك يامعلم .

ويتقدم التاجر ويخرج من جلبابه أوراقا نقدية كثيرة ليدفع مقدم الثمن . ويكثر التهامس ويتحول إلى صيحات احتجاج ويقول أحدهم « بقى ده الاتفاق يامعلم ترك ؟ »

المعلم ترك ـــ أعمل إيه لقيتك وقفت على مايه وسبعين ومش راضى تخش ... أسيبها للافنديه يلهفوها منا ؟

وتتدخل الحاجة زاهية « اسمع يا معلم ترك تتقاسم مع الحاج زغلول

المعلم ترك ـــ هو أنا يعنى منعته يا حاجة ؟

الحاجة زاهية ـــ (بلهجة حاسمة) قاسمه يا معلم واحنا نعوضك بكرة فى مزاد مشتل القناطر .. إيه رأيك ؟

المعلم ترك ـــ ماشى كلامك يا حاجة

ويصيح الدلال « نبتدى المزاد الامريلاس والنرجس من ح يخشن؟ »

ويستمر المزاد ومعه الصراع ويرتفع الثمن وتفيض السعادة على

رفقى بك ورفيعة . ومحمود يشاهد ما يدور أمامه بإمعان . ومن حين وآخر يتأمل رفيعة التى تتابع المزاد بكل جارحه من جوارحها ، تنسيها نفسها ورشاقتها . تقفز حينا وتصرخ حينا آخر أو تضع يدها المتوترة على فمها عندماتهبط الاثمان عما قدروا لها . وتبدو لمحمود فى صورة جديدة تحت سيطرة دوافع غريبة تعطيها شكلا لم يعهدها به من قبل .

تطلب الحاجة زاهية إيقاف المزاد بعض الوقت بعد أن اشعلته المنافسة ، وتذهب إلى الثلاثة الدخلاء ، اتعرض عليهم مائة جنيه ليتركوا المزاد ويرفض حمدى . فترفع المبلغ إلى مائة وخمسين ثم إلى مائتين ، فيقبل الإنسحاب مع زميليه من المزاد ، الذى يستمر بعد ذلك هادئا دون منافسة أو صخب .

وينتهى المزاد باكثر مما كان يأمل رفقى بك . ويدعو زواره إلى تناول الغذاء معه . وفى الطريق إلى صالة المائدة ، تتعلق رفيعة بذراع محمود فرحة جذلة باحكام تدبيرها معجبة بنفسها وبتفكيرها وينظر اليها رفقى باك متباهيا بتلك العبقرية الصغيرة

يجلسون حول المائدةالتى صفت عليها أنواع من الصحائف والأطباق وأدوات الطعام بكثرة أربكت محمود . شىء لم يره ولم يعتده . بل أن رهبته هنا أشد وطأة عليه من اول لقاء مع الطلبة . ويحصى السكاكين والمعالق والأشواك المصفوفة أمامه ويتساءل فى نفسه لماذا كل تلك الأدوات ؟ ولماذا كل هذا الإسراف والتعقيد ؟

يدور الخادم باصناف الطعام ولسوء حظ محمود كانت من الأسماك متعددة الأشكال والطهى والتجهيز . ورفيعة إلى جواره تحثه ليأكل

وهو خائف حائر من طريقة معاملة هذه الأنواع من الأطعمه . ويرقبها خفية ليقلدها فى استخدام الأدوات التى أمامه بطريقة صحيحة مثلها .

وتتحدث رفيعة عن نفسها « ايه رأيك يا دادى فى النهارة ؟ »

رفقى بك — إنتى الابريمو النهارده .

حمدى — فى الحقيقة كانت فكره هايلة .

حديث لا يشترك فيه محمود ، المشتبك مع قطعة سمك وكأنها لا زالت حية تلعب فى الماء ، وهو يحاول اصطيادها ، ويفشل معها. تحاوره وتفلت منه ، وهو يتابعها بأدوات المائدة وأسلحتها دون جدوى . وتصدر منه حركات شاذه . ويقبض على الشوكه وكأنه مثال يحفر قطعة من الخشب يطوعها الفنه . وتستلفت تلك الحركات نظر رفقى بك فينبه أبنته وهو يتمعض متأوف الى حيث فارسها . تسارع رفيعة لإنقاذه من ورطته . تأمر الخادم برفع الطبق وتنتقى له شريحه سهلة القطع والقضم وتسرى عنه قائلة « حد ياخد الذيل ... ؟ »

محمود — آهو اللى طلع فى الشوكه .

رفيعة — لاتأكل ديل السمكة ولا رأسها... دول بيتحطوا فى السرفيس ديكور بس .

ويبادلها محمود الابتسام شاكراً ومقدراً ويزداد حرصه فيما يتناوله من أطعمة . يرفض معظمها ويتردد ازاء الباقى حتى انتهاء الوليمه .

وترفع المائدة وينتقلون إلى الصالون وينتحى محمود ورفيعة مكانا قصيا .

وتعبر رفيعة عن سعادتها « أنا مبسوط النهارده جداً »

— طبعاً لولا فكرتك كان التجار اشترو بالتمن اللى عاوزينه .

ــ تصور دادى كان راضى بتمنميت جنيه والمزاد وصلنا لألف وتلتمايه .

ــ فعلا،حاجة غير متوقعة.

ــ بس أنا كنت نرفيز خالص .

ــ ماتاخدى مهدى للأعصاب .

ــ دلوقتى بقيت كويسه ... المكسب هدى أعصابى .

ــ ألف جنيه مكسب صافى ... حاجة كويسة جداً .

ــ يبقى دادى معاه حق نزرع الجنينة كلها ... وكان المحل مهم قوى .. عاوزه افتحه قبل رأس السنة .

ــ أهم حاجة تدورى على محل كبير فى شارع تجارى ..

ــ أهم من ده كله ... الحفلة .... حفلة الافتتاح .

ــ ضرورى يعنى ؟

ــ مش عاوزنى أحتفل بمحل عليه اسمى .

ويلاحظان تحرك الضيوف منصرفين فيقول محمود « دول خلاص مروحين أمشى أنا كمان ... اروفوار روفى ... »

ودون أن تنهض تقول« أرفوار لازم معاها حاجة هنا » ثم تشير الى خدها . فيقبلها حيث أشارت ويهمس « اروفوار روفى »

تجيب تحيته وهى ترمقه بنظرة إعجاب « اروفوار »

— ٤٩ —

يعبر محمود ممرات الحديقة بخطى ثابتة حثيثه ويتجه رأسا إلى السلم يرقاه نشطا خفيفا ويدلف إلى البهو الكبير حيث اعتاد ان يجد رفيعة فى انتظاره

يجالسها ويحادثها قبل أن يبدأ عمله بالحديقة .
ومع ذيوع نبأ خطبته يقابله الخدم بانحناءة أكثر انخفاضا وابتسامة أكثر ترحيبا. وتعلنه الخادم « الست منتظراك فى أودتها » . ويذهب إليها ويطرق الباب طرقا خفيفا ويسمع صوتها تدعوه للدخول . ويراها وقد أعدت نفسها للخروج ويحيها طابعا على خدها قبله سريعة « بنجور روفى »

ـــ بنجور مودى

ـــ إيه بقى مودى دى

ـــ تعرف انى سهرت طول الليـــل أفكر لك فى اسم مودرن أيه رأيك فيه ؟ ... مش ميوزيكال (موسيقى)

ـــ بس أوعى تنادينى بيه قدام حد ... أحسن ينتشر ويوصل الكلية ويفضل ده ى الغاية ما ابقى أستاذ رئيس قسم .

ـــ انت لسه بتفكر فى الحاجات دى . خليك واقعى . دى بيعة زهور واحدة بماهية استاذ لمدة سنة

ـــ خليكى فى تجارتك .. وأنا مبسوط بالعلم مع الفقر .

ـــ ح نروح سوى ندور على محل تأجره ، أصل دادى تعبان .

ـــ بس أنا كنت ناوى اشتغل فى الجنينة شوية .

ـــ بلاش النهاردة .

ويخرجان يطوفان على السيارة بحثا عن المحلات الشاغرة أو المنتظر أن تخلو فى الشوارع الهامة .

ويستقر رأيها على محل بالزمالك تتوفر فيه الشروط ، ويعودان إلى القصر وقدنال منهما التعب وانهكهما السير . وتخلع رفيعة حذاءها تتركه على

الدرج وتصعد عارية القدمين تتسند على محمـــود فى تأود فتاك .
ويدخلان غرفة رفقى بك الذى يهلل ضاحكا لرؤية ابنته « إيه يا روفى محمود تعبك ؟ »

محمود ـــ أبدا .. ده أنا مظلوم ... هى اللى فضلت تلف لغاية ما لقينا حاجة مناسبة .

رفيعه ـــ (بحماس) شفت محل هايل فى الزمالك بس عاوز ألفين جنيه خلو .

رفقى بك ـــ (بانزعاج) لا .. ده كتير قوى .

رفيعة ـــ لكن فى الآخر رضى بألف وخمسماية .. ألف فى الأول وخمسماية بعد ست شهور .

رفقى بك ـــ برضه كتير .

رفيعة ـــ مفيش غيره اللى عجبى .

محمود ـــ أنا نازل أشوف الجنينة شوية .

وبعد أن يخرج تجلس رفيعة إلى جوار أبيها على فراشه وتســـأله « مبسوط منى يا دادى ؟ »

ـــ جدا .. بتفكرينى بنفسى أيام العز .

ـــ ومبسوط من محمود ؟

ـــ من شغله وبس .

ـــ طيب مش لازم تكافؤه على مجهوده .

ـــ (بضجر) ما هو بياخد عشرين جنيه كل شهر قد اللى بيقبضها من الكلية .

ـــ مش كفاية ... خصوصا إنه لازم يشترى هدوم جديدة .

ـــ يعنى مش عاجبك شكله ؟

ـــ عاجبنى ... لكن عاوزه أعرفه بأصحابى ولازم مظهره يبقى أحسن .

ـــ علشان خاطرك أديله خمسين جنيه .

ـــ يعملوا إيه ... يدوبك بدله وكام قميص .. مش أقل من ميه

ـــ حاضر ...

وتقبله قائلة « مرسى يا دادى » .

ومع وجود محمود المستمر فى مبنى القصر تتعدد لقاءاته لأصدقاء رفيعة . لكنه لا يستسيغ لهوهم أو جدهم . وتحاول رفيعة أن تشكل منهم صحبة متجانسة لكنها لسبب وآخر تفشل . بل إن محمودا إذا وجدهم ران عليه الصمت . لا يتكلم ولا ينبس . إذا تجادلوا صدمته أفكارهم ومثلهم . وإذا دعوه إلى لهوهم اعتذر وتذرع بعمله فى الحديقة أو بكتاب يقرأه .

ويصبح الكتاب رفيقه وحجته، يستنجد به إذا لزم الأمر . يكاد لا يرى إلا وهو متأبطا واحدا أو اثنين .

وتهتز صورة رفيعة فى خياله إذا كانت بين أترابها وأصحابها ، فهى إنسان آخر، وإذا خلت له بدت قريبة له محببة إلى نفسه . وتقلقه هذه المفارقات ويحاول أن يجد لها تفسيرا . ويؤول الأمر على أنه شعور بالغربة بين هؤلاء الناس أو لأنه يريدها خالصة له أو لأنه اعتاد الوحدة ولا يطيق الصحبة .

ويدرك أن عليه أن ينتشلها من أصحابها وصاحباتها ويخرجها من خلقتهم ... ثم يطوعها لأفكاره ويوجهها إلى قيم جديده ومفاهيم سليمة عن الحياة . وأن يستحدث لها عادات جديدة تطـــرد بها عادتها المرذولة .

ومن ناحية أخرى فان رفيعة تعلم أن عليها أن توائم بين محمود وأصداقائها فهى تميل إليهم وتودهم بحكم لشأتها . نهجت منهجهم فى الحياة فكان التوافق والتجانس فى السلوك والمزاج . وهى أيضاً تحب محمودا ومقتنعة به وبضرورته لها فى مشروعاتها الرعمية . كل يحاول أن يجذب الآخر إلى أفقه .

يدخل محمود الصالة كما اعتاد ، ويجد رفيعة جالسة أمام مائدة صغيره وحولها شابان وفتاة . الصمت يحيط بهم . عيونهم معلقة بأوراق اللعب . لا يسمع لهم حس ولا همس . ويقترب منها محمود وقد تأبط كتبه . ثم يحيها « بونسوار روفي » .

وترد تحيته برأسها دون أن تلتفت إليه لشدة انهماكها فى الأوراق التى بيدها . ويبتعد محمود إلى ركن بعيد يتأمل هؤلاء اللاعبين ذوى الأعصـــاب المشدودة والأصابع المرتجفة . يمارسون لذة الانفعال ولذة الصراع ، وفرحة الانتصار ومرارة الفشل .

وبعد هذه النظرة المعمنة . يلتفت إلى الكتب الثلاثة التى احضرها لتقرأها رفيعة . الأول عن نباتات الزينه ، والثانى عن فن الديكور ، والثالث عن أصول البيع والتسويق . يرمق هذه الكتب بشك كبير

فى أن تكافح كوسائل بديلة تصرف رفيعة عن مسارها وأهوائها .

ويفيق محمود من أفكاره على أصواتهم التى علت فجأة بعد صمت طويل . يحصون الأرقام ويحسبون المكسب والخســـارة ثم يرى الأيادى تخرج نقودا وأخرى تتسلمها فى تصفيه نهائيه لجهد ساعات طوال من اللهو الفارغ .

وتتجه إليه رفيعة وقد غلفت وجهها بابتسامة محاولة اخفاء ضيقها بخسارتها . وينهض يستقبلها ويطبع على خدها القبلة المعتادة ويقول « شكلك تعبان قوى »

— البريدج يهلك الدماغ والأعصاب

— ولازمته ايه ؟

— وأضيع وقتى إزاى ؟

— يمكن لما المحل يتفتح . . . تنسى اللعبة دى .

وتقلب له شفتها السفلى كرد مبهم على تعليقه . وينضم إليهما الباقى وتقدم رفيعة محمودا لهم وبالعكس « مودى . . . جيجى . . . رامبو . . . تاسو » ويجلسون وهو يتأملهم عن قرب خاصة تاسو ثم يسأله « أنا مشتاق أعرف أصل كلمة تاسو ؟ »

ويرميه تاسو بنظرة استخفاف ثم يوجه كلامه إلى رفيعة « روفى . . . الأستاذ مش عارف اسمى الأصلى »

رفيعة — كان لازم أعرفكم ببعض أكتر من كده . تيسير وجدى بكلية الطب .

تاسو — من فضلك . . . ورئيس فرقة (ذى روكتس) الموسيقية

وتصفق له رفيعه ويتبعها الباقون وينحنى لهم تاسو وكأنه يرد تحية جمهوره من المستمعين والراقصين .

رفيعة — محمود الضيق ... معيد بالجامعة .. والفائز بكأس الجلاديولاس .

ويصفق تاسو بشدة يتبعه الجميع ، ومحمود فى صمت حائر لا يدرى أيهلل مثلهم أم يتحفظ . لكن رفيعة تكون أكثر حركة منه وتقول « مرسى مرسى »

جيجى — إنتى نسيتى حاجة يا روفى ... لازم تقــولى كمان والصديق المفضل للدموزيل روفى .

روفى — فعلا ... فاتتنى الحكاية دى .

تاسو — والأستاذ محمود بيحب الكلاسيك ولا المودرن

ويقطب محمود جبينه ليتفهم ما وراء السؤال وتبادر رفيعة بالرد « مودى بيحب الداليا والجلاديولاس والنرجس »

جيجى — وبس ... فيه حاجة مهمة انتى مخبياها .

ثم ترمى رفيعة بنظرة ماكرة . وتعقب الأخيرة « وبيحبنى كمان ... عاوزة إيه بقى ؟ »

تاسو — مفيش عنــدك هوايات تانية ... الوقت ده كله بتوديه فين ؟

محمود — إذا حصل وكان عندى وقت بأفضل أروح المسرح .

تاسو — (ساخرا) أظن بقى شفت ماكبث وتاجــر البندقية وهاملت .

محمود — ما كانش عندى حظ أشوف حاجة لشكسبير .

تاسو ــ (ساخرا) يبقى لازم شفت الناس اللى تحت والناس اللى فوق ومراتى نمرة ١١ ... والحاجات دى .

محمود ــ للاسف انك بتتكلم عن المسرحيات التمثيلية بس .

تاسو ــ (بسخرية أكثر) وهو فيه مسرحيات من غير تمثيل ؟

محمود ــ أيوه..فيه مسرحيات ذهنية.. تقرأ ولا تمثل بتعتمد على الحوار الجميل والفكرة المحبوكة .

تاسو ــ (متهكما) « الحق ياروفى . . سمعتى عن المسرحيات الذهنية ؟

محمود ــ أصلك لو كنت قريت أهل الكهف .. أو شهر زاد . أو ايزيس ... أو مصرع كليوباطرة ؟.. كنت فهمت اللى بأقوله .

جيجى ــ (محتجة) عاجبك ياروفى المناقشة البايخة دى؟ دماغى اتصدعت .

وينهض رامبو مودعاً « باى روفى ... باى كلكم »

جيجى ــ استنى خدنى معاك .

تاسو ــ وأنا كمان ... باى روفى .

ويخلو المكان وتمسك رفيعة رأسها بيديها متوجعة متألمة . ويسألها محمود « لسه تعبانة من البريدج ؟ »

ــ من المسرح الذهنى بتاعك .

ــ يا رينك تقرى حاجة منه تحسى إن عمرك بقى أكبر من سنك .

ــ وعاوز تكبرنى ليه ؟.. أنا عاوزه اتمتع بشبابى .

ثم تشير رفيعة إلى الكتب الراقدة إلى جوار محمود « وهى دى بق المسرحيات الذهنية ؟ »

ــ دى كتب عن نباتات الزينة والديكور والبيع والتسويق .

ــ وعاوزنى أقرا الحاجات دى ؟

ــ وليه لأ ؟

ــ أنا بالكتير أتفرج على الكتاب الأول والباقى مالوهش لزوم .

ــ ......

ــ الثانى مهندس الديكورموجود ،والثالث أنا مش ح أبيع ، أنا مديرة المحل ... وحتى الأول مالوش لزوم راخر .

ــ ليه ؟

ــ أمال انت ح تعمل إيه ؟.. مش انت المستشار بتاعى .

ــ بس لازم تعرفى أنا وإلا غيرى بنعمل إيه علشان تقدرى تشغلى المحل كويس .

ــ ابق أفهم منك ومن غيرك اللى يلزمنى .

ويدرك محمود أنه لن يستطيع أن يسيرها وفق ما أراد . وان عليه أن يسلك طريقة أخرى . ليشاركها بعض لهوها ومتعها ، لاتشبها بها ، ولا مجاراة لها ، لكن ليعيش حياتها بتجربة واقعية ويوثق علاقته بها ثم يحاول أن يصعد بها إلى السطح حيث الحياة بزحامها وناسها ومرها وحلوها ، ولينتقل بها من جمهرة اللاهين إلى القوافل الجادة الساعية إلى العمل والخير ، والباحثة عن السعادة الحقيقية ... السعادة الشاملة .

الفصل الحادى عشر

بين تجريب المعمل وتجارب الحياة

— ٥٠ —

يدخل محمود المركز القومى للبحوث ويحيه موظف الاستعلامات كما حياه المرات السابقة . لاجديد فى الأمر إلا صورة محمود . لم يلحظها الرجل بل لايلاحظها محمود نفسه . التحول لم يأت وليد يومه ، بل جاء رويداً رويداً . الملابس أنيقة متسقة ، ومن أحدث طراز كأنه قادم لتوه من بعثة علمية أو بعثة دبلوماسيه .

يصعد محمود إلى الدور الرابع حيث قسم تحاليل التربة ويسأل أحد السعاة « الأستاذ رأفت موجود ؟ »

— أيوه . . بس دخل عند رئيس القسم .

ويخرج محمود من حقيبته الصغيره الأنيقة (مثله) بعض الأنابيب وبها عينات من الطين والأتربة ويقول « لما يجى أديله الأنابيب دى . . وأنا راجع له حالا » .

ويصعد إلى الطابق العاشر حيث يقابله العاملون بترحيب ويقول أحدهم « فينك ياعم . . . الصور خالصة من مده »

— الدنيا مشاغل .

ويحضر له آخر علبة صغيرة يفتحها محمود ويمسك بصور ملونة ويتأملها بدقة ثم يعلق « آهو المرة دى الصور أدق وأوضح »

— علشان الدكتور سلطان ينبسط .

— شوف الأنسجة واضحة وألوانها طبيعية جدا . حتى الخلايا باينه.

— والدكتور سلطان ناوى يسافر إمتى ؟
— يمكن كمان شهرين تلاتة .

يحمل محمود الصور ويعود إلى قسم تحاليل التربة . وما أن يدخله حتى يفاجأ مفاجأة شديدة لم يتوقعها . ها هى ماثلة أمامه . تقف أمامه . تقف أمام خوان كبير وحولها الأجهزة العلمية وفرن كهربائى وأنابيب وزجاجات المحاليل ومجهر . ويستمر محمود فى مكانه . هى أمامه بمعطفها الأبيض ... صورة تسحبه فى سرعة شديدة إلى قاع الذكريات وأيام الدراسة . ورغم هذا الإطار العلمى الجاف فقد راقت فى عينه ، وهفت نفسه إليها يود لو يندفع إليها يعبر عن شعوره ... لكنه يتذكر ما كان لها مع الدكتور سمير بالأسكندرية فيتردد ... ويحجم .

أما فايزة فهى منكبة على الأنابيب التى أحضرها منذ قليل . ترفع إحداها إلى أعلا لترى محتوياتها ... وعندئذ يسقط بصرها عليه خلف زجاج الأنبوبة .

وتشك فيما تراه ... فتبعد الأنبوبة عن اتجاه بصرها لتتبين الحقيقة ... آهو نفسه ؟ .. أم هى؟ لها؟ .. وتجده ماثلا أمامها... وتتراخى أصابعها على الأنبوبة فتسقط منها وتحدث صوتا مزعجا ، وتتوالى على وجهها انفعالات متباينة الجزع ... الدهشه ... الحيرة ، ثم تنظر إلى الأرض حيث تناثرت قطع الزجاج ... انها تلمع وحذاؤه يلمع وبشرته تلمع ... حتى شعره يلمع ... كل ما فيه يلمع .. عدا عينيه فلا بريق لها ... ولا لمعان يشع منها .

ويتنبه محمود إلى وقفته ،فيقترب منها، وتتعلق عيناه عليها ثم تهبط إلى الأرض حيث شظايا الزجاج .. وتبتسم فايزة مرتبكة ثم تهز قدمها تخلصها من الشظايا والأتربة التي علقت بها . وتهمهم بكلمات لا معنى لها . وأخيرا يستطيع محمود أن يحرك فاه قائلا « فايزة ... انتى هنا ... من إمتى ؟ »

— من زمان .

— معقول الكلام ده وأنا باَجى المركز باستمرار من مدة .

— (بمرارة) كل حاجة فى الدنيا ممكن تبقى معقـــولة ومش معقولة .

— وإزاى ما أعرفش ؟

— وكنت متوقعة أنك تكون أول واحد تيجى تبارك لىّ .

— فى الحقيقة الدكتور سلطان شاغلنى خالص ومش عارف راسى من رجلىّ .

— معاك حق أنا مثلا قعدت هنا أسبوع علشان إجراءات التعيين ورجعت اسكندرية من غير ما أقضى ساعةواحدة أشوفك فيها .

— أنا كان رحت لك اسكندريه ورجعت نفس اليوم .

— عارفه .

— والسكرتير قال لى انك خرجتى مع الدكتور سمير .

— أنا خرجت مع صادق بك .

— وسمير كان معاكم .

— لا .

ـــ أمال كان عندك فى المدرسة بيعمل إيه ؟

ـــ أنا وصادق بك كنا رايحين مكتب العمل وسيبناه عند الباب وكل واحد راح فى سكة .

ـــ وإيه اللى عرفه إنك فى المدرسة دى ؟

ـــ أولا هو ما يعرفش إنى باشتغل . . ثانيا هو قريب صادق بك .

ـــ أمال ليه السكرتير ما قالش كده ؟

ـــ قال نص الحقيقه .

ـــ نص الحقيقة دايما غلط ودايما يعمى .

وبعد فترة صمت ، تستدعى فايزة أحد السعاة ليزيل ما سقط منها. وتبتعد مع محمود إلى مكان آخر وتسأله « والانابيب دى بتاعة البحث بتاعك ؟ »

ـــ لا . . . دى خاصة بتجارب الدكتور سلطان .

ـــ وعامل إيه فى أبحاثك عن الفول ؟

ـــ أبدا . . . مفيش حاجة . . .

وبعد فترة صمت يسألها « وانتِ عاملة إيه هنا ؟ »

ـــ لسه . . . باحاول وباتعلم .

ـــ فعلا . . . مجال جديد يلزمه التعليم .

ـــ والأجهزة جديدة وعاوزه مران كتير . . لكن ما تخافش علىَّ .

ـــ طيب . . . أمشى أنا . . . والمرة اللى جايه ح أجيب بدل الانبوبه اللى انكسرت .

ـــ ومستعجل كده ليه .

ـــ عندى معمل ... لازم أجهز شغل الطلبه .

ويودعها وهو يتراجع ... بخطوات مهتزه ... وفى نظرته حيرة. صورةلم تعتدها فايزة .. تحس منها أن هناك مايخفيه عنها أو شىء مايكتمه فى صدره ... لكن هذا اللمعان وهـــذه الأناقة والملابس التى على أحـــدث طراز ، تثير ظنونها ، وتجلس إلى مكتبها وتسند رأسها بين يديها تفكر . وتتجمع فى لحظة جميع أحداثها مع محمود منذ أن شاهدته فى مكتبة الكلية وكيف تقربت وتحفظت . كانت تدرك أحياناً حاجته لمكاشفتها خفايا نفسه ومكنون مشاعره لكنها لم تتح له الفرصة ، بل كانت تنقله سريعا إلى موضوع أخر ، فيحبس الألفاظ خلف قضبان أسنانه . وظلت على هذا المنوال حتى جاءها بالاسكندرية وتحررت قليلا ومدت له حبل المودة والوصال وأدخلته أسرتها وعرفته بشقيقها . وسار كل شىء فى الطريق الذى رأته وحددته له ولها . وشعرت أنها قريبة إلى قلبه وعقله وهو قريب إلى نفسها وشغاف قلبها .

وتتيقظ من ذكرياتها على صفير الفرن الكهربائى يعلنها بانتهاء الوقت المحدد لإحدى التجارب . وتفتح الفرن وتخرج منها بوتقه بواسطة ماسك عازل للحرارة . وترقب البوتقة والمادة الجديدة التى احتوتها. كانتا شيئان مختلفان ثم أصبحا تكوينا جديدا واحدا . تم التفاعل والإندماج. وكان من الممكن أن يحدث نفس الشىء لها ومحمود ... لكن لماذا هذا التوقف ؟ ... وتأتيها الإجابة من ذات تفكيرها . أنها هيأت المادتين الحرارة المناسبة لأن يتفاعلا ولكنها لم توفر لها وله الدفء الكافى لكى تنمو علاقتها . ربما تعاطفا ؟ ... ربما توادا ؟..

ربما تحابا ؟.. لكن لم ينصهرا ولم يندمجا . ثم تسأل نفسها، ولماذا لا يبادر هو ويتقدم ؟ وتجيب نفسها ، بأنه سعى فعلا إليها وطرق بابها ... ثم انشغل بحديقة رفقى بك أو شاغلته تلك الفتاة اللعوب ... لديها الوقت والفراغ أن تجالسه وتأسره بحسنها وتفتنه بسحرها وهل يرضى هو بهذه الفتاة الخاوية عقلا ومحتوى ؟ وإذا غشته غشاوة من جمالها وفتنتها وحجبت عنه الرؤيا الصادقه ... فهل تتركه لغية ؟ ... هل تتركه يتوه فى هذا الضباب ؟ وهى أقرب الناس إلى عقله وأوعى الناس بآماله وأحواله ؟

وتظل فى هذا الحوار الذاتى حتى بعد عودتها إلى منزلها . وتلجأ إلى سهير تبحث لديها عن نصيحه أو سلوى، وتمهد عليا معها . وبعد الترحيب تسألها سهير « مالك يافايزة ... شكلك تعبانه » .

فايزة — أبدا ... شويه أرهاق .

سهير — ومحمود عرف أنك جيتى مصر ولا لسه .

فايزة — كان عندى النهارده ... وتكلمنا لكن مش هو محمود اللى عرفاه .

سهير — لازم يحصل .. قلق وفكر وخلاف وغيره . دى الشطه والفلفل والبهارات بتاعة الحب .

ويغنى على « الحب كده . . وصال ودلال .. ورضا وخصام ... آهو من ده وده ... الحب كده »

فايزة — ما بقاش محمود اللى أعرفه .

سهير — إنتى السبب فى كل ده لغاية ماخليتى واحده ذى رفيعه تميل دماغه .

فايزة — (بحده) خلاص . . . هو حر ؟ يعمل اللى عاوزه .

على — الكلام ده غلط . . . لازم تتحركى شوية . . . لازم تصحى فيه طموحه وتهزى فكره لغاية ما يفوق لنفسه .

فايزة — يعنى أروح أجرى وراه ؟

على — أروح أنا أكلمه واعقله ؟

فايزة — لا . . . أنا صاحبة المشكلة وأنا لازم أصلح كل حاجه بنفسى .

سهير — نصيحة صغيرة . . . خلى عواطفك تسيرك شوية . . . خلى مشاعرك هى اللى توجهك . . . سيبى النظريات بتاعتك شويه .

على — (مغنيا) حبك نار . . . بعدك نار . . . قربك نار وأكتر من نار . . . نار ياحبيبى نار .

سهير — أطلب لك المطافى .

على — لا . . . أطلبى قهوة .

سهير — مظبوط يافايزة .

فايزة — مظبوط .

وتذهب سهير لاحضار القهوة وينتهز على الفرصة ويصرح لها « لازم تعتبرى الموضوع معركة . . . لازم تنتصرى فيهـــا . . . لازم تغيرى طريقتك . . . »

وتستوعب فايزة كلماته وتهز رأسها صامتة وتزداد إصرارا وتصميما وتتناول القهوة من سهير وترتشفها فى تأنى وعلى مهل وصمت .

الجلسة عاصفه — المناقشات محتدمة . الحوار عنيف كل متمسك برأيه . يفند كلام الجانب الآخر ليفوز فى النهاية بموافقة رفقى بك وابنته . أما المتنافسان فهما محمود وتاسو . مبارزة كلامية موضوعها ديكور معرض الزهور ولا يستقر الرأى على طراز محدد . وفى القصر تستمر المجادلة .

تاسو — أنا رأى إن التصميم السيرياليزم أنسب حاجة .

ويقف بشكل تمثيلى وينظر إلى الحائط مشيراً بيديه وأصابعه المتوترة ليفصح عن فكرته « واجهة كبيرة ٣ × ٤ متر . . لوحة ضخمة ... مسطح كبير عليه زهور ... وعيون بتبحلق وانوف بتشم »

رفقى بك — أنا عايز واجهة بسيطة تتفهم بسهولة .

ويستمر تاسو فى تخيلاته « وباب من ضلفة واحدة بلون غامق » .

رفقى بك — وليه مش ضلفتين ؟

تاسو — علشان القطعة التجريدية الواحدة تعطى شعور بالصمت والسكون ليوم واحد عطلة .

رفيع — لا . . دى حاجة لخبطة خالص .

محمود — أحسن ديكور المعرض هو الطراز الفرعونى المبسط للواجهة ولداخل المحل . . حتى ملابس العاملات تكون فرعونية متطورة .

تاسو — الزبون لازم يحس أنه داخل محل ريش (غنى) مش مقبرة فرعونية .

محمود ــ الطراز الفرعونى يميزنا عن باقى المحلات . . ويجذب السواح .

رفيع ــ ما نعمله على الطراز العربى .

رفقى بك ــ لا . . لا . . الطراز العربى فى كل حته ، أنا عايز ديكور متميز وفريد فى شكله .

تاسو ــ الحاجات دى معناها إن إحنا متخلفين مش قادرين نجارى للفن الحديث والحضارة الحديثة .

محمود ــ اللى انت شايفه ده مدنية مش حضارة .

تاسو ــ (متهكما) وإيه الفرق بين الاثنين يا أستاذ ؟

محمود ــ المدنية إنك تستعمل الاختراعات الحديثة ذى الطيارة والتلفزيون. لكن الحضارة هى الثقافة والفكر الرفيع والقيم الإنسانية النضيفة .

تاسو ــ (مزمجراً) إحنا هنا ولا اللى فى المدرسة .

محمود ــ الحياة مدرسة كبيرة .

تاسو ــ لكن الفن ذوق وإحساس مش كلام .

محمود ــ علشان تتذوق الفن لازم تقدر تفهمه وعلشان تفهمه لازم تدرسه وده الفرق اللى بينى وبينك .

تاسو ــ (محتداً) إنت ح تكلمنى عن الفن . . لازم تعرف كويس إنك بتكلم أحسن عازف جيتار فى مصر . . تعالى فى النايت كلوب بتاعى وشوف واعرف .

محمود — آسف مقدرش اروح الآما كن دى .

ويمسحه تاسو بنظرة هازئة من أسفله إلى اعلاه ثم يعلق « فعلا متقدرش تروح أما كن ذى دى » .

ويحملق محمود فى تاسو غاضباً وقد أطبق شفتيه فى صمت رهيب دون أن يرد له الإهانة ثم يقف ويوجه كلامه إلى رفيعة « أنا ماشى . . . أروفوار » ثم يمضى مسرعاً . وتلحق به رفيعة بعد تردد قصير وتستوقفه على الدرج بعد أن يكون سبقها بدرجتين أو ثلاثة وتقول له « وماشى بدرى ليه ؟ »

— ما اقدرش اتحمل وجود الجدع ده تانى .

— وحد يغضب من المناقشة .

— شفتى طريقة كلامه واستهزاؤه .

— ما انت كان جرحته .

— عموماً . . أحب أنه ما يكونش موجود وانا عندك .

— يعنى عاوزنى أقول له ما يجيش مثلا .

— ما أعرفش .

— لازم تفهم أنهم اصحابى من زمان ويهمونى .

— ده شىء يخصك . .

— أنا كنت فاكرة اللى يهمنى يهمك .

— وأنا فاكر اللى يهمنى يهمك برضه .

— والعمل ؟

— أنا عاوز أحس إنك لى .... لا تاسو . . ولا راميو . .

ولاجيجى ياخدوكى منى .. لما أكون معاكى ما حدش يشغلك عنى .

ـــ دول أصدقاء عمر بحاله . . وأنا باحب الناس والمجتمعات . . . ما تجيش دلوقت وتقولى سيبى صحاباتك . . . صعب .

ـــ وأنا صعب على أتحمل وجودهم .

ـــ ده رأيك الأخير .

ـــ أيوه . . . ولما تفضى لى ابقى كلميني . . . أروفوار .

ويذهب دون أن يطبع القبلة المعتادة . وتعود رفيعة وقد كتمت غيظها وأخذت اضطرابها . وتستمر فى جلستها ولم تشترك فى المناقشة باهتمام كبير .

ويتجسم فى رأس محمود إستخفاف تاسو به وتطاوله عليه . ويغذى غضبه عدم مناصرة رفيعة له ، بل وتمسكها بأصحابها . ويتبلور غضبه فى قرار بعدم العودة إلى القصر إلا إذا أبتعدت عن أصحابها .

ويرى فى هذا القرار رداً لاعتباره واختباراً لصدق عواطفها نحوه وحبها له .

ـــ ٥٢ ـــ

الحياة ماضية تدفع الناس وتضغطهم باحتياجاتها . تملأهم طموحاً فيتحركون ويكدون وقد يصيبون أو يخيبون . . . ثم يحاولون من جديد وقد يفلحون أو يفشلون . . . تعب تلك الحياة . . . وحياة فايزة ضمنا يحدوها أمل كبير ويشحذها عزم أكيد . ترنو إلى هدفها وتعى مشكلتها . تكاد ترى معضلتها . عليها أن تخوض معركة شديدة . أسلحتها عقلها وذكاؤها وشبابها ثم أملها النابع من ذكريات محببة .

يأتى محمود اليها ومعه أنبوبة بدلا من تلك التى حطمتها . وتستقبله بابتسامة عريضة ووجه بشوش . وينبعث من عينيها بريق تألف به محمودا وتبادره « أهلا محمود . . . كنت منتظراك من يومين » . ويقدم لها الأنبوبة وتتأملها ثم تردف « تعرف إنى قربت أخلص العينات اللى جبتها » .

— إنتى اللى شغالة فيها ؟

— (ضاحكة) وعاوز حد غيرى يشتغل فيها ؟

— طبعاً لا . . . الدكتور سلطان لو عرف ح ينبسط قوى .

— مش تبارك لى .

ويؤخذ محمود بهذا الطلب وينظر إلى أصابعها باحثا عن شيء جال بفكره ثم يقول « خير . . . ؟ » وتسعد فايزة بتلك اللمحة القلقة من عينيه على أصابعها وتجيبه « أنا سجلت رسالة الماجستير »

— مبروك موضوعها إيه ؟

— أثر الأسمدة فى تدفئة التربه .

— (بدهشة) وإيه اللى خلاكى تختارى الموضوع ده ؟

— قلت يمكن ينفعك فى بحث الفول .

— (بأسف) أنا فين والفول فين ؟

— (باستفسار شديد) . . . هو انت لسه ما سجلتش موضوعك ؟

— سجلت . . . بس مش عن الفول .. عن الجلاديولاس .

— (بانزعاج) جلاديولاس . . . وإيه اللى خلاك تعمل كده .

— الدكتور سلطان مرضاش بالفول .

— لو كنت اتمسكت برأيك كان لازم ح يوافق فى النهاية .

— خفت زمايلى يسبقونى .

— إيه فايدة انك تبقى أستاذ أو رئيس قسم . المهم الخدمه العلمية اللى تقدمها .

— لسه الطريق طويل . . . استأذن .

— رايح فين بعد كده ؟

— أشتغل شويه فى البحث بتاعى .

— طيب استنى دقيقة واحده .

وتختفى فايزه فى غرفه جانبية وسرعان ما تعود وقد بدت فى صورة جميلة بعد أن خلعت معطفها الأبيض وظهرت فى ثوب جميل فى لون الفستق وحقيبة سوداء أنيقة وتقترب فى خطو رشيق وتمنحه ابتسامة جذابة وتقول « يالله بينا » .

— على فين ؟

— أى مكان فيه هواء وميه .

وتختار فايزه نفس المائدة التى سبق أن جلسا اليها فى كازينو قصر النيل وتقول له « فاكر ؟ » ويهز محمود رأسه وهو ينظر إلى صفحة الماء . وتعقب فايزه « إحنا وسهير وعلى » .

— وأخبارهم إيه دلوقتى ؟

— ح يجوزوا خلاص .

— بالسرعة دى ؟

— مين كان يتصور إن على يتجوز أو يفكر فى الجواز .

ـ مش يمكن سهير هى اللى شجعته وفتحت نفسه للجواز .

ـــ وهو الجواز يلزمه فاتح شهيه ؟

ـــ طبعا لازم فلفل وشطه وبهارات .

وتدهش فايزة بتلك الكلمات وتقطب جبينها ثم تسأله ، انت قابلت سهير وعلى من قريب ؟ ،

ـــ أبدا من يوم ما كنا سوى .. بتسألى ليه ؟

ـــ أصلك بتقول نفس كلماتهم .

ـــ تراسل روحى .

ـــ عاوز تفهمنى إن روحك شفافة .

ـــ بلورية يقدر أى واحد يعرف اللى جواها .

ـــ أمال ساعات بتبان لىّ ذى الطلسم مش قادرة أفهمك .

ـــ مش يجوز انتى اللى مش عاوزه تفهمينى .

ـــ بالعكس أنا حاولت كتير وانت اللى محيرنى .

ـــ محتمل .

ـــ إحنا محتاجين نقرب من بعض أكتر فى محاولة جديدة .

ـــ طبعا .

ـــ نعرف أمالنا ومتاعبنا .

ـــ طبعا .

ـــ وكان أحزانا وأفراحنا .

ـــ طبعا .

ـــ مش هو ده كان كلامك من زمان ؟

ـــ آه . . . من زمان .

ـــ شايف بتتكلم إزاى ؟

ـــ أبدا خايف أتكلم بوضوح تزعلى .

ـــ الكلام الواضح ما بزعلش .

ـــ انت زمان كنت دائما تقطعى علىَّ كلامى وتخلينى أحبس اللى فى بالى .

ـــ دلوقت انت اللى بتصد و تقطع

ـــ اتعلمت منك .

ـــ هو إحنا بقينا الأهلى ضد الزمالك .

ـــ يجوز . . . مرة على الكاس . . . ومرة على الدورى .

ويظهر الضيق على وجه فايزة بهذه المحاورة العقيمة وتتشاغل بارتشاف كوب الليمون . وبعد فترة يسألها محمود ، ومين اللى ح يشرف على الماجستير بتاعتك ؟ ،

ـــ الدكتور لطفى زين العابدين .

ـــ مفيش فى كليتنا حد بالاسم ده .

ـــ عندنا فى المركز باحثين ودكاترة وأساتذة ذى الكليه تمام وأقدر آخذ الماجستير والدكتوراه من المركز .

ـــ حاجة عظيمة .

ـــ (بحدة) وإن كان لى حظ ح أعملها عن الفول .

ـــ اتمنى لك التوفيق .

ـــ (بلهجة هجومية) الفول غذا الملايين .

— . . . . . .

— لحمة الفقير .

— . . . . . .

— كله بروتين .

ويثور محمود وتفلت منه إعصابه فيقول لها من بين أسنانه «بتها جيني من الصبح . . . وأنا ساكت »

— «ش هي دي شعاراتك . . .

— . . . . .

— أنا بأصحيك . . بأفوتك . . . بأفكرك بوعدك لأهلك .

وتطن رأسه بطنين محموم ويضغطها بيديه يدفع عنها ذلك الدوى المزعج . يعاني تقريعاً ذاتيا ووخز ضميره . ويدعك رأسه بيديه يريد أن يمنع انفجارها ثم يستعيد ثباته . . . ويرفع رأسه وقد شحب وجهه وتقطر عرقا . . . وتتألم فايزة لمنظره وتشفق عليه . يقف محمود وتلاحظه فايزة مترددة أتقترب منه أم تدعه لأشجانه ؟ ويستطيع أن يتحامل على نفسه ويقول بصوت مجهد « أنا عاوز أمشي » ويسير مترنحا مهتز الخطو حتى باب الكازينو وقد طأطأ رأسه إلى الأرض يتحاشى رؤيتها ويغمغم « تجي أوصلك ؟ »

— (بحزن واقتضاب) لا . . . أنا عازوه أمشي شوية .

ويضع نفسه فى أقرب عربة أجرة وتتابعه ببصرها حتى يختفى . وتعبر كوبرى التحرير يخبطها الهواء كما تخبطها الأفكار وهى نادمه لا ستفزازه واستثارته . وتتساءل لماذا تفشل دائما فى الإقتراب منه ؟ وهل هى المسئوله الوحيدة عن هذا الخطأ ؟ ألا يتحمل هو الآخر تبعة

هذا الفشل ؟ وهـــل هى مقتنعة به أم بقضيته العلمية ؟ أم تتخذ الأخيرة وسيلة له ؟

وتسير ... وتسير، تدرى طريقها إلى منزلها ولا تدرى طريقها فى الحياة . أقدامها تحملها إلى منزلها بالتعود والممارسة ولا تستطيع رأسها أن تقودها إلى بغيتها ومبتغاها .

— ٥٣ —

رغم هجر محمود لعمله بالحديقـــة فلا زالت أشجارها الخضراء وزهورها الفيحاء نضرة كأعلام فى موكب الخريف ، والسحب البيضاء على صفحة السماء الزرقاء تستحث الطيور لتتحاب ، وتبنى عشوش جيل جديد . فتنشط تسابق الزمن قبـــل أن يحل الشتاء ، وتهدأ العواطف وتجف الأوراق وتقل الزهور وتذبل الغصـــون .

للخريف جذوة أو صحوة ما . قبل الشتاء ... ولوفقى باك صحوه . . . يهتم بحديقته وشئونها بعد أن انقطع محمود عن الحضور . ترهقة الأعمال المتزايده وطلبات سالم (الجناينى) المتعدده . ويدور النقاش بينهما .

— عاوزين عشر نقلات سبله .

— ليه ياسالم ؟

— نبذ فى بيها النجيله وكام حوض ورد كده .

— طيب .

— عارف ياسعادة البيه الحكاية مش عاوزه مهندس . وبعون الله كنده ح تبيع من الجنينه مرتين ذى اللى بيعته .

ـــ أنا يهمنى التو يروز . . . عاوزها تبقى عال .

ـــ بس لى الحلاوة .

ـــ شد حيلك وأنا أشوفك .

ـــ الله يعمر بيتك .

ـــ أنا ح اسبقك لحد البرميولا .

ـــ خليك مستريح يا سعادة البيه إطمئن كله ماشى تمام .

ولا يلتفت رفقى بك لكلماته بل يمضى إلى وجهته . وسرعان ما تتعالى صيحاته مناديا سالم الذى يهرع إليه ويمشى أمامه فى خشوع ويسأله رفقى بك « دورت البرميولا ؟ »

ـــ النهاردة إن شاء الله .

ـــ مش خدت خمسة جنيه علشان تجيب قصارى كبيرة وتنقلها فيها .

ـــ حصل وميعادهم النهارده .

ـــ أما أشوف آخرتها معاك .

ويسير رفقى بك يتبعه سالم حتى يقفا عند حوض الأراولا وينفجر رفقى بك غضبا « الأراولا مالها دبلت كده ؟ »

ـــ عاوزه شويه كيماوى .

ـــ محمود كان سايبها حال العال .

ـــ يا سعادة البيه على قد ما تصرف على قد ما تاخد من الزرع .

ـــ لسه ح اشترى كيماوى ... محمود كان مريحنى منك ومن نصيبك .

— يا بيه أنا مش نصاب .

— نصاب والف نصاب ... انت ساحب منى سبعة وعشرين جنيه لغاية النهاردة .

— كله بالفواتير .

— فواتير مزورة ذيلك .

— الله يسامحك .

— وكان مش عاجبك كلامى ... أنا ح أطردك ... امشى من هنا .

وتأتى رفيعه جريا على صيحات أبيها الثائرة وتقترب منه « فيه إيه .. يا دادى .. مالك ؟ »

رفقى بك — الراجل ده نازل نصب وساكت له من مدة ، انه يختشى لكن مفيش فايده .

سالم — أنا مش نصاب يا سعادة البيه . . أنا أنضف من ناس كتير .

رفقى بك — امش اطلع بره يا مختلس يا مزور .

رفيعة — يا دادى الزعيق ده مش كويس علشانك .

ثم تلتفت إلى سالم « امشى يا سالم دلوقتى وتعالى لى بكره »

ويذهب الرجل حزيناً كسيرا ذليلا . وتتجه رفيعة إلى أبيها تسأله « إيه اللى حصل ؟ »

— إنتى السبب فى كل اللى حصل .

— ليه ؟

ـــ لوما اله شى الحب كان زمان محمود بيشتغل هنا ومريحنى من الهوسه دى .

ـــ وأنا أعمله إيه ما هو اللى غضبان .

ـــ خلاص نهد الحديقة ونلغى المحل ونستريح من الهم ده .

ـــ وأنا مش ممكن أكلمه ولا أسأل عنـــه .. . لازم يجى هو ويعتذر .

ـــ على كيفك أنا من النهاردة مافيش دعوة بالحديقة ولا بأى حاجة.

وتضع يدها على كتفه وبلهجة ناعمة «طيب كلمه فى التليفون »

ـــ كلمته فى الكلية يا مش موجود يا الثمرة مشغولة .

ـــ روح له يا دادى ... روح له .. واشتكيه للدكتور سلطان .

ـــ فكرة كويسة .. ح أعرفه بنفسه كويس .

ـــ هايل يا دادى .. هايل .

ـــ ح أفهمه إنه لازم يحترم الاتفاق ولازم يشتغل طول ماهو بياخد ماهيته منى .. لازم أوريه الفى ده إزاى يتعامل مع الناس المحترمين .

ـــ الكلام ده شديد يا دادى بلاش منه أحسن يزعل .

ـــ والحديقة اللى انصرف عليها خمسميت جنيه مش مزعلاكى ؟

ـــ أيوه .. بس ..

ـــ أنا عارف صنف الفلاحين يخاف مايختشيش .

ـــ أنا يا دادى جايه معاك .

الطلبة والطالبات متجمعون حول د . سلطان فى مكتبه هم الباقة التى يطيب له رؤياها ، والشعلة التى تمنحه الحماس . لا يتضجر لصحبتهم ولا يتبرم لأسئلتهم .

تدخل رفيعة يتبعها رفقى بك متضررة من هذا الزحام . ويثير دخولها النظرات والفضول الذى يطغى على ضجيجهم . ويدهش د. سلطان لهذا الهدوء المفاجىء . ويتلفت هنا وهناك يستطلع الأسباب ويرى رفيعة ورفقى بك يشقان طريقهما إليه . . . ويقف مرحبا سعيداً بهما قائلا « أهلا رفقى بك . . . أهلا مدموزيل رفيعة ، ثم ينظر إلى الطلبة وهو يقول « أظن بقى تسيبونى مع ضيوفى شويه » ويتراجع الطلبة والطالبات وعيونهم قد تعلقت برفيعة .

ويخلو المكان ويردف د . سلطان « إيه المفاجأة السارة دى ؟ » .

رفقى بك — وحشتنى . . . جيت أشكرك على هديتـــك لى بالشاب الممتاز محمود .

د . سلطان — العفو . . . العفو . . .

رفقى بك — وكان جاى أشتكيه لك .

د . سلطان — ايه عمل حاجه ؟

رفقى بك — بقى له أسبوعين سايب شغله لما الحديقة قربت تنشف .

د . سلطان — أنا فاهم إنه عندكم كل يوم تقريباً .

رفقى بك — ده كان الأول . . . دلوقتى بطل خلاص .

ويدق جرس التليفون ويجيب د . سلطان . . « أهلا . . أهلا . .

متشكر . . وكان خلصتى التقرير . . دى همة عظيمة جداً . . إنتى هنا . . . بتتكلمى من الكليه ؟ . . طيب اتفضلى . . منتظرك » .

ويضع سماعة التليفون ويلتفت إليها معقبا « تلميذة من تلميذاتى . . خلصت تجارب كنت باعملها عندها وجابتها بنفسها »

رفقى بك — احسن حاجه تجيب محمود أسأله قدامك عن سر غيابه .

ويستدعى د . سلطان الساعى ويقول « تروح حقل التجارب بتاعى تقول لمحمود يسيب اللى فى إيده ويجى حالا » . وينظر د . سلطان إلى رفقى بك سائلا « مش يمكن حد بيتدخل فى شغله والزهور حساسة جدا أى تدخل غريب يتلفها على طول »

رفقى بك — أبدا . . أبدا .

د . سلطان — (ناظر إلى رفيعة) ولا حدقاله كلمة زياده ؟

رفقى بك — أبدا . . أبدا .

وتدخل فايزة التى تتوقف لحظات عندما ترى رفيعة وأباها . وتحييها بإيماءه خفيفة ، ثم تصافح د . سلطان الذى يستقبلها بترحاب شديد ، ويحاول أن يعرفهم ببعض « فايزة تلميذتى . . رفقى بك . . مدموزيل رفيعة » .

رفقى بك — إحنا معرفة من زمان .

د . سلطان — اتفضلى استريحى يا فايزة . . تعالى هنا جنبى .

وتجلس فايزة جواره وتقدم له التقرير ويقرأه د . سلطان بينما

ترى هى رفيعة بنظرة خاطفة تستكشف فيها ما يجذب محمود إليها .

وينحى د . سلطان التقرير جانبا ويعلق « أنا مش عارف أشكرك إزاى . . . إنت فتحت قدامى اتجاه جديد فى البحث »

فايزة — متهيألى لازم ناخد عينات من الأرض بعد الحشة اللى جاية كان .

د . سلطان — إحنا لازم ناخد عينات بعد كل حشة لأن محتمل جدا أن بعض الأوراق تقع على الأرض وتتفاعل مع التربة ، وده يمكن اللى قلل نسبة الإصابة بعد الحشة الأولى .

فايزة — رضه أحسن نحلل الأرض بعد كل حشة .

د . سلطان — شدى حيلك معاى . . . ح ابعت لك محمود بالعينات باستمرار .

وتلتقط رفيعة هذا الحوار بيقظة تامة . تسجله على شريط عقلها وتختزل منه ما تختزل وتستخلص منه ما تستخلص . وتتبين اللقاءات المحتملة ثم التقارب والتوافق تحت ستار العينات والتقارير .

وتتحرك فيها عوامل الغيرة والتحدى . فتصمم على وأد هذه الفرصة بأى وسيلة .

ويدخل محمود الذى يبهت بهم جميعاً . لم يتصور أن يجد جميع أطراف صراعاته فى مكان واحد . ويقف يجول بعينه بينهم وقد فقد قدرته على الحركة أو التصرف . تحول إلى كتلة بشرية مذهولة مسلوبة الفكر والإرادة . وينقذه د . سلطان « إنت جيت فى وقتك . . . فايزة جابت نتيجة التحاليل اللى حضرتك ناسيها » .

ويلتفت محمود إليها لا يدرى ما يفعله . ويردف د . سلطان « وكان تاخد عينات من كل حشة علشان تتحلل » ويهز محمود رأسه ثم يرى كرسيا خاليا فيجلس عليه فى مواجهه الجميع حيث تسقط عليه نظراتهم تلهبه كسياط موجعة . ولا يدرى كيف الخلاص ، فايزة على يمينه ورفيعة على يساره .

يسأل د . سلطان رفقى بك « عاوز إيه بقى من محمود ؟ »

رفقى بك ـــ الحديقة خسرت خلاص ونشفت .

وتعقب رفيعة مباشرة بكلام وقد ثبتت عينها عليه « وهو اللى يغضب يعمل كده ؟ »

رفقى بك ـــ وسالم طردته .

رفيعة ـــ وأنا زعلانه منك .

تعليقاتها متلاحقة . تترنح رأسه بينهما كلاكم يتلقى ضربات منافسة القوى .

رفقى بك ـــ دى الأراولا دبلت .

رفيعة ـــ كنت اسأل ولو بالتليفون ؟

رفقى بك ـــ أنا جيت أشتكيك للدكتور سلطان .

ويمسك د . سلطان بهذا الطرف من الحوار السريع ويسأل محمودا « إنت خسرت حاجه فى الجنينة يا محمود ؟ »

وتسارع رفيعة لإنقاذ الموقف « أبدا يا دكتور . . . دى حاجه صغيرة وانتهينا منها . . . مش كده يا محمود » ويهز محمود رأسه موافقا دون وعى منه . كيف ولماذا هزها ؟ ثم تعقب رفيعة « ح تيجى الليلة تسهر عندنا » .

وتتجه رفيعه بكلامها إلى د. سلطان ، واتفضل عندنا الليلة يادكتور ،
د. سلطان — أنا سهرتى مع كتبى .
وتوجه الدعوة إلى فايزة « ماتشرفينا الليلة يامدموزيل فايزة »
فايزة — (بحمود) متأسفة مش فاضية .
وتدرك فايزة عمق العلاقة التى بين محمود ورفيعة . وتفهم المعانى الخفية فى حوارها معه . وتحس فايزة ببرودة أطرافها . يدميها الشجن ويطحنها الحزن وهى ترى محمودا أمامها حائرا لاسيطرة له على نفسه أمام تلك الفتاة اللعوب . ولا تطيق تحمل قسوة الموقف فتنهض تودعهم بإيماءة خفيفـــة وقد تصنعت ابتسامة باهتـــة تشد بها بشرة وجهها حتى لاتختلج ، أو تهتز فتفصح عما تعانيه من أسى ولوعة . وترمى محمودا بنظرة أخيرة لعله يتنبه ويصاحبها إلى الخارج لكنه شارد تائه ..
ويودعها د. سلطان حتى الباب وهو يهيل عليها كلمات الشكر والتقدير
يعود د. سلطان إلى مكانه وينبه محمودا « خلاص يامحمود تشرف جنينة رفقى بك .. مش عاوز أوصيك » ويهز محمود رأسه موافقا دون أن يتكلم . وتطلب رفيعه من د. سلطان « أنا عاوزاه دلوقتى عاشان ديكور المحل بتاعى »
د. سلطان — وكمان تفهم فى الديكور ؟
رفيعة — إختار التصميم الفرعونى وأنا موافقه على رأيه .
رفقى بك — خلاص .. استريحت ؟
د. سلطان — روح معاهم يامحمود ... أنا مش محتاج لك النهارده
رفيعه — متشكرة قوى يادكتور .. وانتظر انك تحضر حفله افتتاح المحل .

د. سلطان — إبقى فكرنى يامحمود وقتها .

محمود — حاضر .

ويتصافحون مودعين د. سلطان. ويسير الثلاثه بين ردهات وممرات الكلية ، ثم يركبون العربةالتى تمرق بهم أمام محطه الأتوبيس حيث تقف فايزه بين المنتظرين . تلمح محموداً بجوار السائق ، وترميها رفيعة بنظرة المنتصرة . أما محمود فلا يرى الا زجاج العربة اللامع . لا ينفذ ببصره من خلاله ليتبصر ما أمامه وما حوله .

— ٥٥ —

المكان جميل ، يلفه الديكور بغلالة شفافة من التاريخ . النقوش فرعونية مبسطة حتى البائعات يرفلن فى ثياب محلاه بزخارف فرعونية. الأزهار والورود نسقت ببراعة . المياه تنساب فى موجات هادئة على الواجهة الزجاجية . الاضاءة غير مباشرة . كل لمسة توحى بالرقى والذوق الرفيع .

يقف رفقى بك يستقبل المهنئين سعيداً فخوراً بأفكاره الاقتصادية .

ورفيعة إلى جواره هانئة بما تملك وباللوحة المضيئة تحمل إسمها . وعلى مقربة منهما يقف محمود متأنقا مثلهما .

وقد يكون عجيبا أن يشترى المهنئيون باقات الورد والأزهار من المعرض . لكن هذا ما قصد إليه رفقى بك . إذا جعل التهنئة فى المعرض ثم الحفل الراقص فى القصر وبذلك الزم كل مدعو أن يتعرف على المعرض ويتعامل معه فوراً

ويقدم د . سلطان مهنئا ويحتفى الجميع به خاصة محمود. ويعلق على ما يراه قائلا له « أنت خلاص ح تبقى بقال زهور ؟ »

ـــ ابدآ ... المعرض بتاع رفيعة .

ـــ (وهو ينظر إلى الديكور) .. الديكور جميل .. وأيك سليم .

ـــ متشكر

ـــ دى حاجة عظيمة فعلا .. بلغ تحياتى لرفقى بك .

ويودعه محمود حتى الباب . وبوداعه تنتهى مهمة محمود فى استقبال المهنئين الذين لايعرف منهم أحدآ .

ويحين موعد بدء الحفل . فيغادرون المعرض إلى القصر . وهناك يتفرقون كل إلى غرفته عدا محمود الذى يتجول بين الموائد وقد حملت بالأوانى والأدوات والزجاجات والأكواب ، والازهار التى من إنتاجه ، فيلمسها بحنان ورفق .

وتستدعيه خادم ليذهب إلى رفيعة فى غرفتها . ويدخل إليها . ويراها واقفة مرتديه فستانا عارى الصدر . تدور حول نفسها أمامه تريه فتنتها وسحرها . البشرة صافية والشعر ناعم يداعب كتفيها . وتتوقف عيناه على صدرها البلورى . ويطوف بها على نحرها . . وتظهر على وجهه معالم الافتتان والضيق والغيرة .

وتلحظ رفيعة نظراته . وتقترب منه فيضمها إلى صدره يريد أن يحتويها أو يخفيها .. لايشاركه أحد فى رؤيا جمالها . ثم تبتعد عنه سائلة « إيه رأيك فى الفستان ؟ »

ـــ شيك ... بس ...

ـــ عارفة وله شال شيفون .

وترتدى شالا شفافا لاهو بالفاضح ولاهو بالساتر . يبخل بالبشرة الناصعة أن تبين ، إلا من بصيص يخايل العيون ويستوقفها لتستجلى المكنون

وتعقب رفيعة « أظن بقى استريحت »

ــ أصلى بحبك ياروفى .. بأغير عليكى .

وترتمى فى حضنه هامسة « حبيبى إنت مجنون وأنا أحب المجانين »

ويخرجان إلى الصالة ويقابلان بصيحات « رفقى بك تصـــورى ياروفى ... عنانى بك باعت لى بوكيه من محلات فينوس ... وما فكرش يشتريه من عندنا »

رفيعة ــ طول عمره ماعندوش ذوق .

يفد المدعون ويستقبلهم الثلاثة ببشاشة وترحيب أنيق وكلمات منمقة . يجتهد محمود أن يأتى بمثلها .. وتهب موجات صاخبة من الشباب المرح الباحث عن اللهو والمتعة فى جنون كجنون ملابسهم الغريبة .

يزحمون المكان ويتزاحمون . الجو مشحون بهم وبصياحهم وهوسهم . يعبون الكؤوس ويأكلون المزات فى نهم .

وعلى الأطراف الهادئة النائية يتحلق أصدقاء رفقى بك فى جماعات . فى نظراتهم استعلاء متكلف وقلق دفين ، وفى حركاتهم خور ووهن . الماضى يخايلهم والحاضر يفزعهم .

مهرجان تاريخى يجمع بين النجوم الآفلة والنيازك الشاردة . قد يختلف الشكل وقد تتباين الحركة واللغة والعبارة لكن المضمون واحد والحيرة واحدة ، والجميع منطلقون .. هؤلاء إلى الماضى وأولئك إلى المجهول أو إلى لاشىء .

وتسير رفيعة وإلى جوارها محمود تعرفه بالموجودين وتحييهم . ويتخلف عنها محمود خطوة أو خطوتين ليتأمل القوم بالنظرة الشاملة . إلا أنه يلتقط كلماتهم المتناثرة فتظهر له ما غاب عنه ، وتكتمل الصورة

بالصوت ويسمع :

ــ ألف جنيه .. مش معقول .

ــ سيفر . . .

ــ من مزاد القصور .

ــ الحراسة .

ــ صوفى دايما معاه .

ــ فى العجمى ؟

ــ وجوزها فى مصر .

ــ شيرازى . . .

ــ اسبرطى .

ــ باعها بيعة حلوة .

ــ أى . . . حاسب شعرى .

ــ كنت فاكره باروكة .

ــ مخصماك ....

ــ بص .

ــ مين ده ؟

ــ نوفو ريش .

ويفيق محمود على نداءات رفيعة « إنت فين ؟ تعالى أعرفك بأصحابى » ويقترب منها وقد وقفت بين جمع من الشبان والشابات وتقدمهم لبعض « مودى ... مرفت ... سوسو ... عزيز ... دوحة ... إسمايلى ... تاتو ... فيفى »

وبعد التعارف والتحيات يستأنفان السير . ويعود محمود إلى لعبه الاستماع والإلتقاط .

— بلوهات غالية خالص ....

— تلات آلاف جنيه....

— كتير قوى .

— ياباشا ممكن !!!

— عيان جدا .

— سبعميت جنيه .يدوبك....

— أيوه .. اندن .

— من شهر .

— الليلة ؟ .. مستحيل ....

— طيب بكره

— جوزى ....

— مش قادر .. مش قادر

— يامجنون .. يامجنون

— كندا

— وأبوه وأمه هنا

— غاليه جدا وتعب

— رجع

— فى المنتزه

— بوليس النجدة

— وطلقها

— الجمال ده لوحده ..؟

— وبعدين ؟

ـــ إنتى البعدين وللقبلين بتاعتى .

وتفتقد رفيعة محمودا مرة أخرى ثم تعثر عليه شاردا بين الزحام وتناديه ويذهب اليها وتعاتبه « إيه ده ياحمودى .. لازم تبقى جنبي »

ـــ الدنيا زحمة .

ـــ خليك ورايا على طول .

ـــ أحسن حاجه أمشى قدامك علشان ما أبعدش عنك .

ـــ ده هناك فى العزبة عندكم .

وتشده من يده إلى حلبة الرقص قائلة : « يالله بقى .. الرقص حيبتدى .. ولا عاوزنى أرقص مع حد تانى »

وتطفأ الأنوار وتسبح الصالة فى الظلام . وتبدأ الموسيقى بأنغام ناعمة هادئة . ويندفع الشباب إلى حلبة الرقص كأشباح الليل ويدخل محمود ورفيعة الحلبة . يتراقص الجميع يهتزون فى أماكنهم على الأنغام الخافته تدغدغ أعصابهم بعد أن لعبت برؤوسهم الخمر .

ويختفى محمود ورفيعه فى بحر العواطف حيث الهمس والنجوى .

وتتعلق رفيعة فى رقبته وتذوب فى صدره وهو يدفن وجهه فى شعرها وزفراته الحارة تلهب أذنها وعنقها ، فتنتفض انتفاضة شديدة . لا غضبا ولا رفضا لكن رغبا . وتتوقف الموسيقى وتضاء الأنوار . ويبدأ نوع آخر من العزف الصاخب يقرع الآذان ويهز الأبدان كأنها مست بشيطان مريد . وتشتدالموسيقى ويعنف الإيقاع وتتلوى الأجساد وتنثر الأطراف فى هوس محموم .

الكل تشدهم الموسيقى وتحكم سيطرتها عليهم . يستمدون حركتهم منها وكأنها أوامر منغمة ابتدعها بارع عايش الشباب الحائر وصاغ لهم

ألحانا تستهلك طاقاتهم وتمتص حيرتهم وتلهيهم عن واقعهم .

وينتهى الحفل فى ساعة متأخرة من الليل ، ويجلس محمود ورفيعه يتحدثان حديث المخمورين ، ويعلق محمود « ماكنتش عارف إن الهيصة حلوة كده »

— فى الخطوبة ح أعمل حفلة أكبر من دى .

— ليه ؟

— أصل أبوى مايعرفش يرجص .

— أعلمه ذى ماعلمتك.

— أمى تزعل .

— أعلمها.

— أبوى يزعل .

ثم يضحكان لهذا الحوار العابث وتقول له رفيعه «انت عفريت . . . العفريت بتاعى »

— وانتى ملاكى .

— لا . . . لا . . . بلاش الكلام الحلو ده أحسن أحبك بجد .

ويضحكان ضحكة رنانه مجلجلة يأتى على صداها رفق بك مسرورا ويقول « تعرفوا بعنا كام بوكيه الليلة »

— رفيعه — كام يعنى .

رفق بك — مايه تسعة وتسعين .

محمود — لا ميتين .

رفق بك — (متعجبا) إزاى ؟

محمود — لأنى لسه ح أشترى واحد قبل ما أروح .

ويضحك محمود تشاركه رفيعه ويضيق رفقى بك بهـــذا الهزل فيخاطب رفيعه « انتى لازم تقوى تنامى علشان تشوفى شغلك فى المعرض بكره »

رفيعة ــ لسه بدرى .

رفقى بك ــ الساعة ثلاثة ونص .

محمود ــ ياه . . . أنا عمرى ماسهرت كده . . . لكن صحيت كتير فى الميعاد ده علشان نروى القطن . . . والفول . . . الفول . . .

وتوقظه كلمته الأخيرة ويرددها لنفسه « الفول . . . الفول . . . »

وتجتاحه نوبة اكتئاب وصمت حزين وتدهش رفيعة لذلك التحول وتهزه من كتفه « مودى . . . مودى مالك »

محمود ــ مفيش .

رفيعة ــ كنت كويس من دقيقة .

محمود ــ شوية أفكار هبت على دماغى .

رفيعة ــ أجيب لك كاس .

محمود ــ (ناهضا) لا . . . أنا مروح .

رفيعة ــ ما تنام هنا .

رفقى بك ــ السواق يوصله . . . باين عليه تعبان .

وينهض محمود تصاحبه رفيعة حتى يركب العربه .

الفصل الثانى عشر

السعادة بريق والعـــذاب حريق

والصـــواب طريق

— ٥٦ —

العقل يركض والفكر يلهث . والأعصاب تهتك. والأيام هى الأيام. والليل حزين. وهى تكاد تفقد ثقتها فى نفسها . . فى حوار دائم مع أفكارها. تبحث عما يميز هذه الفتاة المرفهه عنها . تقف أمام مرآتها أحيانا وقد تتعمد أن تأتى وقفتها إلى جوار زميلة أو صديقة لتقارن وتفاضل .

كانت تكره كلمات الإعجاب العابرة فأصبحت تنصت لها ، ليس لسبب إلا ليطمئن فيها ، تتأرجح فى أرجوحة الخيال ترتاح إذا علت وتيأس إذا هبطت .

كانت ترى جمالها فى عينيه ، وتحس بشبابها بين اختلاجات وجهه . كان قلبها يرقص للهفته . كانت لا تدرك حلول الربيع إلا من دفء نظرته . حتى عندما يغاضبها أو تغاضبه كانت تشعر بوجوده معها .

زلولتها رفيعة وأدمت قلبها . لا ترى فيها شيئاً مميزا إلا ذلك القصر بحديقته المتسعة. خلفية براقه . القصر فخم والحديقة تمنحه الأرض ، يمارس عليها تعلقه بالفلاحة والزراعة . ارتباطه بالأرض ربطه برفيعة وآل رفيعة . وتهدأ حينا بذلك التحليل والتأويل لكن سرعان ما ترتد

إلى الأرجوحة هابطة بها إلى القاع السحيق .

وأمام المصعد تقف فى صف المنتظرين وتدخله تتأمل الصاعدين . لا ترى جديدا أو مثيراً . فى حركتهم عفوية ، وفى كلماتهم لامبالاه ، وفى همسهم فقد، وفى صمتهم عدم . ذلك يحملق فى السقف إلى لاشىء ، وهاك يمسك بالجريدة يبصرها ولا يتبصرها ،وذلك يتلهى بمشاهدة الأقفية التى أمامه . . . . . . هكذا خيل لها .

ولا تتبدل حالتها إلا إذا دخلت المركز وأرتدت معطفها الأبيض . أدمنت عملها وتعشقت معملها . أحبت الأفران وموافد النار . وترتاح عيناها على ألوان المحاليل . وتسكرها نتائج عملها الدقيق . وتطرب لصوت الآلة الكاتبة وهى تدون تقاريرها وبياناتها . ويسعدها توقيعها الصغير عليها .

وينتهى يوم عمل ،وتعود إلى منزلهـــا حيث الشفقة والأم القلقة والأب العطوف . الطعام غير مستساغ والحديث قليل والملابس البسيطة لا جميلة ولا أنيقة . ويحاول الأب أن يخرجها من صدفتها التى تقوقعت بداخلها ويسألها « وعامله إيه فى المركز ؟»

ـــ ماشيه .

ـــ متضاحكا) قصدى عاملة إيه فى شغلك

ـــ ملخومه خالص . جت لنا عينات لأرض مستصلحه جديد .

ـــ وتنزرع إمتى دى ؟

ـــ لما تتغسل من الأملاح اللى فيها .

ـــ ذى الإنسان تمام لازم يطرد الأملاح من جسمه ومن دماغه .

ثم رمقها بنظرة خاصة ذات مغزى وربت على كتفها فى حنان دافق .

مذيب فترتمى إلى صدره ويحتضنها برفق وتغرورق عيناها بدموع تمسحها بيدها بسرعة . ويرفع الأب رأسها اليه بأصبعه وينظر اليها مودعا « تصبحى على خير » . وتجيبه هامسة « تصبح على خير يابابا »

تستيقظ فى الصباح وقد رطبتها تلك الملامسه الحانية وأرخت أعصابها قليلا ويصفو ذهنها وتشعر بحاجتها إلى جرعة أخرى من المواساة أو من التسرية . وتتذكر سهير التى لم تزرها منذ مدة ، فتذهب إليها وتستقبلها سهير بالأحضان والقبلات . وتشدها من يدها إلى غرفتها لتريها ما أعدته لعرسها وبيتها وتقول وهى تعرض عليها ملابسها « ده فستان الفرح .. الطرحه قصيره آخر موضه »

— حلوه مبروك .

— شوفى بقى مجموعة البنطلونات .

— بس ده كتير قوى .

— كل يوم بنطلون .. وآدى فساتين الأبريه ميدى .

وتنظر فايزة إلى هذه الأكوام من الملابس لا تكاد تصدق عينيها وتعلق « مش معقول الحاجات دى ... فين تفكيرك ياحضرة الفنانة المرهفة ؟ »

— على عاوز كده .

— وانتى مقتنعة بكلامه ؟ ... ولا بتحبيه قوى وعاوزه ترضيه بأى شكل ؟

— وشفتى الفستان ده ؟

وتضعه على جسمها وتعرضه على فايزة التى تعيد السؤال « ماجاوبتيش على سؤالى يعنى »

— يمكن أكون بحبه ومش دريانه لكن لحد دلوقت مش حاسة بلهفة الحب ولا بشغفته .

وتهز فايزة رأسها بينما تجمع سهير ملابسها ثم تسأل : وعامله إيه في المركز القومي ؟

— باشتغل .

— ما بتروحيش هنا ولا هنا... علشان تتسلي ؟

— ماليش نفس أقعد مع حد ولا أكلم حد . أصبحت أحب وحدتي . باحس إني حرة . إرادتي ملكي .

— دي مش حرية . . . ده إسمه سجن إرادي .

— قصدك إيه ؟

— بتسجني نفسك جو نفسك .

— أنا عايشة بطريقتي . . . أخرج . أنام . آكل على مزاجي فين بقى السجن ؟

— لازم تغيري طريقتك دي وإلا تتعودي العزلة وتكرهي الناس .

— أنا مرتاحة كده .

— بس دي خطر عليكي .

— إزاي ؟

— ممكن تتعودي تكلمي نفسك وتحتقري أفكارك وتكرهي المناقشه وتبقي عنيده . وما تحبيش تاخدي وتدي مع الناس .

— دي مش حاجة جديدة عليّ .

ـــ شفتى بقى . إنتى ما كنتيش كده . اتغيرتى ومش عاوزه تقتنعى .

ـــ (فى صراخ باك) كفاية ... إنتى بتلخبطينى أكثر ما أنا متلخبطة سبينى فى حالى ... سبينى » .

وتضع يديها على وجهها وتنشج نشيجا مضنيا يهز سهير فتندفع نحوها وتحتضنها فى صدرها وتسألها « مالك يا فايزة ؟ ... مالك يا حبيبتى ... أنا مش قصدى أزعلك »

وتهدأ فايزة وتمسح دموعها وتتخلص من أحضان سهير عائدة إلى منزلها وكلمات سهير تطن فى أذنها .

وتمر الليالى . ليله وراء ليلة . تحسب الليالى ولا تحصى النهر . نهارها عمل وليلها أرق . تمديدها تمسك كتاباً تذشب عقلها فى سطوره وحروفه . تطوى الصفحات وتلتهمها التهاما كأنها مطاردة بشبح تهرب منه إلى الصفحات البيضاء والحروف السوداء . شىء ما تتخوفه وتتوجس منه .

شىء فى داخلها ... فى ذاتها ... وتتعلق عيناها بالكلمات والمعانى والأرقام وكأنها تتعلق بحبال الإنقاذ أو طوق النجاة .

الليالى تمر. وكل ليلة كسابقتها. النجوم فى السماء والشارع والضوضاء . والقمر هلال ... ثم بدر ... ثم محاق . وتود أن تبتعد لكن الناس يلاحقونها حتى أمها لا تتركها لشأنهـــا وتدعوها « تعالى سلمى على تفيده هانم »

ـــ يا ماما أنا لسه جايه من المركز وتعبانه .

ــ علشان خاطرى . . دى مستنيا كى من ساعة . ما تكسفنيش معام .

ــ هى معاها حد ؟

ــ ابنها طلعت . . جدع ابن حلال .

ــ إنتى يا ماما بتخطبيلى .

ــ أبدا يا بنتى . . . دول طبوا علىّ فجأة .

ــ مستحيل أخش لهم .

ــ علشان خاطرى . . . خمس دقائق وإمشى على طول .

وتدخل فايزة . الشاب عريض طويل أبيض اللون كفيران التجارب التى يوجد بعضا منها فى المركز القومى . فى نظرته سذاجه وفى ابتسامته خواء . وأمه المترهلة المتصابيه تفحصها بعين متضاحكة . وتقود الحديث

« أهلا بنتى . . . إحنا كبرنا وبقينا عرايس »

الأم ــ الأيام بتجرى يا تفيده هانم .

تفيده هانم ــ شوفى طلعت راخر بقى راجل إزاى .

طلعت ــ البركة فيكى يا ماما .

تفيده هانم ــ كان نفسى أفتح له مكتب محاسب . . .

طلعت ــ يا ماما المكاتب دى مابتجبش تكاليفها . هاتيلى عربية أحسن .

تفيده هانم ــ العربيات خطر . . . وأنا خايفة عليك .

طلعت ــ ماما قلبها ضعيف خالص .

تفيده هانم ــ الدكتور محرج على النرفزة والقلق . الضغط بتاعى مرتفع .

الأم — ربنا يدق .

طلعت — (موجه الحديث إلى فايزة) والآنسة فايزة بتشتغل إيه في المركز القومى ؟

فايزة — تحليل الأرض وتقدير صلاحيتها للزراعة .

طلعت — الأرض بتنزرع من آلاف السنين . تفتكرى محتاجة أبحاث وتحاليل ؟

فايزة — بدون علم تبقى زى ما كانت من آلاف السنين .

وتضبطه فايزة متلبسا بحملقة بهيمية فى ساقيها ترتفع رويدا رويدا إلى فخذيها ثم إلى خصرها وصدرها . تتثلج وترفض وتنهض هاربة إلى غرفتها .... غرفتها حبيبتها . . . . وتلحق بها أمها عاتبة « حد يعمل كده ؟ »

— من الأول قلت تعبانة .

— ده جدع ابن حلال وناس طيبين .

— أنا مش عاوزه اتجوز . . . مش عاوزه أتجوز .

القمر هلال . . . ثم بدر . . . ثم محاق . . . والنجوم فى السماء . . . والشارع والضوضاء . . .

وفى المركز القومى تفاجأ بالدكتور سمير جالسا ينتظرها . وينهض لرؤياها ، وينظر إلى ساعته ويقول « أنا أضبط ساعتى عليكى بقى »

— ليه ؟

— قالوا لى إنك بتوصلى ثمانية ونص تمام .

— يدوبك مسافة السكة والمواصلات .

— (ضاحكا) ولا مما كى ساعة أولما .

ـ (بدهشة) واشمعنى أولما ؟

ـ حرقتيها خلاص .

ـ (بدهشة أشد) إيه هى اللى حرقتها ؟

ـ النكته ... الظاهر إنك مش بتسمعى أغانى الإعلانات ؟

وتهز رأسها دون تعليق ثم تردف « عن إذنك » وتختفى لتعود وقد وقد ارتدت معطفها الأبيض . ويقول د . سمير « فى الحقيقة أنا مش عاوز أعطلك ... أنا جاى لموضوعين ، الأول أبارك ولو إنى متأخر .

ـ مرسى .

ـ والتانى ... عندى طالب ماجستير محتاج شوية بيانات عن أرض الوادى الجديد . وسمعت إنكم عملتم تجارب عليها .

ـ إبعته وأنا ح أساعده .

ـ فيه مانع آجى أنا ؟

ـ أهلا وسهلا ... بس مش عايزة أتعبك .

ـ بالعكس أنا ح أكون سعيد ... لأنى باحس معاكى براحة وتوافق .

ـ متشكرة .

ـ إمتى أقدر آجى آخد البيانات .

ـ أى وقت ... بس بجواب من الكلية .

ـ واعملى حسابك نتغدى سوى .

ـ إعفينى من المسألة دى .

ـ الرفض ممنوع .

وتذهب قبل أن تعقب .

وتفكر فايزه فى هذا العرض الجديدأو المجدد . وتسأل لماذا ترفض؟ لماذا هذا الاعتراض التلقائى ؟

ويعود د. سمير متأنقا متجهزاً ، لا لمناقشة البيانات التى طلبها ولكن ليظهر لهذه العنيدة اهتمامه بها ويقول « هه .. جاهزة؟ »

ـــ جبت جواب الكلية ؟

ويفاجأ بهذا السؤال ويخبط جبينه بيده بحركة تمثيلية متقنة ويجيبها « تصورى نسيته على مكتبى »

ـــ طيب أديلك الأوراق وبكره تجيب الجواب .

وتقدم له بعض الأوراق ولا يحاول د. سمير أن يقرأها أو حتى يطل عليها إطلاله سريعة ، بل يطويها ويضعها فى جيبه ويقول « طيب بينا بقى »

ـــ آسفه عندى شوية تحاليل لازم أخلصها .

ـــ ليه بقى ؟

ـــ رئيس القسم يدوبك كافنى بتقرير عن أرض النوبارية

ـــ استناكى .

ـــ مش ضامنة الوقت .

ـــ اسبقك على الهيلتون ولما تخلصى تيجى .

ـــ نأجلها ليوم تانى .

ـــ إمتى ؟

ـــ الاربع عندى زيارة والخميس الشوارع زحمة ... والجمعه

بأشتغل فى الماجستير ... والسبت ... السبت ...

ـــ يبقى السبت .

ويحضر الساعى ويقطع حديثها ويقدم لها أوراقا ويقول « اتفضلى تقرير النوبارية . . الريس مضاه »

وتضطرب بينما يكفهر وجه د . سمير وتحاول أن تبرر أكذوبتها وتسأل :

ـــ « هو لسه موجود فى المكتب ؟ »

ـــ مضاه ومشى على طول .

وعندما تلتفت نحو د . سمير لاتجده . كان قدمضى .

وتمضى الأيام والليالى .. القمر هلال . . .. ثم بدر ... ثم محاق. غرفتها حبيبتها ... ومعملها محرابها . . والكتاب جرعتها المسكنة

— ٥٧ —

العربة أمام الباب . يتجه اليها محمود ويجلس أمام عجلة القيادة ويبدأ فى إدارة المحرك . تقف رفيعة على الجانب الآخر من العربة فى الانتظار . ويتنبة محمود اليها يسألها وهو يشغل المحرك « يالله يا روفى اركبى » . . وتفتح لها الباب ، وتظل رفيعة فى مكانها لا تتحرك . ويطل هو برأسه إليها ، يكاد أن ينام على المقعد المجاور له . وترميه بنظرة قوية ثم تدخـــل وتجلس وعلامات الغضب على وجهها .

يندفع محمود بالعربة فى سرعة مجنونة . وتئن الاطارات تطلق عويلا حادا .. ألما منه أو تألما له . وتداعب يداه عجلة القيادة

وقد لمع فى بنصره الأيمن خاتم ذهبى . ثم ينظر اليها بجانب عينه

« إيه مالك ... إيه اللى عكر الرأس الجميلة ؟ »

— مش عارف عملت إيه ؟

— لو عارف اسأل ليه ؟

وتطلق زفرة متضجرة وتعقب « حتى دادى نفسه ما يعملش معاى كده ! »

— (مستدركا) آه عوزانى أفتح لك باب العربية قبل ما أركب ، سيبك من الشكليات دى

— دى أساسيات .. اسمه تربيتك غالبة عليك ، مش قادر تتغير وتقبل أبسط قواعد الإتيكيت .

— اعذرينى ... ساعات بأنسى .

— لكن تفتكر كويس ، الورد ده إتكلف كام .. الورد لازم يترش النهارده ... ...

— مستشارك الفنى .

— بس ؟

— ومستشار رفقى بك الزراعى .

— وبس ؟

— وزوجك بحكم ما سيكون .

— وبس ؟

— عندك لى وظيفة جديدة ؟

— مش وظيفة ... لقب ... العالم المتعالم .

ـــ وده زعلك ؟
ـــ بيخليك مغرور بنفسك وبأفكارك .
ـــ مش أفكارى دى هى اللى بتتحول عند كم لحاجات مفيدة ومربحة ؟
ـــ ما أقدرش أنكر أفكارك مفيدة لكن لك أفكار متعبة .
ـــ لخبطيهم على بعض يطلع كوكتيل لذيذ .
ـــ ناقصه شوية حاجات .
ـــ ابقى كمليه انتى .
ـــ ده اللى ناوية أعمله .

ويصلان المعرض . اتسع المكان وشمل المحل المجاور . خصصه رفقى بك لنفسه وعلق عليه لوحه « الادارة » يريد أن يستعيد الإدارة ومجلس الإدارة ورئيس مجلس الإدارة .

البائعات نشيطات فى كل مكان . يستقبلن رفيعة ومحمود بابتسامة خفية ويدخلان غرفة الإدارة حيث يجلس رفقى بك إلى مكتب أنيق . ويقول بمجرد رؤيتهما « جيتوا فى وقتكم »

ويتنبه محمود هذه المرة إلى قواعدالإتيكيت فلا يجلس إلا بعد أن تجلس رفيعة فتمنحه نظرة رضا وابتسامة خلابة . ويعقب رفقى بك « كان عندى تاسو من شويه واتفقت معاه يشترى مشتل نور بك اللى فى قليوب »

محمود ـــ واحنا مالنا وماله .

رفقى بك ـــ تاسو معاه قرشين ورثهم عن أمه وعاوز يستغلهم .
رفيعة ـــ أنا مش فاهمه حاجة .

رفقى بك ــ المشتل ده لازمنا . عشر فدادين مزروعة ورد وأزهار .لو ضمنا انتاجها لينا نستريح من التجار اللى بتحاربنا .

محمود ــ أنا مش موافق ... المشتل ده كبيرعلينا ... وبعيد .

ويخرج رفقى بك من مكتبة بعض الخطابات ويرميها أمامهما قائلا بحده ، إتفضلوا ردوا على الخطابات دى ... تسع عروض لتصدير زهور وورد وأشجار زينة وصبار ... أعمل إيه دلوقتى؟

محمود ــ نعتذر .

رفقى بك ــ سامعه كلامه يا رفيعه ... حد فى الدنيا يجيله مكسب ويرفضه شىء يجنن .

رفيعة ــ وهش موافق ليه يا مودى؟

محمود ــ مين اللى ح يشرف على المشتل ده لو إشتراها تاسو

رفقى بك ــ مين غيرك ؟

محمود ــ ما أقدرش أنا متأخر فى الماجستير بتاعتى .

رفقى بك ــ انت لسه بتبص للشهادات .. صفقة تصدير واحدة بستين شهادة من بتوعك .

محمود ــ أنا عموما ما أحبش أشتغل مع تاسو .

رفقى بك ــ ليه ؟

محمود ــ ......

رفقى بك ــ سكت ليه .. طيب اتكلمى انتى يا رفيعة ... هو اللى بأعمله ده مش علشانك ... واللى يهمك يهمه .

رفيعه ــ أنا ما أحبش أضغط على مودى واللى يريحه يعمله .

رفقى بك ــ (ثائرا) أنا ماليش دعوة بحاجة بعد النهارده . دبرى نفسك وشوفى حالك .

ثم يهب واقفا ليغادر المكتب . وتعترضه ابنته قائلة « دادى مش كده علشان خاطرى ، ويسألها « طيب فهمونى مش عاوزين تاسو ليه »

رفيعه ــ بلاش نتكلم فى الموضوع ده دلوقتى .

رفقى بك ــ (متضجرا) طيب روحونى

وأمام باب القصر يهبط رفقى بك . ويهم محمود بإبطال محرك العربة لكن رفيعة تمد يدها اليه تمنعه وتقول له « يالله بينا على الهرم »

وعلى ربوة عالية من ربى صحراء الهرم يوقف محمود العربة بينما الراديو يرسل أنغاما عذبه راقصة . ويتركان العربة ويجلسان على الرمال . وتخلع رفيعة حذاءها وتداعب الرمال بأصابع قدميها لتنتشى بلمسها .

المكان ذو رهبة وجلال . والليل ساحر . والقاهرة تمتد تحت أبصارهما . ويقنعان فى هذا الجو القدسى بالتأمل والاستمتاع بالمشاهدة .

وأخيراً تهمس رفيعة « المكان يحرك الخيال »

ــ ويرهف الحواس .

ــ أنا باشعر هنا بسمو العواطف . . . وسمو الحب .

ــ قدماء المصريين كانوا بيتعبدوا هنا بالنهــــار . . ويتحابوا هنا بالليل .

ــ معاهم حق . . . الحب درجه من درجات العبادة .

ــ الحب عايش فينا ، فى عقولنا وقلوبنا يتحرك باللمسة والهمسه .

ــ انت النهارده فنان الحب .

ــ وإنتى الحب نفسه .

ـــ كلامك الحلو بينسيني الدنيا واللي فيها .

ـــ يا ريتني أقدر أجيب لك الدنيا كلها .

ـــ حبيبي . . . إنت دنيتي .

وتنصت رفيعة إلى الموسيقى وتسرح مع النغم الحانى .وتتسلل من جانبه فى هدوء وتقف أمامه تهتز مع اللحن . . . ثم تراقص النغم . . . كأنها تسبح فى الهواء . . . تكاد تطـــير بحركتها المياسة وخطواتها الناعمة . تقترب وتبتعد وترنو إليه وتداعبه كموجة مشاغبة . وينظر اليها مسحورا بفتنتها مأخوذا بإنسيابها وكأنها حورية هبطت اليه من السماء . . . . ويقف مبهورا بروعتها . . . ويخفت اللحن وتقترب منه عندما يتلاشى النغم ويهمس لها « روفى . . . ملاكى الساحر » ويتلاقيان فى قبلة لا هى فاترة ولا هى حارقة . . . وكأن المكان بهيبته ورهبته يحرم عليهما الحس اللازع والحب الجارف .

ويركبان العربة وتنزلق على الطريق المنحدر تنقلهما من عالم السماء إلى واقع الأرض الصلبة . أو من عالم الحب والخيال إلى خضم الحياة وزحام الطريق . ويقول محمود « تعرف يا روفى أنا محرج قوى مع رفقى بك »

ـــ أنا أكثر منك .

ـــ إزاى ؟

ـــ دلوقت هو فاهم إنى منحازة لك ضده . وده اللى مزعلنى .

ـــ بس إنتى عارفه موقفى .

ـــ وموافقتاك كان . . . لكن لما أفكر شويه بأتصور إن إحنا

مأجرين الأرض من تاسو . يعنى هومالوش دعوة بيها خالص .

— يعنى مش ح يجى المشتل ويزرفزنى بكلامه .

— مالوش فى المســائل دى ... ده غرقان فى فرقة الموسيقى بتاعته .

— طيب يعمل توكيل لرفقى بك عن الأرض وفى الحالة دى اسمى أشتغل مع رفقى بك مش معاه .

وتدنو رفيعة وتلف ذراعها داخل ذراعه وتسند رأسها عليها وتهمس له « أفكارك دايما ممتازة » .

— إنتى اللى بتشديها من دماغى بحماسك ومناقشتك .

— بأفرح لما أشعر إنى مهمة لك .

— ودى الحقيقة .

— تعرف إن كلامك بيزودنى ثقة بنفسى .

— وتعرفى إن كلامك ح يخلينى أرجع بالعربية مطرح ما كنا .

— مش وقته .. .زمان دادى مستنى على نار .

وتحتضن ذراعه بقوة ، سعيدة به ... سعيده بنفسها ناعمة البال . تنظر أمامها ... الطريق مفتوح فى سهولة ويسر ... ممتد فى استقامة ... لا منعرجات ولا منحنيات .

— ٥٧ —

يجلس رفقى بك ومن حوله نور بك وتاسو ثم محمود ورفيعة ... هكذا جاءت جلستهم فى مكتب أحد كبار المحامين . ويقدم لهم المحامى

عقد بيع المشتل ويتبادل الجميع التهنئة .

المحامى ــ مبروك يا تيسير بك .

تاسو ــ مرسى .

رفقى بك ــ (موجها حديثه إلى المحامى) بالمرة نمضى التوكيل .

المحامى ــ دقيقتين بالضبط يكون جاهز .

نور بك ــ وعاوزين تستلموا الأرض إمتى ؟

رفقى بك ــ (موجها سؤاله إلى محمود) إمتى يا محمود ؟

محمود ــ إن شالله دلوقت .

رفقى بك ــ يبقى نمضى التوكيل ونروح هناك .

المحامى ــ وناوى تفتح المحل فين يا نور بك .

نور بك ــ فى شارع قصر النيل . . . خلاص دفعت العربون .

رفقى بك ــ وإيه اللى خلاك تتجه لتجارة الجزم .

نور بك ــ أكتر تجارة مربحة النهارده .

رفقى بك ــ ومش خايف من القطاع العام مثلا .

نور بك ــ أنا درست النقطة دى ووجدت إن الصناعة دى مش محل اعتبار .

رفيعة ــ (بانزعاج) وإيه رأيك يا أنكل بالنسبة لتجـارة الورود والزهور .

نور بك ــ اطمنى قوى . . . تجارة الزهور تجارة ضيقة جدا . . ولا يتمكن القطاع العام يدخلها فى نشاطه .

المحامى — أهم حاجة إن الإنسان ما يفكرش ولا يوجع دماغه .. ويحمد ربنا على الصحة والبال الرايق .

رفقى بك — كنت تعال شوف صحتى زمان .

المحامى — البركة فى الورد والفل ... يرجعك شباب

وبعد توقيع الأوراق ينهضون الى عرباتهم فى طريقهم إلى المشتل . ويجلس محمود إلى جوار السائق منعزلا بفكره بعيدا عمن معه بالعربة . فقد أشعره الحديث السابق بغربته بين هؤلاء القوم . يتكلمون لغة لا يفهمها ويهدفون إلى غير ما يستهدف . ويجد نفسه وحيدا معزولا .

تطوى العربة الطريق وتمرق بين الحقول . ويلمح محمود أنواعا من الطيور المهاجرة . تأتى شتاءً ثم تعود بنهايته إلى موطنها حيث تبيض وتفرخ وتنتج . لا تتزايد أو تتناسل إلا فى موطنها . ويحس بشىء فى أعماقه يركله فى قلبه وهو يراها طائرة فى أفواج ... راحلة .

وفى المشتل ينتشرون جميعا . يستمعون إلى ما يشرحه نوربك عن المشتل ومحتوياته . ويتخلف محمود قليلا وقد أثارته رائحة الطين والمسطح الأخضر الذى أمامه . ويفحص الزهور والأشجار والأغصان يتأملها بعين منقبه .

أما رفيعة فتتهادى متعثرة فى خطوها بين المساق والخطوط تكاد تسقط وصوتها المرح يصل إلى محمود يصفع أذنيه . ويلتفت نحوها فيجدها تستند إلى تاسو . تتماوج مع كل خطوة فى لهو مثير . ويغضب ويقذف بالأعواد البريئة — التى كان قد جمعها — إلى الأرض .

ويسير فى اتجاه القافلة ويلحق برفقى بك وصحبته يتابع حديثهم

دون أن ينقه منه شيئا ،وصيحات رفيعة تمسك بسمعه من أن ينصت إلى صوت آخر ، حتى إنه عند ما يسأله رفقى بك « إيه رأيك فى الأرض يا محمود ؟ » لا يجيبه ويرسل ابتسامة لا معنى لها .

وبشراء هـــذه الأرض يحدث تطور فى أحوال مجتمع القصر ، إذ تتسع أعمال رفقى بك بازدياد الرقعة الزراعية التى يستثمرها : وتتشتت جهود محمود بين المشتل بقليوب وبين الحديقة وبين بحث الماجستير . وتنغمس رفيعة فى معرضها تمضى به جل وقتها خاصة فى المناسبات والأعياد . تركت حياة الراحة والدعة وأقبلت على العمل تشرف وتلحظ . وتلم بأنواع الزهور على كثرتها وتفهم مناسبات تقديمها واستخدامها . وتبتكر بيع الزهور فى إصص جميله ملونة لتعيش أطول مدة ممكنة . وتميل دائما إلى تنسيق الباقات فى مجموعات متناقضة ، تبرز تضاربها . تجمع بين الزهور الرخيصة والغالية أو بين الشتوية والصيفية أو بين ذات الألوان المتناقضة . تحب أن تجمع بين الأضاد غير المتجانسة وكأنها تضفى على تلك الباقات مشاعرها وما يعتمل فى أغوارها ولا وعيها .

ويؤدى إنهماكها فى عملها إلى إنصرافها عن محمود قليلا . وإذا وجدته أو جالسته حدثتها إليه عن الزهور والمبيعات والمشتروات فتقول له « الاسترلتزيا (عصفور الجنة) اللى بتبعتها مش كفاية . . . عاوزة دستين كل يوم على الأقل » .

ــ اللى فى قليوب قدامها أسبوعين لما نقطفها .

ــ والعمل ؟

ـــ تشترى من مشتل تانى ولو كانت غالية ، عاشان تحتفظى بزبونك .

ـــ لازم أعمل كده .

وتشعل سيجارة لنفسها وتقول « وجولى بنوع التأمينات الاجتماعية » .

ـــ وعمالى إيه معاهم ؟

ـــ تصور عاوزينى أدفع تأمين عن دادى ... أفهمهم إنه مش عامل ، ده صاحب محل و اكتر . قالو لى إنى لازم أدفع طالما أنه بياخد ماهيه من المحل .

ـــ وفيها إيه لما تدفعى ؟

ـــ احنا مش عاوزين منهم حاجة لاتأمين ولا غيره . بس يسيبونا فى حالنا .

ـــ القانون كده ولازم يمشى .

ـــ إنت كمان بتقول القانون . فضك من السيره دى أحسن أنا باتزرفز منها .

وتعبر عن نفسها ، فتقذف بحلقات الدخان بعنف وقوة إلى مسافة بعيدة ... وكأن شيئا ما فى صدرها تريد أن تتخلص منه .

تحرك الرحله شبه اليومية إلى قليوب الحنين فى قلب محمود وتشوقه إلى قريته وأهله . وأخيرا يتغلب على تردده ويقرر زيارة القرية بعد انتهاء عمله بالمشتل .

تقف العربة على مشارف القرية . ويهبط محمود ويسير إلى داره

وقد غمرته أحاسيس عديدة ومشاعر ذاخرة وتتداعى ذكريات حياته منذ أن كان طفلا يمرح بالقرية يقطف الفول من أعواده الخضراء أو كيزان الذرة ليشويها على جمرة نار .

يعرفه الأطفال ثم الكبار ، ويخرجون إليه يحيونه أو يدعونه للشاى أو للدخول وهو فى عجلة من أمره . ويلقى صابر فى الطريق ويتعانقان ويلمح صابر خاتما ذهبيا فى بنصره الأيمن وتبدو عليه دهشة لا تجسر أن تتحول إلى سؤال . ويفهم محمود ما يدور برأس أخيه فيخلع الخاتم من أصبعه ويضعه فى جيبه وينتهى السؤال والجواب يرحب صابر بأخيه « حمد الله على السلامة » .

ـــ الله يسلمك . . . وإزاى أبوى

ـــ بخير مستنيك . . . توك ما عرفنا بوصولك .

ويدخلان الدار ويندفع محمود إلى أبيه التابع فى صحن الدار وقد بدا عليه نبض الإجهاد ورشم حفاوته . لكنه لا يستطيع أن يخفى رنة عتاب مكتومة بين نبرات صوته ، تلسع محمود ويقول الأب « لك وحشة يا بنى » .

ـــ والله ما منعنى عن الحضور إلا المشاغل والمذاكرة .

ـــ مذاكرة إيه تانى ؟

ـــ أصلى قدمت فى شهادة كبيرة .

ـــ ربنا يفتح عليك يا بنى .

ـــ أنا عارف إنى مقصر لكن أعذرنى يابا .

ـــ أهى جواباتك بتطمنى.

ـــ وأخبار الزراعة إيه ؟

ـــ اللى كنا فيه ... آدى احنا لسه فيه .

ـــ أنا لسه عند وعدى معاك عن الفول .

ـــ هون عليك ... وما تخدش فى بالك .

ـــ ما يلزمكش حاجة من مصر .

ـــ أبدا ... بس خلى بالك من نفسك .

ويودع محمود أباه وأسرته ويصحبه صابر حتى العربة الواقفة عند مشارف القرية .يخرج محمود ورقة من ذات الخمسة جنيهات ويدسها فى يد أخيه ويقول « خد يمكن أبوى يعوز دوا ولا انت تكون محتاج لكتب ... وما تنساش تبعت جوابات » .

ـــ ولو حصل وأبوى درى .

ويؤخذ محمود بهذه العبارة وينظر إلى أخيه بإمعان ويرتبك صابر لزلة لسانه ويردف « قصدى يمكن يزعل لو كتبت لك من نفسى » .

ـــ وهو حايشك عن الكتابة .

ـــ أبدا ... أبدا ... بس هو ....

ـــ (بأسف) أنا عارف إنه زعلان منى ... ومعاه حق ... لكن أنا كان معذور .. مصر كبيرة وحلوة فيها حياة ونور..وحركة

ـــ (باسما) بكره إحنا كان ح تخش حدانا الكهرباء ويبقى عندنا نور .

ـــ (ضاحكا لسذاجة أخيه) خلى بالك من أبوى ... وماتنساش الجوابات .

ـــ مع السلامة .

ويصعد محمود إلى العربة قاصدا القاهرة ومعه أشجانه . ومن خلال زجاج العربة يرى الأشجار وأعمدة الكهرباء والتليفون تتراجع خلفه كما تتراجع ذكرياته بصور الماضى ... ثم حاضره ... أين هو الآن ؟ أين المستقبل ؟ أين الماضى من المستقبل ؟ هل فقد الطريق ؟ هل طمس على عينيه فضل ؟ وهل كان بمقدوره أن يفلت من مساره الحالى ؟ هل كان بمقدوره أن يقاوم قوى الشد والجذب التى حوله ؟ هل ... وهل ... ومئات من هل تطن وترن فى رأسه وتقرع فكره .

وتطوى العربة الطريق ، تخلف وراءها الأشجار والأعمدة . لكن أسئلته صامدة لا تطويها إجابة شافية ولا ردا حاسما .

الفصل الثالث عشر

الزهور جذور . . . والناس جذور

— ٥٨ —

يقف محمود أمام منضده مغطاة بقماش أخضر، وضع عليها كوب ماء وميكروفون ولمبة كهربائية وحافظة الأوراق . يقلب الأورق التى أمامه ويعيد فحصها ويؤشر بقلمه على بعض النقاط ليستعيد ما كتبه .

ويحين موعد مناقشته أمام اللجنة ، وهو بين الفينة والأخرى يرفع بصره الى المدرج ، يود لو يرى فايزة بينهم لتقتنع بجدوى بحثه ومقدار ما بذل من جهد . ويرى أمامه فى الصف الأول رفقى بك بحلته الداكنة وقميصه الحريرى وعصاته الثمينة وخاتم كبير يلمع فى أصبعه ، وإلى جواره رفيعة انيقة جميلة رفعت شعرها فوق جبينها كتاج يسمو بها ويتعالى بها . ومن حولها زملاؤه من هيئة التدريس أتو لتحيته أو لإشباع هواية النقد العلمى .

وتدخل فايزة دون أن تلتفت ذات اليمين أو ذات اليسار، وإلى جانبها سهير وقد انتفخت بطنها تعلن عن حمل فى شهوره الأخيرة ، وخلفها على فرحا بأبوته ، ويحيى محمودا بيده . وترى رفيعة فايزة وصاحبتها فتأتى بحركة من رأسه شامخة تشفعها بابتسامة اللامبالية . بينما محمود يتابع فايزة حتى تجلس يود لو تبصره لكنها تتعمد أن تتشاغل بالحديث إلى سهير وعلى .

تدخل اللجنة يتقدمها د . سلطان . يرفلون فى أرديتهم السوداء التى أكسبتهم رهبة علمية . ويلتزم كل مكانه وتخفت الأصوات ، ويعلن د . سلطان « نناقش اليوم بحث السيد محمود عثمان العفيفى عن أمراض الجلاديولاس » .

وبعد هذا الإعلان تحدث حركة خفيفة وهمهمة بسيطة . ويميل رفقى بك إلى رفيعة هامساً « مش حقه يغير عثمان العفيفى دى بحاجة تانية ألطف » .

ويمنع رفيعة عن التعقيب صوت محمود سائلا « ماذا الجلاديوس ؟ » ثم يرمى فايزه بنظرة خاطفة وتبدو الدهشة على وجه د . سلطان ، ثم يردف محمود « وأستبيح لنفسى أن أبدأ بهذا السؤال الذى لم يرد ضمن نقاط البحث لما له من أهمية ، فنحن فى جمهوريتنا الفتية فى حاجة لأن نرتاد موضوعات تعنى بها الدول المتقدمة لتظهر مدى التطور العلمى الذى بلغته بلادنا » .

ويقاطعه د . سلطان « ادخل فى الموضوع » .

— وكما تعلمون أن الجلاديولاس من الأبصال الزهرية التى أدخلت زراعتها فى مصر أخيراً وأصبحت من أهم زهور الاستثمار التجارى ، إلا أنها بعد جيل أو اثنين تفقد بحكم العوامل البيئيـــة بعض مزاياها . وهو الأمر الذى يحظى باهتمام بعض الدول الزراعية فى أوربا أكثر مما تحظى به بعض محاصيلنا التقليدية .

ويضيق د . سلطان بهذا الاستطراد فيطلب « يا محمود أدخل فى الموضوع مباشرة » .

ـــ هى من الحوليات الشتوية وتزرع .... الخ »

ويستمر محمود فى عرضه الممتز بالسرد العلمى المدعم وبالارقام والبيانات ونتائج التجارب التى أجراها. ويتابعه الموجودون بانتباه يختلف هداه ومرماه من واحد لآخر . فايزة تلاحقه بعديد من الاهتمامات ، اهتمام به ، ثم بطريقة عرضه وأخيرا بالموضوع من حيث قيمته العلمية .

ويتابعه زملاؤه بعضهم برضاء وشمول صادق والبعض الآخر يبحثون عن الثغرات وعن التجارب غير المؤكدة ليتشفوا فيه .

ويفقد رفقى بك صبره ويسأم حديث الأمراض والمصطلحات العلمية وينظر إلى ساعته من حين لآخر ثم يهمس لابنته « بقى له ساعة بيتكلم متعبش ده ؟ » ولا تجيبه رفيعة فقد ملت الجلسة هى الاخرى وانصرفت تتطلع إلى الأبواب والجدران والنوافذ أو تحصى عدد الموجودين فى كل صف .

ذلك ومحمود مستمر فى عرض موضوعه . وتبزغ قطرات العرق على جبينه فيمسحها بمنديله بحركة تلقائية فيلمع فى بنصره الأيمن خاتم الخطبة . وينعكس شعاعه على حدقتى فايزة وتراه وتتأكد منه . وتشرد وتنصرف عما يقوله ، ويشحب وجهها وتتهدل كما تهدل أملها فيه . لم تتوقع أن يعود إليها لكنها لم تتخيل أن يرتبط نهائياً برفيعة . وتلحظ سهير حالتها المضطربة فتسألها « مالك يا فايزة . . . تعبانه » فتهز لها رأسها إيجابا . وتشير سهير إلى على . ويتسللون فى هدوء مغادرين المدرج .

ينتهى محمود من عرض موضوعة . ويعلن د . سلطان « تقرر اللجنة منح السيد محمود عثمان العفيفى الماجستير مع مرتبة الشرف » ثم تدوى القاعة بالتصفيق . وينفرط العقد ويبحث محمود عن فايزة فلا يجدها ويتجه إلى اللجنة ليشكرهم « أنا أشكركم على تقديركم لى » .

د . سلطان — بحثك كان ممتاز يا محمود .

عضو (١) — عقبال الدكتوراه .

عضو (٢) — شد حيلك .. وفكر فى موضوع الدكتوراه من النهارده .

محمود — جاهز ... وجاهز من سنتين فاتت .

د . سلطان — (وقد فهم ما يقصده) ... أحسن حاجة تتفسح النهارده كويس .

ويذهب محمود إلى زملائه ليتقبل التهنئة وأخيراً يصل إلى رفيعة التى ظهرت عليها معالم الضيق وتبادره « هو احنا ترتيبنا عندك فى آخر الليسته ؟ »

رفقى بك — ساعة بتتكلم ... ما تعبتش ؟

ويؤخذ محمود بهذه المقابلة الجافه فيلتزم الصمت . ويمضـون إلى العربة فى موكب جنائزى حتى يركبون العربة . وتحاول رفيعة أن تزيل سوء التفاهم الذى أحدثته كلماتها فتقول « مبروك يا مودى »

محمود — ومستعجله ليه ... كان أحسن لو بعتيها فى جواب .

رفيعة — ما انت مهتم بكل الناس وسايبنى والمفروض إنى أهم شخص عندك .

محمود — يعنى غلطت فى البخارى ؟

رفيعة — (بدهشة) مين البخارى ده ؟
رفقى بك — أظنه واحد إخترع المركات البخاريه .

وينظر إليهما محمود لا يدرى أينفجر ضاحكا لهذا الجهل أم ينفجر صارخا متحديا غرورهم .

— ٥٩ —

تدب أقدام تاسو فى معرض الزهـــور ويكثر تردده متعللا بشتى المعاذير، أما الزيارة العابرة أو السؤال رفقى بك عن المشتل . تتنوع الأسباب والهدف واحد . . . رفيعة . فمنذ أن خطبت إلى محمود وهو تواق إليها يود لو يستعيدها إليه ، وهى تفطن إلى حيله ومناوراته ومراده . تتقبل وجوده ولا تشجعه . لا تدعوه ولا ترفضه . وهو إزاء غموضها لا يدرى أيقبل أم يحجم . ويكثر من وجوده ويختلط بالعاملات يباسطهن ويمازحهن وهن بدورهن يرحبن به ويتقبلن عبثه بمرح . وتنفر رفيعة من هذا التباسط ، وإن لم تظهره له .

وينتهز تاسو فرصة وقوفها أمام إحدى الأصص ويسألها « اسمها إيه الزهرة الجميلة دى ؟ »

— استرليتزيا . . . عصفور الجنة .

— احنا فين والجنة فين ؟

ثم يشير إلى مجموعة أخرى سائلا « وده ؟ »

— مش عارفة ؟

ـــ آه .. الجلاديولاس سبب المصايب كلها .
ـــ (ضاحكة) شايف الوانه المشمشى والأحمر .
ـــ بذمتك عاجبك فيه إيه ؟ . . . شكله المكهبر .
ـــ شايف الأبيض بتاعه ملاتكى .
ـــ ده بيحطوه بقى على المقابر
ـــ عمره طويل ويعيش مدة طويله بعد قطفه
ـــ الله يقطف عمره .
ـــ (بغضب) هو مين ده ؟
ـــ (بتحير) مين غيرة يعنى .
ـــ من فضلك لازم تخلى بالك انه خطيبى
ـــ مزهقتيش منه . . خدتى بالك من سنانه المعوجه . بتستحملى شغايفه إزاى ؟

تنظر إليه رفيعة نظرة غاضبه ثم تمضى بعيدا عنه حتى لا تسمع مزيدا من تعليقاته وتلميحاته . ولا يهتز تاسو لغضبها بل يمعن فى عبثة فيجاس بدلا من عاملة الخزينة يتسلم النـــقود من المشترين ويقدم إيصالات التحصيل بمهارة ومرح يضحك المشترين والبائعات حتى رفيعة لا تستطيع مقاومة حركاته الهزلية فتبتسم لكنها تذهب بعيدا حتى لا يتمادى .

وبدخل محمود فى هذا الجو العابث ويحى رفيعة ويقبلها وهو يتلفت حوله يحاول أن يفهم سر هذا المرح فلا يجد إلا نظرات تاسو الساخرة الذى يمعن فى التهريج مفجرا الضحك من الجميـــع . ولا يسع محمود إلا أن ينسحب إلى غرفة رفقى بك معوزما لحاق رفيعة به .

ويسأله رفقى ايه ، فينك ... أنا بدور عليك من الصبح »
ـــ اتأخرت شويه .. كنا بنودع الدكتور سلطان فى المطار
ـــ سافر فين ؟
ـــ روما
ـــ خد اقرأ العروض اللى ح ابعتها استردام علشان التصدير للموسم اللى جاى .
ويأخد محمود منه الاوراق ويقرأها .. ولا يزعجه إلا ضحكات البائعات وتاسو... فينحى الورق جانبا فيسأله رفقى بك « إيه رأيك
ولا يجيبه محمود ويستأنف القراءة ... حتى إذا انتهى منها يقول فكرة هايلة .. بس إياك يوافقوا ! !
ـــ وليه لأ .. نصدر لهم زهور كاملة .. ويبعتوا أبصال وبذور من أنواع ممتازة .. .. نبيعها هنا .
ـــ وتوصلت للفكرة دى إزاى .
ـــ زمان كنت أبعت القماش خام لايطاليا يتجهز وينصبغ هناك . ويحجزوا كمية نظير الصباغة والباقى يبعتوه .
ـــ يعنى منه فيه :
ـــ تمام ... أيام وراحت

ويتغيب محمود رفيعه فيخرج فيجدها تحادث تاسو حديثا خافتا وتودعه حتى الباب ملوحة بيدها . ويشعل محمود سيجارة ينفث فى دخانها ما يعتمل فى صدره . ويرمى بمخلفاتها على الأرض على غير حذر .
يدخل رجل أجنبى تحاول إحدى البائعات إجابة طلباته لكنها لا تفهم لغته . فتتصدى رفيعة مستعينه باللغتين اللتين تجيدهما فلا تفلح وتتبادل

مع الأجنبي بالإشارات ... ثم تنظر إلى محمود لكي يتقدم ، لكنه
لايتقدم بل يتركها فى محنتها متشفيا مسرورا ... ويخرج الاجنبى
دون أن يشترى والقهر يكاد يفتك برفيعة .. وترى آثار سيجارة محمود
على الأرض فتأمر احدى البائعات فى حدة مقصودة أن تنظف الأرض .
وتقف ترقبها حتى تنتهى من عملها ثم تذهب بعيدا تباشر عملها .
دون أن يشترى والقهر يكاد يفتك برفيعة .. وترى آثارسيجارة محمود
على الأرض فتامر إحدى البائعات عنوة أن تنظف الأرض . وتقف
ترقبها حتى تنتهى ثم تذهب وتبدأ تباشر عملها .

يغضب محمود من ذلك التعريض ويزمع الخروج لكنها تلحق به
عند الباب وتسأله « رايح على فين ... »

— ماشى ...

— نسيت حاجة مهمة .

وتثبت عينيها على عينيه بقوة وجسارة ... فينحنى ليضع على
خدها القبلة المعتادة فتقول له « لا ... ما اقصدش دى ... أنا تهمنى
طلبات المحل بتاعة بكرة ... وخصوصا ان بكرة الخميس والشغل بيزيد »

— عندك زكريا فى المشتل .. تطلبى منه كل حاجة .. ومن هنا
ورايح أنا ماليش دعوة بالمشتل .. شوفى حد تانى .

وتفاجأ رفيعة بهذا الإنذار ولم يدر بخلدها أن بإمكانه أن يصل
إلى ذلك الحد من الغضب . وترتبك لاتدرى بماذا تجيب وماذا تفعل وتنتبه
إليه وهو يهم بمغادرتها فتتحرك بسرعة وتمسك يده .. وتسأله باضطراب
« رايح فين ؟ »

— (غاضبا) ماشى . . .
— تمشى ازاى كده ؟ . . . . . . انت عصبى قوى النهارده .
— ماهو انتى اللى بتثيرينى بالاستاذ تاسو .
— (باسمة فى إرتباك) أنا لسه مكلماه علشانك وقلت له لازم يعاملك كويس ويحترمك .
— من يوم ما اشترى المشتل وهو بالحال ده .
— أنا كان مشيته دلوقت علشانك .
ويكون هـذا القول نهـاية تبرمه . . فيضغط على يدها يعلن انحسار انفعالاته . وتعود به إلى غرفة الإدارة وكأن شيئا لم يحدث ، وتسأله بصوت منغم « حتبعت بكرة دستتين استرليتزيا »
فيهز رأسه مجيبا ومبتسما . فتميل اليه وتقبله فى خده وتهمس : « أنا زعلانه منك »
— أحسن .
— وكان بتقول أحسن .
— علشان أصالحك
— يبقى حأزعل كل يوم .
— من يومين قريت كلام حلو عن المرأة والرجل والحب .
— حصه .. ودرس ؟
— أسعدما تقدمه المرأة للرجل أن تحبه كما هو وليس كما تريد
— وإيه كان .
— وتقبل على الدنيا معه وليس به .

— وإيه الفرق بين الاتنين ؟
— الأولى مشاركة والثانيه استغلال .
— وأنا مين فيهم ؟
— انتى الدنيا كلها .
ويقطع حديثهما الهامس احتجاج رفقى بك « انتوا بتتوشوشوا على إيه ؟
— (ضاحكة) .. فى كلام حلو يا دادى .
— طيب يالله نروح بقى .

— ٦٠ —

دعا د . سلطان كل من عاونه فى بحثه إلى حفل تكريم بسيط بالكلية . ويفد المدعوون ويحيهم د . سلطان أجمل تحية عاكسا عليهم نجاح بحثه . وتأتى جلسة محمود إلى جوار فايزة وأمام د . سلطان ويتأملها محمود ويراها كما هى منذ أن كانت طالبه نفس البساطة فى اللبس ونفس الشريط الذى تربط به شعرها وتعقصه للخلف . لكنها لاتبادله الحديث وتنصرف بكل اهتمامها إلى د . سلطان الذى تركز كلامه عن بحثه ويعبر عن ذلك « ماصدقوش أن التجارب دى كلها تمت فى مصر . »

مدعو (ا) — الدرجة دى جاهلين التقدم الزراعى عندنا ؟
د . سلطان — وجالى واحد من الوفد السويدى عاوز يزورنا علشان يتعرف أكتر على أبحاثنا الزراعيه .
مدعو « ب » — والمنظمة عملت إيه بالبحث ده .

د . سلطان ـــ ح ننشره فى نشراتها العلمية .

مدعو « ا » ـــ ده نصر على مشرف .

د . سلطان ـــ واحد من الوفد الإيطالى طلب المعاونة علشان يطبق نفس البحث على الكرات الافرنجى .

ثم يلتفت إلى فايزة « ح نتعبك معانا كان مرة يا فايزة »

فايزة ـــ أكون سعيدة لو قدرت أعمل حاجة مفيدة .

د . سلطان ـــ تعرفى ما صدقوش إن اللى قامت بكل تحاليل التربة آنسة .

فايزة ـــ الحق علينا ... لازم كل وفد علمى تسافر معاه واحدة متخصصة .

د . سلطان ـــ إقتراح جميل ح اكتبه فى تقريرى للجامعة .

فايزة ـــ وتفتكر سيادتك الاقتراح ده ممكن تنفيذه؟

د . سلطان ـــ ما على الرسول إلا البلاغ ... وانتى عاملة إيه فى فى البحث بتاعك ؟

فايزة ـــ لسه شوية .

د . سلطان ـــ أصلك اختارتى موضوع صعب . عندك محمود لولا توجيهى له كان زمانه غرقان فى الفول .

فايزة ـــ لكنه بحث مفيد وواقعى .

د . سلطان ـــ لا أنكر فايدته ... بس صعب وعايز مجهود وعاوز سنين طويلة .

فايزة ـــ وإيه فايدة العلم اللى ما يخدمش الناس ولا يواجه مشاكلهم ؟

د . سلطان ــ الموضوعات دى ليها أجهزة متخصصة .

محمود ــ أنا ناوى أبحث موضوع الفول فى الدكتوراه .

د . سلطان ــ أظن شايك برد يا فايزة ... محمود صب لها واحد غيره ، وعن إذنكم .

وينهض ليحيى باقى مدعويه ويعقب محمود وهو يصب الشاى «عنيد جدا ... مش عارف أعمل إيه معاه ؟ » وعندما لا تجيبه بقليل أو كثير ، يسألها « ومشيتى ليه بدرى يوم مناقشة الماجستير بتاعى ؟

ــ سمعت الموضوع ومشيت .

ــ طيب كنت انتظرى على الأقل علشان تهنيني .

وتنظر إلى أصابعه ثم تعقب « المرة اللى جاية »

ــ قصدك الدكتوراه ... وأوعدك ح تكون عن الفول .

وتضحك فايزة بسخرية وتقول « فول ... قمح ... ذرة ... خلاص » .

ــ إيه هو اللى خلاص ؟ ... مش واثقة من كلامى ؟

ــ واثقة أو غير واثقة ... كل حاجة انتهت واتغيرت .

ــ أنا اللى باعتبرك أكبر مساعدة ومشجعة ليّ ... تغيرى فكرتك عنى كده ؟

ــ أنا ما غيرتش فكرى ... انت اللى اتغيرت .

ــ أنا ، ما اتغيرتش ... أنا لقيت فى دايرة كبير شوية .

ــ دايرة الجلاديوس ؟

ــ أرجوكى تقدرى ظروفى .

ـــ (بغضب) الظروف إحنا اللى بنعملها ونتصورها وبعدين نتحجج بيها .

ـــ انتى بتحكمى علىّ من واقع أفكارك مش من واقع ظروفى .

ـــ ح تفضل طول عمرك لغاية ما تبقى أستاذ تبرر لنفسك اللى بتعمله بالظروف والأحوال والواقعية.

ـــ (وقد شرد وسرح) أنا كنت فاكر إنى أقدر لوحدى أحل مشكلة الغول لقيتها مشكلة أكبر من أن يشيلها ويحلها بحث صغير ذى الماجستير ... وسافرت لك اسكندريه علشان أشاورك وأتشجع بيكى لقيتك خرجتى .

ـــ (بتأثر شديد) حظك وحظى .

ـــ شفتى بقى إن الظروف أقوى منى .

ـــ كان بإمكانك تستنى شويةوتعرف الحقيقة مش تهرب وبظنونك وأفكارك الغلط .

وتنهال عليه كلماتها كسياط مؤلمة لا يستطيع معها رداً . ويعود د . سلطان إلى مكانه ويوجه كلمة إلى المدعوين يشكرهم بها .

وينفض الحفل ويحاول محمود أن يرافق فايزة فى طريق عودتها تعتذر له قائلة « أنا رايحة زيارة لناس قرايبى » .

ـــ مع السلامة يا فايزة ... وأرجوكى ما تفقديش الثقة فىّ .

ولا تجيبه بل تمضى فى خطوات مسرعة . ولم يكن لها وجهة تذهب إليها. ولم ترغب فى العودة إلى منزلها . تريد أن تبتعد عن الوحدة . بنفس مقدار حاجتها الابتعاد بفكرها عنه حتى تظل عواطفها هادئة

بنفس الدرجة التي أفلحت أن تنكمش بها إليها .. لا تريد مزيداً من الدفء وبالتالي كثيراً من المعاناة . تريد أن تعيش في سلام حتى ولو كان سلاماً فاتراً .

وتقودها قدماها إلى سهير لتهنئها بمولودتها . وهناك تعاتبها سهير .

« عشرين يوم لغاية ما تيجي وتباركي . »

— ما أحبتش آجي في الزحمة .

وتحمل سهير ابنتها « شوفي عالية حلوة إزاى ؟ »

— قمورة خالص .

— وإيه الشياكة دي ... كنتي فين ؟

— الدكتور سلطان كان عامل حفلة شاي بمناسبة عودته من روما .

— وشفتي مجرد ؟

— أيوه .

— وعامل إيه في الحكاية .

— ممشي أموره مع الدكتور سلطان ... يمين يعني يمين شمال يعني شمال .

— يعني عوزاه يعمل إيه ؟ معيد صغير ح يقدر يقف قدام أستاذ رئيس قسم .

— معاكي حق ... بس موضوع الجلاديولاس .. خلاه ...

— عارزاه رأيء ؟

— عموما الموضوع انتهى خلاص ... وخطب رفيعة وما ليش إني أفكر فيه .

ـــ إيه يعنى حته دبلة لا راحت ولا جت ؟

ـــ الدبلة ما تهمش ... الارتباط والوعد .. الاتفاق هو ده اللى مؤلم .

ـــ لو محمود عيان وعنده حمى ... تحاولى تنقذيه ولا تسيبيه ؟

ـــ طبعا أحاول أنقذه ؟

ـــ اعتبريه عيان وعنده حمى .

ـــ محتارة يا سهير مش عارفه أعمل إيه ؟

ـــ شئ إنك مش قادرة تخلعيه من قلبك .

ـــ محتارة يا سهير . . . والأيام بتجرى . . . والعمر بيجرى وساعات بأحس إن الحياة إنتهت بالنسبه لى من سنة أو من سنتين .

ـــ إيه الكلام الوحش ده . انتى لسه ذى الوردة انت بخـــير والدنيا بخير .

ويسود الصمت لحظات تقطعه سهير « تعرفى أنا حاجزة لك علبة السبوع ... مخبياها » وتتجه لاحضارها . وتسمع فايزة بكاء الطفلة فتذهب إليها « وتداعبها باصبعها ، وتمسك الطفله بحركة عشوائية ، فتبتسم لها فايزة وتنسى أشجانها أمام هذه البراءة . وتستشعر حنانا بتلك الملامسة الناعمة . وتقترب سهير منهما ضاحكة وتقول « هى مسكتك ... أى حد يقرب لها تمسكه »

ـــ دى طمعة خالص .

وتقدم سهير العلبة إلى فايزه « اتفضلى .. »

ـــ مرسى يا سهير ... أمشى بقى .

ــ مع السلامة .

وتعود فايزه إلى غرفتها حبيبتها وقد هدأت نفسا .... ربما لما أفاضت به إلى صاحبتها . . . ربما لتلك الملامسة البريئة ليد الطفلة .. وربما لرؤية محمود وبجالسته . . .

ــ ٦١ ــ

يقتحم تاسو معرض الزهور نشطا مرحا وقد أمسك بيده جوازى سفر . يشير بهما لرفيعة التى وتهرع إليه . تحاول أن تأخذ منه ما يخصها . لكنه يرفع يده عاليا فى تمنع مداعب . ثم يندفع إلى غرفة الإدارة وتتبعه رفيعة . يعطى رفقى بك جواز سفره ويستبقى جواز سفر رفيعة معه يفتحه وهى تحاول أن تأخذه منـــه فيبعده عن متناول يدها .. ثم يقبل صورتها قائلا « ح توحشينى يا أجمل مصدرة زهور . . . »

وتقف رفيعة ضاحكة توبخه « دمك تقيل . . . »

ويستمر تاسو يفتح صفحات جواز السفر ويقول « روما » ثم يقبل الورقة . وهكذا مع كل صفحة ومقبلا وصائحا « باريس . . . كوبنهاجن .... أمستردام .... لندن .... فينا .... روما . ثم يعطيها الجواز وهو يرنو إلى عينيها فى إفتنان قائلا « وأخيراً القاهرة ويشير بأصبعه إلى قلبه معقبا «هنا . . . هنا »

وترد رفيعة وهى سعيدة بهذا الغزل « ولو . . . »

تاسو ــ بس لو أفهم عاجبك إيه فيه . . . كنت عملت زيه علشان أستريح .

رفقى بك ــ مبسوطة بقى من الرحله دى ؟ .

وتقترب منه وتقبله « مرسى يا دادى .. مرسى قوى »

رفقى بك ــ علشان انضف مخك ... واطلع منه الأفكار الغلط .

تاسو ــ أومو يغسل أكثر بياضا .

رفيعة ــ لكن « تايد » يقوم بكل العمل ... بيشرف الجنينة والمشتل ... وطلبات المعرض يوميا ... مش بيلعب ويعاكس دى ... ودى .

تاسو ــ ح ترجعى تلاقى بأفكار تانية ... وصورة تانية .. جد ... وعمل ... وطلباتك كلها جاهزة .

وتنظر إليه غير مصدقة قوله وتعقب « آهو كلام ... »

تاسو ــ (بلهجة حادة) ح تشوفى يا روفى ... ح تندهشى .

رفقى بك ــ دلوقتى تعال استلم الخزينة والدفاتر ...

تاسو ــ أنا جاهز .

وتسأل رفيعة أباها « هو تاسو ح يشتغل هنا ؟ »

رفقى بك ــ أنا قسمت العمل بين تاسو ومحمود . تاسو المعرض ومحمود للحديقه والمشتل .

رفيعة ــ بس يمكن يحتكوا ببعض ويعمل مشاكل ؟

رفقى بك ــ ده كلها أسبوعين وترجع .

رفيعة ــ تاسوا بيفضل يلعب ويضحك مع البنات ... ومش ح يقدر يشغلهم .

رفقى بك — وأنا كان ما اقدرش أحط راسى فى خية محمد ... يغضب ولا يزعل منك .. يروح خانقنى .

تاسو — إنتى ما عندكيش ثقة فىّ يا روفى ؟

رفيعة — إنت ظريف وكل حاجة ... بس مش بتاع شغل .

تاسو — جربينى مرة ...

رفقى بك — كان ما تنسيش إن محمد كل ساعة بيهدد يسيبنا .

تاسو — يسيب ويريحنا . .

رفقى بك — مش وقته الكلام ده ... وعاوزك تكون سياسى معاه خالص .

تاسو — حاضر يا أنكل .

وتركهما رفيعة خارجة وقد هزها الحوار . وأخذت تقارن ، دون أن تقصد ، بين المتنافسين .

وتمتنع رفيعة عن الذهاب إلى المعرض تجهز نفسها للسفر . أكوام من الملابس حولها . الحقائب تفتح أفواهها تستقبل فى نهم ما تضعه بها . وتفترش السجادة وتنظر فيما حولها من ملابس لتنتقى منها ما يلزمها فى رحلتها تتردد بين هاك وذاك . تفاضل بينهما ... أيهما أجمل . تريد أن تكون أنيقة منذ الدقيقة الأولى التى تركب فيها الطائرة . إنها أول مرة تطير للخارج ... سترتفع إلى السماء ... سترى الأرض من علٍ . ما هو كبير سيبدو صغير . ترى كل شيء ولن يطولها بصر . ستمرق فوق الجميع .. الارتفاع يبهر . يشعر بالتفوق ستصبح من راكبى الجو ومرتادى السحاب .. إن السفر بالطائرة لا يعنى السرعة والراحة بقدر ما يعنى الرفعة والرقى .

وتستأنف الاختيار .. هذا فستان للسهرة ... وهذا للصباح ...
نعم الصباح فى روما... حيث يتلاقى الماضى والحاضر ... روعة الماضى
وجنون الحاضر . . . الأحذيه ... آخر التصميمات وأحدث الأشكال
يكفيها ثلاثة من روما لتدخر مبلغا كبيرا للمشتروات من باريس ولندن،
نعم لندن أرخص من غيرها لكن العطور والروائح والمساحيق من
باريس . ستمضى بها أسبوعا تزور معارض الأزياء والملاهى والمولان
روج والفولى برجير وبرج إيفل .ستصعده وترى باريس من التليسكوب .
ثم حى مونمارتر .. لابد أن تزوره . هكذا نصحتها ميرفت هانم لتتذوق
أنواع الجبن الفرنسية ، مائة ستة وعشرين نوعا .. لن تله فى لنــــدن
ستشترى وتشترى فقط . لكن ماذا عن الحولات الإضافية ؟ والجمارك ؟
قد تكلفها مبلغا كبيراً ... لا ... تاسو وعدها وطمأنها .. له أصدقاء
كثيرون بالوزارات والمصالح . سيسهل لها الأمور . إنه فعلا لطيف
وأصبحت تأنس له بل وتمرح معه . لكنه دائم العبث مع العاملات خاصة
تلك الفتاة الطويلة البيضاء ذات العينين الناعستين . يكثر من مداعبتها
وهى لا تصده بل وتشجعه فى طراوة ماكرة . تريد أن توقعه فى حبائلها
لكن تاسو من أسرة عريقة وغنية لا يجوز أن يهبط اليها . إنها مجرد
عاملة بها مسحة من الجمال وكثير من الذكاء . إنها من طبقة غير طبقته...
لا يمكن ... إنه يهزل فقط وربما ليثيرها ... لكن هيهات ... إنها
مجرد عاملة .

وتستمر فى هذا العمل بين الخيال والتهيؤات حتى يدخل أبوها قائلا.
« انتى لسه بترضى ؟ »

ــ لسه شوية .

ــ أنا خاصت كل حاجة . . . حتى الدوا بتاعى حطيتـــه فى الشنطة . أسيبك بقى عاشان أفهم محمود وتاسو يعملوا إيه .

ــ ما تنساش تفهم محمود إنه ما يزعلش تاسو .

ــ تعالى انتى قولى الكلام ده .

ــ أنا زهقت من الحكاية دى .

ــ باى روفر .

ــ باى دادى .

ويأتى يوم السفر . محمود يقود العربه صامتاً وإلى جواره رفيعة وفى الخلف يجلس رفقى بك وتاسو . الطريق إلى المطار طويل يزيده طولا ظلام الليل . ويزيده مللا نصائح رفقى بك التى لا تنقطع « لازم يا تاسو تكتب المبيعات والمشتروات يوميا . »

تاسو ــ اطمئن يا أنكل .

رفقى بك ــ وانت يا محمود تبعت لتاسو الزهور يومى .

محمود ــ إن شاء الله .

ورفيعة جالسة تقارن بينهما ، الذى بجوارها متزن جاد تستطيع أن تعتمد عليه وأن تطمئن له إلا من نوبات غضب تنتابه من حين لآخر تعرف كيف تصرفها . أما ذلك الجالس خلفها فهو جذاب خلاب مرح متحدث لبق يختلس الأسماع ، فى مجتمعات لكن لا تستطيع أن تعتمد عليه .

ويقطع أفكارها رفقى بك قائلا : « وإذا زاد حاجة من المشتل تبيعها للمحلات اللى فى البلد مش فى الزمالك . . . طبعا عارف ليه ؟ »

محمود — طبعاً .

وتعود رفيعة إلى المفاضلة . تنظر إلى محمود . إنه طيب لكن فى خشونة ، معتد بنفسه فى ريفية . يحكم عقله كثيرا . يغلبها بالمنطق وتتغلب عليه بالنعومة والأنوثة . أما الآخر فطوع بنانها ترتاح له ولا ينهكها ذهنيا أو عاطفيا . تستطيع أن تكشف أفكارها أمامه دون خشية ، بل وتستطيع أن تتعرى أمامه دون أن تخجل أو تستحى . لكن لا تستطيع ذلك أمام محمود ... أنه يلزمها بحدود من السلوك والتصرف ... أيهما أنسب لها ؟ ... رجل الحدود ؟ ... أم فتى اللاحدود ؟ ... ولم العجلة فى المقارنة ؟ ستعبر بعد دقائق الحدود ... إلى السماء حيث لاحدود ولا قيود .

وتقف العربة أمام المطار ويهبطون ويدخلون الصالة الكبرى حيث الحركة والصخب والمكروفون يعلن وينبه . ناس هنا وهناك ومسافرون وحمالون ومودعون وباكون .

ويقتربون من صالة الرحيل ويبرز كل منهما أوراقه . ويودعان محمودا بالقبلات والأحضان وتخرج رفيعة منديلا تزيل به ما شرع يسيل من عينيها فى حذر حتى لا يختلط دمعها بالمساحيق والأصبغة السوداء والحمراء .

وعندما يهمان بمصافحة تاسو يقول لها « أنا داخل معا كم ... معاى تصريح . »

ويمرق معهما بينما تلوح رفيعة خلف الحاجز بيدها لمحمود وتصيح « ح أبعت لك كرت من كل بلد أزورها » .

ويهز رأسه لها مبتسما فى غيظ لمصاحبة تاسو لها ويرقبهم وهم يمرون بين الموظفين والمختصين . وتاسو يتحرك هنا وهناك بنشاط ينجز كل الأعمال وكأنه خبير بشئون السفر والترحال .

وتعلن المذيعة عن قيام الطائرة المقلة لها . ويتجهون إلى عربة المطار بينما يسرع محمود إلى شرفه المودعين يتابعهم بنظره حتى يصعدوا الطائرة . ويرى تاسو منهمكا فى محادثتها وهى تشاركه ضحكه . ويصطفون أمام سلم الطائرة ويحى تاسو رفقى بك ويحتضنه ويقبله . ثم يحتضن رفيعة ويقبلها مثنى وثلاث ورباع ... ثم يعطيها حقيبتها ..... ثم يلوح لها بيده حتى تختفى داخل الطائرة .

ولا يطيق محمود الوقوف ... فيهرع إلى العربة ويقودها بسرعة جنونية وإطاراتها تطلق عويلا حادا تألما له أو تألما منه ...

ويخرج تاسون سعيداً باسما ... ويبحث عن محمود أو عن العربة فلا يجدهما ، ولايبالى ولا يكترث ويصعد إلى عربة أجرة مؤملا فى عودة أهنأ ولقاء أسعد .

الفصل الرابع عشر

حفنـــة الفـــول . . . .

— ٦١ —

يدخل محمود قريته ليلا فلفامهموما يتحسس خطواته يتلمس طريقه . الصمت والظلام وأمان لا يكسرهما إلا نقيق الضفادع أو بصيص نور . ويمسك بالخطاب فى جيبه ، تلسعه كلماته . أتاه من أخيه صابر يخطره بمرض أبيه العضال

ويدخل الدار ويصدمه الحزن المقيم . لاتحية ولاسلام . يدور بعينيه سائلا عن أبيه وتأتيه الإجابة صمتا مضنيا . العيون والشفاه مطبقة .. تأبى الـكلام الذى تأبى على الشيخ المـريض . ولايتحمل محمـود موكب الصمت فيصرخ « أبوى ماله . . . ؟ » ويمسك بشقيقته الكبرى ويهزها بعنف صائحا « إنطقى . . . إتـكلمى » لـكنها لاتجيبه وتنكس رأسها .

ويصعد إلى غرفة أبيه . الوجه شاحب . النظرات شاردة . الخدود غائرة . ويلمح الشيخ إبنه . . . الأمل ، الإبن الرجاء .. فتومض عيناه بشعاع خافت . ويجثو محمود نحوه وفى جزع يسأله « مالك يابا ؟ . . . حاسس بإيه ؟ » ولا يجيب الشيخ لـكنه يربت عليه بيده اليمنى أما يسراه فقد رقدت إلى جواره فى غير حراك . ويلتفت إلى أمه « والدكتور قال إيه ؟ » فتشير الباكية إلى مائدة صغيرة عليها زجاجات وعلب الأدوية . ثم ينظر إلى أخيه صابر « لازم أعرف تعب ازاى ؟ . . . ريحونى بقى ؟ »

ـــ جات له نجطة على لسانه

ـــ نقطة ... نقطة أيه ؟ .. أنا نازل المركز أجيب دكتور .

ـــ الدكتور قال جلطه فى المخ ... ويمكن يخف ويطيب .

ـــ كان قابى حاسس إنه ح يرقد الرقده دى .

ويتململ المريض فى رقدته ويشير لهم ليتجمعوا حوله ويطالب الصغار . وعندما يلتفون حوله ينظر إليهم مرة ثم أخرى إلى محمود الذى يقول « حاضر يابا ح أخلى بالى منهم بس أنت شد حيلك وخف ... المهم تقوم بالسلامة »

الأم ـــ (باكية) ربنا يشفيك يا أبو محمود .

و يأتى المريض .. بإشارات بأصابعه وكأنه يطالب طعاما فيسأله محمود « عاوز تأكل ! » ويهز الشيخ رأسه فى وهن ثم يعيد الإشارة وبصورة أكثر وضوحا . وتقول الأم « عاوز الدوى ؟ » فيجيب نفيا بهزة من رأسه . ويكرر نفس الاشارات حتى تقول أبنته الكبرى « ده عاوز حب ... يمكن درة ؟ » وتلمع عينا المريض قليلا . لكنه مازال مصرا على اشاراته حتى يدرك محمود قصد أبيه ويقول « فول فول يابا .. » فيرتاح الشيخ ويهز رأسه بنعم .

ويؤتى له ببعض من الفول ، ويشير إلى محمود أن يقبض حفنة منه ويمتثل محمود فيضع الشيخ يده الضعيفة على يد أبنه ويضغط عليها بقدر مايستطيعه من جهد وكأنه يذكره بوعده له أو كأنه يوصله بأهله وربطه بهم على حبات الفول وشئونهم ومتطلباتهم فى حياتهم .

ويردد محمود والدموع تتساقط من عينيه « حاضر يابا .. مش ناسى وربنا يسهل ... بس انت ارتاح علشان تخف »

وترتاح عينا المريض . . . بل يرتاح هو نفسه بعد عدة ايام من المرض.. يرتاح الراحة الأبدية بعد أن يكون حمل إبنه الرسالة وألزمه العهد .

يمضى محمود أيام العزاء فى القرية . يتقدم الأسرة فى تقبله حسب التقاليد . يجالس هذا وذاك بقلب حزين ونفس مشتتة وفكر شارد . ويضيق بالناس وصحبتهم وحديثهم ومواساتهم وعطفهم. يود لو ينفرد بنفسه لكنه محكوم بعرف قوى وتقاليد أسرة لا يستطيع التهرب منها أو التخفيف من بعضها .

ويتجول فى أرض أبيه ...أو التى كانت كذلك عند ما كان يمارس عليها نشاطه وطاقته . يكد ويتعب ويجاهد فى سبيلها . ويتذكره وحركاته وصوته . يعيش أيامه معه مرة أخرى . لا يريد أن يعىّ اليوم أو يأمل فى الغد . . . يحن فقط إلى أمسه ليسقط به من حياته يومه وغده .

ويتلفت حوله . الحقول خضراء خضرة الحياه نفسها . وهناك زهران وعلوان وصابر واسماعيل يعملون ويفحلون . ويتذكر قول أبيه « عندنا الرجالة تحزن من جلوبها وتجرى برضه على عيشها » .

وتفد فايزة فى محنته على خاطره دون سبب معقول ويتذكر تعقيبها بالذات على غضبه منذ سنوات عند ما أطاح المطر بالفول « إيه فايدة الزعل بتاعك ؟ لو حولته إلى طاقة وعمل مش أحسن ؟ »

ويفيق محمود من هذه الشطحات على صياح زهران « يا علوان . . . ياعلوان إجفل المساجى عن الحوض الجبلى أحسن الميه عليت جوى . . »

يكون أول عمل لمحمود بعد عودته إلى الكلية هو إثارة موضوع الدكتوراه مع د . سلطان ، الذى ما أن يلقاه حتى يواسيه « البقية فى حياتك يا محمود . . . شد حيلك .

— الشد على الله .

— رمزى بقى له أسبوع شغال لوحده فى حقل التجارب . . . ابقى روح ساعده .

— كنت عاوز أكلم سيادتك فى موضوع الدكتوراه .

— اتفضل . . . اتفضل .

— أنا . . . أنا على عهد بخصوص الفولورجانى سيادتك تساعدنى .

— يا ريت يا محمود . انت عارف إن دراسة أمراض النباتات صعبة . . الفول عاوز إمكانيات كبيرة . . . حقول . . . معامل . . . إخصائيين اعتمادات . . . أهم حاجه الاعتمادات المالية .

— نطلبها . . . وابتـــدى فى الدكتوراه لغاية ما تتوفر الاعتمادات .

— ولو ما حدش وافقنا على الفلوس اللى نطلبها .

— ده ح يكون مبلغ بسيط . . . مش معقول يترفض وبتوصيه من سيادتك كل حاجة تمشى .

— عاوزنى أشرف على بحث صعب بالشـكل ده بإمكانيات غير مضمونة أو موجودة .

— لو اهتميت سيادتك بالموضوع كل حاجة ح تتيسر .

— أنا ما أعرفش أشتغل فى بحث بالشكل ده .

— ده أنا معتمد على سيادتك .

ـــ آسف ... ما أقدرش ... شوف أستاذ غيرى

ـــ طيب سيادتك ترشح مين ؟

ـــ كلهم ممتازين .

ويلجأ محمود إلى أساتذة القسم أصحاب العلم وخزنة المعرفه . لعل واحدا منهم يتبنى بحثه ويتصدى لمشكلته . لكنه يعجز فى إقناع أحدهم. ويسقط فريسة حيرته لا يدرى ما يفعله وحبات الذول معه تورقه وتعذبه .

وتلفه ستارة من اليأس، ويطغى على فكره تشككك فى ذلك المجتمع العلمى الذى ينتسب إليه . يود لو يشاركونه انفعالاته وإحساساته بما يعانيه الناس ...يعيبون هجرة القرية والنزوح إلى المدينة وهم يهجرون القرية بفكرهم وعلمهم .

وأضحى وكأنه فى بحر هائج تتلاعب به أمواجه رفعا وخفضا .لا يملك مقود نفسه . عاجز عن أن يفى بوعده ناقم على الكلية، ناقم على من فيها . لا يدرى جدوى لوجوده بها . إذا كان غير قادر على إفادة أهله وذوى قرباه فهو بالتالى أكثر عجزاً عن إفادة قوافل الطلبة المتدفقة على الكلية .. لا فائدة ترجى من وجوده سواء لنفسه ولغيره .وإذا كان الأمر كذلك فلمـــاذا يبقى ؟ ليذهب . . . ليستقيل ... نعم ليستقيل . . .

هذا أقل ما يفعله معبراً عن غضبه . . . ليترك الوظيفة ويكسر اطارات العلم الجوفاء ويرتاح لهذا الخاطر ويمسك بالورقة ويحرر استقالة مسببة إلى د . سلطان جاء فيها :

« وحيث إنى لم أجـــد من يشرف على البحث وفى نفس الوقت

غير مقتنع ببذل أى جهد علمى فى موضوع آخر افتقد فيه الإرتباط والإلتزام — وهو أمر يترتب عنه عدم الحصول على المؤهل العلمى الذى يخول لى الاستمرار بالكلية — لذلك فانى مضطرا الاستقالة برجاء قبولها »

وتحدث استقالته رد فعل قوى فى القسم والكلية . فهذه أول مرة يقدم معيد على الاستقالة بسبب إصراره على بحث محدد ترفضه هيئة التدريس ويثور جدل حول تلك الاستقالة . البعض يرمونه بالتهور والحق والبعض الآخر يتعاطف معه لكن لا يفصح عن الرأى ولا ينحاز له جهرا .

ويجمع د . سلطان مجلس القسم لبحث استقالة محمود ، ويستدعيه لحضور الاجتماع وليناقش المجلس ولعله يقتنع برأيهم ويسترد استقالته .

ويتم الاجتماع ويمهد د. سلطان عارضا المشكلة ثم يبدى رأيه ويقول « وأرجو أن يفكر بروية ويقتنع بصعوبة البحث ويسترد استقالته . ثم يفتح المناقشة ويبدأ الأستاذ (س) « محمود جالى فعلا علشان اشرف على بحثه وأوضحت له أن المشكلة أكبر من أن تتحملها دكتوراه

أستاذ (ص) — إذا سلمنا . إن تجارب المعمل ح تنجح بفضل لها التطبيق الميدانى فى الحقول . ومن المحتمل جدا عدم حصولك على نفس النتائج وبالشكل ده فإن الدكتوراه بتاعتك ان تحل مشكلة الفول اللى انت متحمس لها .

محمود — وإيه ذنب الفلاحين اللى بيزرعوه . . . مش لازم حد من العلماء يحل مشكلتهم .

أستاذ (ف) — المسائل دى لها جهات مختصة . . . مش احنا .

أستاذ (ع) — الجامعة مهمتها تخريج القوى البشرية المتخصصة

وتكوين أجيال من العلماء . . دى رسالتها الأولى والأخيرة .

د . سلطان — بمعنى آخر إنك بعد الدكتوراه تقدر تساهم مع أى جهة تانية فى بحث الفول . . . خدنى مثل ، أنا أستاذ فى جامعة وفى الوقت نفسه عضو فى الهيئة العامة لمكافحة الآفات الزراعية .

محمود — يعنى أستنى أربع . . . خمس سنين كمان .

أستاذ مصرى — ومستعجل ليه . . . ما انت لسه صغير .

محمود — مع تقديرى لكل ما قيل فإنى لا زلت أرجو الموافقة على موضوعى . بلاش أقول إن الفول غذاء شعبى وبلاش أقول إنه مكمل للثروة الحيوانية . . . بلاش أقول إنه يعادل فى أهميته الثروة السمكية . . . كل الاعتبارات دى معروفه لسيادتكم لكن الأهم من ده كله شعور الفلاح إن الصفوة الممتازة من العلماء بتتعاطف مع متاعبه ومشاكله وتسعى لحلها له .

د . سلطان — كلام حلو يرفع ترمومتر المناقشة . . . ودلوقتى نتداول فى الموضوع وأشكرك يا سيد محمود .

وتكون عبارة الشكر تلميحا لمحمود ليترك الجلسة فيذهب ولا أمل عنده فى تحولهم عن رأيهم .

— ٦٢ —

ولا يبت مجلس القسم فى استقالة محمود ويتركها معلقة ، لا هو يقبلها ولا يرفضها . ويفضل د . سلطان أن يدع الأمور للزمن الذى قد يفل

إرادة محمود ويوهن إصراره ويفتر حماسه فيسترد استقالته ويسير على الدرب الذى سار عليه كل من سبقه .

وينقطع محمود عن الكلية .ويلزم داره ويقبع فى غرفته معظم نهاره. يعزف عن كل نشاط ويهجر كل عمل حتى المشتل والحديقة . وينعزل مفكرا فى أمره ومآله .

ويستعيد تلك الأسباب التى حاجه بها أساتذته ويتسائل منطقهم إليه ويترنح بين زخارف قولهم وبساطه معتقدة . تخايله تأويلاتهم وتهزه دعواهم وأسانيدهم . ويختلط عليه الأمر ،وتتشابك أمامه السبل يكاد يفقد الرؤية الصحيحة لولا تلك الحبات السمراء التى أخـــذها من أبيه يتحسسها بأصابعه المرتجفة فتشد من عزمه وتعصمه من التردى وتقيه منزلقا حادا . ويرتاح لهذا الثبات ولا يأسف على تركه هذا المجال .

وتلحظ العجوز ما ألم به فبعد نشاط جم وحركة دائبة ولبس أنيق ومظهر مرتب أصبح يائسا حزينا. لا تجرؤ الابتسامة أو تعبر وجهه . النظرات مكدودة ، والفم مطبق لا يصدر عنه إلا زفرات وتنهدات تبين وجيعته .

وتحترم العجوز صمته وتعد له الشاى وتواليه بالكوب تلو الآخر. وترمقه بنظرات مشفقة وقدتسأله « مش تقولى يابنى إيه اللىشاغلك.. فضفض عن قلبك ترتاح » .

لكنه لا يجيب بل ويمنحها ابتسامة ضعيفة يطمئنها بها ويهدىء من

روعها ويفاجأ بدخول زكريا عليه فى غرفته . ويتلقاه كما يلقى نسمة رطبة فى صحراء جافة ويرحب به « أهلا زكريا . . . إزيك » .

— إيه ده ياسى محمود . . ما بتجيش ليه ؟

— شوية تعب .

— سايبنا للكبير والصغير يفعص فينا .

— خير . . إيه اللى حصل ؟

— قاسم بك جه من يومين فى المشتل و معاه مهندس زراعى .

— وبعدين ؟

— لفوا على الأحواض وشافوا كل حاجه . وعند الأراولا قال شيل القصارى دى من هنا وحطها عند المساقى .

— مش كنت تقول له إن جذورها دقت فى الأرض ونقلها يضعفها .

— قلت ورد المهندس الجديد وقال مش مهم .

— الحكاية دى تعطلنا عن المسابقه .

— أرجعها تانى مطرحها ؟

— ما لوش فايده . . . أنا جاى لك بكره .

وفى المشتل يتجه محمود مباشرة لمعاينة أصص الأراولا ويعلق لزكريا « المسابقة ضاعت منا السنة دى خلاص » .

ويستمر محمود فى طوافه يفحص ويفرز ويرشد وينجز الكثير من الأعمال حتى الظهيرة ، فيجلس إلى شجرة ليرتاح ويتطلع إلى الخضرة والزهور التى أمامه ويتذكر أهله وقريته ويتساءل . . أليسوا أولى

بجهده وكده ؟

أليسوا أحق بكل قرش يستخرجه من تلك الأعواد النامية ؟

أليسوا أجدر بها من رفقى بك وأسرته ؟

ألم يلحظ أخيرا أن رفقى بك أخذ يتقمص شخصية الآمر الناهى ؟

ألم يتدخل فى أمور فنية كان يسلم له بها تسليما ؟

ثم تاسو هذا الفتى الغر أتى بمهندس زراعى ليمارس به سطوته .

ويصمم على لقاء تاسو ليضع الأمور فى نصابها وليضرب محاولاته من البداية .

ويدخل المعرض الذى لم يطرقه منذ أن رحلت رفيعة ويتلقاه تاسوا بابتسامة مزيفة قائلا « أهلا بالأستاذ محمود . . . »

ــ أنا كنت فى المشتل وعرفت إنك جبت مهندس زراعى جديد .

ــ علشان يساعدك .

ــ بس كان لازم أعرف وكان علشان يفهم إحنا بنشتغل إزاى .

ــ هو حصل حاجه ؟

ــ أيوه نقل قصارى الأراولا .

ــ (ضاحكا) وهى دى الحاجة الخطيرة اللى لازم يفهمها ؟

ــ خطيرة للى يفهم فى الزراعة .

ــ وهو يعنى مش متخرج ذيلك من كلية الزراعة ؟

ــ بس انا فاهم إيه اللى بأعمله وليه بأعمله . . . مش أى كلام وخلاص .

— عموما بسيطة .

— بسيطة ازاى المسابقة راحت علينا . ورفقى بك ح يزعل خالص .

— إذا كان على رفقى بك سهلة ... ح أكلمه وأشرح له اللى حصل .

— أحب أوضح لك طريقتى فى الشغل ... طول ما أنا مسئول عن المشتل محدش يتدخل فيه .

— وأحب أعرفك إنى صاحب الأرض والمشتل وأعمل اللى أنا عاوزه .

— فى الحالة دى ما اقدرش اشتغل بالطريقة دى .

— إنت حر .

ويذهب محمود غاضبا لجهل تاسو وغروره وتدخله فيما ليس له به علم ولا دراية . بل وربما يفسد المشتل وجميع مزروعاته ، لكنه لن يتطاول على حديقة، انه رأى من مسئولياته ومن صميم اختصاصه ويرى أنه ملزم بمزاولة نشاطه بها حتى لا تضار هى الأخرى ، فلا جريرة لرفقى بك ولا ذنب لرفيعة فيما يفعله تاسو .

لم يربطهما بتاسو . ولم يجمعهم معا فى إطار واحد . لم يخالط معنيات ذاك بمصالح هذين . فصل بينهم . لم ينعكس ضيقه بتاسو على علاقته برفيعة أو رفقى بك ، بل وأحس بمدى الخطأ الذى ارتكبه فى حقها بتركه الحديقة وإهمالها طوال المدة السابقة .

تؤخذ فايزه بوجود محمود أمامها فى المعمل . وتتراقص على وجهها ابتسامة مترددة . ويتقدم نحوها وقد بان على وجهه التعب وتحلقت عيناه بالسواد بينما تتسكع على فمه ابتسامة هزيلة هزالة . وتقودها قدماها اليه وقد رق قلبها لحاله . تود لو تأخذه إلى صدرها لتستوعب متاعبه وأشجانه فلم يسبق أن رأته بمثل تلك المعاناة والألم وتقول هامسة « أهلا محمود ... أهلا »

— ازيك يا فايزة .

— بخير وانت عامل إيه ؟

— استقلت من الكلية .

— عرفت.

— الدكتور سلطان رفض البحث بتاعى والأساتذة كلهم كمان .

— انت استعجلت فى الاستقالة .

— وجودى بالكلية أصبح بدون غرض ... بدون فايدة .

— الدكتوراه فى حد ذاتها هدف لمصلحتك .

— مش قادر أفرق بين اللى يخصنى واللى يهم أهلى .

— لو كنت صبرت كان محتمل الدكتور سلطان يقتنع برأيك لكن التحدى ده يعقد الأمور .

— الخلاف إللى بينى وبينه جذرى . الأساتذة كلهم بيبصوا للجامعة على أنها رسالتها تخريج الاخصائيين والعلماء والبحث بتاعى بيغير المفهوم ده . يبقى مش ممكن يوافقوا .

ـــ عموما انت تسرعت .

ـــ انتى يا فايزه حيرتينى ساعة تلومينى علشان اشتغلت فى الجلاديولاس ودلوقت بتغلطينى علشان التزمت بموقفى وبوعدى.

ـــ الصدمات تقوى الإنسان مش تضعفه وتخليه ياخد موقف سلبى .

ـــ والاستقالة عمل سلبى ولا إيجابى ؟

ـــ سلبى طبعا ، لأنك جمدت نفسك ومش أقادر تعمل حاجه دلوقت .

ـــ كان لازم أعمل كده علشان أرتاح .

ـــ طيب لو الدكتور سلطان بعت لك ... ترجع ؟

ـــ بأى وضع ؟

ـــ تسحب الاستقالة .

ـــ والدكتوراه . . .؟ والقول ؟

ـــ تركتهم الإتنين شويه .

ـــ المسألة دلوقت بقت موضـــوع كرامة وموقف التزمت به ، ومش ممكن أتراجع .

ـــ والحل ؟

ـــ أروح مكتب العمل وأشوف وظيفة ذى غيرى .

ـــ والغاية ما تلاقى وظيفة ح تعمل إيه ؟

ـــ امشى فى الشوارع . . أدخل سينما . . . استريح شوية ، ياما تعبت .

— عموما لازمك راحة علشان تفوق من نوبة اليأس اللى انت فيها .

— أنا تعبتك معاى يا فايزة ... وبشيلك ،همى لكن أعذرينى كان لازم أجيلك وأكلمك .

— أنا سعيدة انك جيت .

— انتى الشعاع الوحيد اللى بينور طريقى ويديني الأمل .

— لازم يبقى فيه أمل ؟

— صحيح يافايزة ... لسه فيه أمل ؟

ولا تستطيع فايزه أن تجيبه بلسانها لكن تمنحه جوابا بعينيها وأهدابها المهتزة ووجهها المتورد . وهو يتأملها فى لهفة ورجاء ... وأخيرا تجيبه برأسها . وتبعث فيه تلك اللفتة الثقة فى نفسه نحو سعى جديد وأمل جديد . ويشكرها ، مش عارف أقولك إيه يا فايزه إنتى دايما أسرانى بقلبك الكبير »

— (فى خجل) إبقى خلينا نعرف أخبارك .

— إن شاء الله ... ومتشكر ... متشكر قوى .

ويتركها محمود وقد لانت أسارير وجهها وترتاح أعصابها وتذهب توتراتها لمجرد حديث ودى وأمل خافت وموضوع يتجدد يربطهما فكرا وعقلا ومحتوى .

ويعود إلى غرفته وكلماتها لا تزال ترن فى أذنيه كنغم عذب يحرك أحلامه . ويوقظ ذكرياته . وينقله من واقع حائر إلى مستقبل أرحب وطريق أثبت .

وبينما هو فى تلك الأحلام تشد سمعه أصوات عديدة متداخلة

آتية من الصالة والعجوز ترحب . ويكاد بمشقة أن يميز من بينها صوت ناعم قادم من الماضى السحيق . صوت مألوف له ، ويرهف السمع .

الصوت الناعم — إزيك وحشانى .

العجوز — فينك ياختى من زمان مش باينه .

الصوت الناعم — فى الدنيا ... وليه ما بتجيش ؟

العجوز — ياريت أعرف عنوانك كنت جيت لك .

الصوت الناعم — ٣٨ ش صبرى بالزمالك شقة ١٦

العجوز — فى الزمالك !!! ... ألف مبروك .

الصوت الناعم — سبع مطارح وصالتين والفين جنيه خلو وحياتك .

العجوز — وده بقى اسم الله عليه إبنك ؟

الصوت الناعم — أيوه ... رفقى ... شفقى حلو إزاى .

صوت خشن — أنا سمعت ان العمارة دى معروضة للبيع .

العجوز — أيوه ... الورثة اختلفوا وكل واحد عاوز نصيبه .

الصوت الخشن — تبقى شروة ورخيصة على كده .

الصوت الناعم — نهدها ونبنى عمارة جديدة يا حاج .

الحاج — معقول ... على ناصية وشارع كبير ... نطلع بيها عشر أدوار .

الصوت الناعم — ونكتبها بإسم الولد .

الحاج — هو أنا عندى أغلى من رفقى وأم رفقى .

العجوز — (فى جزع) ولما تهدوها ... الغلابه اللى ذى يروحوا فين ؟

الصوت الناعم ــ أحجز لك شقة . . . بس ممنوع الإيجار من الباطن .

العجوز ــ (وهى تتلفت إلى غرفة محمود) . . . بس يعنى . . . محمو . . .

الصوت الناعم ــ (مقاطعة) برضه ممنوع .

العجوز ــ أمرك يا فاطمة هانم .

ويهم محمود باقتحام الباب لينبرى لها ويرد كيدها لكنه يتردد ويحجم خشية منها . . . أو تجنبا لقيل وقال وغضب واستفسار ، . . . وماضى ذهب وذال .

ويفيق من وقفته بجوار الباب على مغادرتهم الشقة بينما تقول فاطمة « تصبحى على خير »

العجوز ــ وانتى من أهله يافاطمة هانم .

ويخرج محمود من مكمنه وترتبك العجوز قليلا . ويواجهها قائلا : « أنا سمعت كل حاجة . . . ومن بكره ح أدور على سكن تانى »

ــ ايه يابنى ؟ . . . ده كلام وحديت لا يودى ولا يجيب .

ــ أنا ظروفى تغيرت ولازم أشرف سكن أرخص .

ــ اللى تقدر عليه أدفعه بس تفضل معاىَّ .

ــ لازم أعزل . . . مالوش لزوم تتعبى بسببى .

ــ مفيش تعب ولا حاجه .

ــ أصلها ح تيجى كل يوم . . . مش ح تسيبك ولا تريحك أنا أناعارفها كويس .

ـــ ده انت مونسنى يا بنى .

ـــ هى ح تونسك كتير قوى ... كل يوم .

ويدخل غرفته ليفكر فى هذا الموقف الطارىء الذى وإن لم يتوقعه فقد كان حريا به أن يتدبره بعد أن أصبح بلا وظيفة وبلا راتب. وبات عليه أن يختصر من تكاليف معيشته .

ويضمن محمود فى خط سيره اليومى،من وإلى القصر،عملا جديداً هو البحث عن سكن جديد زهيد . يتجول فى الشوارع الخلفية والحوارى والأزقة . يمضى مع الناس باحثا عن غرضه وقد ينسى نفسه بينهم وينسى مهمته. يجذبه زحامهم. يسير معهم على غير هدى. يسير بينهم بشعور تلقائى، ويجد الراحة والألفة وسطهم . يرقبهم ويتأملهم . يرى الكد على وجوههم المجهدة وفى عيونهم المتعبة وخلف نظاراتهم السميكة وفى أياديهم الخشنة أو المحروقة . ويدرك ثقل الحياة فى خطواتهم الجادة . ويشم التعب فى عرقهم . يندمج فيهم ويتابع خطاهم ويلتحم بهم . يشعر بينهم بالإنتماء وبالارتباط الذى فقده بعد أن أصبح بلا عمل ... بلا قرية ... بلا صديق .. إلا فايزة ولا أحد غيرها .. حتى رفيعة أصبحت بعيدة عنه بأكثر من المسافة التى تفرق بينهما الآن . لم تتذكره ببطاقة أو خطاب صغير منذ أن رحلت .

ويمضى بين الزحام ليزداد التحاما بالناس وليزداد التص بهم .

ويجد فى خطوه كما يجدون ويهرول كما يهرولون ، ويعرق كما يعرقون .

يشاهد الملصقات مثلهم . ويتأملها مثلهم . ثم يرى أمامه مطعم فو . القدور نحاسية لامعة والرائحة شهية ... تحرك أمعاءه وتحرك أشجانه .. الفول دائما أمامه ... وخلفه ... وحوله ... وفى أعماقه .

يرى المحال ومعروضاتها المكدسة . يحملق فيها مع غيره ، ثم يمضى مثلهم بدون شراء . . . زحام كثير وبيع قليل . . . ويتذكر أن الشهر الجديد قرب . وما الزحام إلا إعدادا لأوله المرتقب يتم فيه البيع والشراء ثم يعود الأمر كما كان . . . زحام كثير وبيع قليل .

ويمر بفاكهى جسور . . . يعرض من الفواكه عديدها ، الصيفية مع بقايا الشتوية فى تحدى واضح لفصول السنة . وفى الصدارة التفاح الأحمر والأصفر أكثر تحديا ، لا يزرع هنا ولا يستورد . . . لكنه طازج دائما وتجارته نشطة حاضرة . . . . عجيب ذلك التفاح .

ويسير ويلقى جمعا متحلقا ، وفى الوسط قرد وصاحبه يضرب له الدف ليرقص . وفجأة يندفع القرد إلى محمود قافزا على صدره . ويرتد محمود للخلف فزعا لكن سرعان ما يشد الرجل قرده ويهم بضربه لكن القرد يقفز إليه متعلقا بكتفه وكأنه يستعطفه . ويرميه الرجل إلى الأرض وينهال عليه ضربا حتى يشفق عليه محمود ويطلب منه أن يكف عنه . ويعقب الرجل « لولا البيه سامحك كنت دبحتك ياقرد الكلب »

ويضع القرد أحد أطرافه على وجهه فى استحياء وخجل ويضحك الواقفين وضمنا محمود .

وتجذبه ملصقات إحدى دور السينما . فيلمان عظيمان فى برنامج واحد . ويزمع الدخول لكنه يتفقد حافظته فلا يجدها ويبحث فى جيوبه فلا يعثر عليها . ويتهم القرد وصاحبه ويهرع إلى الشوارع القريبة يسأل هاك وذاك فلا يجد لهما أثرا ويعقب البعض على الحادث إما ناصحا وإما مواسيا .

— لازم تروح القسم يابيه .

— وهي فيه فايدة ؟ ... زمانه جرى ... ربنا يعوضك .

— وهو معقول البوليس يمسكه دى البلد فيها الف حرامي .

— آهى برضه تروح تبلغ على الأقل علشان البطاقة الشخصية وبطاقة التموين .

ويتردد محمود بين الذهاب إلى الشرطة أو للنكوص أو بين السعى والاستسلام لكن تغلب عليه طبيعته فيلجأ إلى الشرطة ويدلى بما حدث ويصف الرجل . ويخرج من مبنى الشرطة راضيا عما فعله وإن لم يأمل كثيراً فى إستعادة حافظته.

الفصل الخامس عشر

العـــــــــودة

— ٦٤ —

وتصل محمودا برقية من رفيعة تخبره بموعد عودتها ، فيخطر كل من فى القصر بذلك النبأ العظيم . ويتجهز الجميع لعودة الظافرين واستقبالها . وتدب الحركة والنشاط فى أرجاء القصر وتفتح النوافذ المغلقة وتعد الغرف والصالات لاستقبال العائدين وترفع أغطية الحشايا والوسائد والكراسى وتزحف النظافة إلى كل ركن ، حتى العربة تجهز ... وتعد .

ويتردد محمود قليلا بين الذهاب إلى المطار أو الانتظار بالقصر تجنبا لمواجهة تاسوا وسعيه الدؤوب إلى رفيعة ، يريد أن يستخلصها لنفسه . لكنه يقرر الذهاب ليرى بعينه ما يمكن أن يحدث بدلا من الظن والتخمين أو الجهل المرير .

ويدخل المطار ويقف فى صالة المنتظرين وتعلن المضيفة عن وصول الطائرة القادمه من روما . ويلمح تاسو يزاحم الواقفين ويمرق إلى الصالة الممنوعة ويبرز تصريحا للحارس الذى ما أن يطلع عليه حتى يسمح له بالدخول بين مظاهر الاحترام والتبجيل . ويدهش محمود لهذا العبور ، ويعجب لذلك الفتى القادر على النفاذ وتخطى القوائم والحواجز فى يسر وسهولة .

ويلمح محمود رفعية فى ثوب أنيق تتلفت هنا وهناك فى بهجة

وسرور وخلفها رفقى بك جاد المظهر مرفوع الرأس فى تعالى وثقة.
ويندفع إليهما تاسو يحتضنهما ويقبلهما بحرارة أكثر مما فعل فى لحظة
الوداع السابقة. وتتقبل رفيعة استقباله الحار بابتسامه عريضة راضية
هانئة. ويختفون بين جموع القادمين ويتحرك محمود نحو الباب ليتمكن
من رؤيتهم فيقترب منه اكثر مما هو محدد فيعترضه الحارس ...
نفس الحارس .. وفى صوت أجش « ممنوع يا حضرة ... ممنوع »
وينظر إليه محمود بعد أن ارتد للخلف وهو يرمقه بنظرة متسائلة ...
محرس ما ؟ ... ممن ؟ ... ولما ؟

ويتابع المسرحية فيرى تاسو يتصدى لموظف الجمرك ويحادثه قليلا
بينما وقفت رفيعة وأبوها يلحظان حقائبهما الكثيرة فى هدوء ويقين .
وفى دقائق يستطيع تاسو أن ينجز إجراءات خروجهما ويعبرون الباب،
فرحين منتصرين والحمالون من خلفهم بالحقائب العديدة .

وتلمح رفيعة محمودا وتلوح له بذراعها البيضاء ... التى بدت
أكثر بياضا ويتقدم نحوها ويعانقهـــا ثم تتخلص منه وتسأله
« وحشتك ؟ »

ـــ طبعا .

ثم يصافح رفقى بك الذى يهز يده فى شدة وقوة قائلا « إزيك
يا محمود ... لعل كل حاجة تكون تمام . »

محمود ـــ إن شاء الله .

وفى العربة يستمر الحوار .

رفقى بك ـــ رحلة كانت موفقة من جميعه .

تاسو ـــ اتفقت على حاجة يا أنكل ؟

رفقى بك ـــ حاجات كتيرة ... باختصار اعتبرنى اكبر

مصدر ومستورد لزهور الزينة فى البلد .

تاسو - دى حاجة عظيمة .

رفقى بك — عاوز أراجع معاك الحسابات بكرة .

تاسو — مش ح أقدر ... بكرة ح العب مع فرقتى فى تامرينا .

رفيعه — بتلعب دلوقتى فى تامرينا ... هايل

رفقى بك — وعامل إيه فى المشتل يامحمود ؟

تاسو — أنا عاوز اشتكى لك محمود يا أنكل .

رفقى بك — ليه ... حصل حاجة ؟

تاسو — مش عاوز يشتغل فى المشتل علشان جبت مهندس جديد .

رفقى بك — (بحدة) إزاى الكلام ده يا محمود ؟

محمود — ....

وتصل العربة إلى القصر ويهبطون منها وسط إمارات الترحيب والتحيات والسلام . ويلاحقهم الخدم بالمصافحة واثم اليد التى يتركها لهم رفقى بك فى سعادة .

وفى الصالة يستأنف الحديث .

رفقى بك — أنا منبه عليكم مش عاوز خلافات .

محمود — طالما أنا مكلف بالمشتل يبقى مفيش حد يتدخل فى عملى .

تاسو — وأنا حر فى أرضى ... أعمل اللى أناعاوزه .

رفقى بك — طبعا ... طبعا بس كان لازم تستنى انا يقما أرجع .

محمود — ونقل قصارى الأراولا وضاعت منا المسابقة .

رفقى بك — كان لازم تفهمه كل حاجة .. مش تسيب المشتل ؟

رفيعة — يا دادى خلاص ... المسابقة والكاس مالوش لزوم ... إحنا بقينا حاجه تانيه ... كفاية العقود اللى معانا

رفقى بك — معاكى حق ياروق ... مطلوب منى ميتين ألف وردة بلدى وميت ألف جلاديولاس وخمسين الف أراولا وأربعين الف بنت القنصل .

تاسو — (بذهول) دى حاجة مش معقولة ... ح نزرعها ازاى دى .

رفقى بك — (ضاحكا) أنا ح أشغل مشاتل لحسابى ... أديهم أبصال وبذور وآخد زهور كاملة ... والدفع بعد التصدير ... واللى عاجبه على كده يشتغل معاى .

رفيعة — برافو يادادى ... برافو .. آهو انت دلوقتى بقيت دادى بتاع زمان .

رفقى بك —(موجهاً كلامه إلى ابنته) جميع طلباتك ح أنفذها ... حساب خصوصى فى البنك ... عربية خاصة أحدث موديل ... سفر لأوربا كل موسم ... إيه كان اطلبى .

رفيعة — مرسى يادادى .. مرسى خالص .

وتنهض مندفعة إليه تقبله منفعلة بحماسه وآمانيه الواسعة ويعقب رفقى بك « الموضوع ده يلزمه حفلة »

تاسو — الحفلة دى عندى ... فى تامرينا ... لو سمحت أ نكل .

رفقى بك — ماعنديش مانع .

رفيعه — موافقة .

تاسو — وكان الأستاذ محمود يتفضل معانا .

رفيعة — طبعا مودى لازم يجى .

— ٦٥ —

الموسيقى تنساب والنسيم يهمس للاغصان والأشجار والجالسين والراقصين . يتسلل إلى الشعور الناعمة يداعبها لتخبط الأعناق والنحور والصدور العارية . ملاعب مداعب عفريت عربيد .

الضوء الخافت يرقق العواطف ويهدهد النظرات ويرخى الأعصاب إلا أعصاب محمود المتوترة ، فهى مشدودة بسلاسل من حديد ، على طرفيها وحشان جباران يتصارعان فى اتجاهين معاكسين ، وهو بينهما يتفسخ وينشطر ، وقلبه ينفطر وعقله ينفجر . ها هى رفيعة الفاتنة فى أحضان تاسو يراقصها منذ ساعة أو يزيد دون تعب أو كلل . وإلى جواره رفقى بك مرحا متألقا لا يترك الكأس فارغة حتى يملأها ويستحث محمود لمشاركته . بل ويبدى له بين الحين والآخر إعجابه بابنته ويطرى جمالها ورقصها .

ومحمود يسمع ويحترق وتزيده الخمر احتراقا واشتعالا . لكن النسيم يلفحه ، ويكشف عنه غلالات الخمر والضباب .... والأبعاد والمسافات .... والجذور والأصول .

وتتحرك رفيعة فى انسياب واتساق مع تاسو فى براعة تفتك بمحمود . يبعدها حينا ويقربها حينا فى خفة ماجنة ثم يختفى بهما فى خضم

الراقصين المتعانقين . ويغلى محمود ، لا غليان الغيرة ، بقدر ما هو غليان المهان المضان .

وتتوقف الموسيقى وتخترقان حلبة الرقص ، تستند إليه استنادة المستسلمة المستكينة . تناجيه بعينيها وشعرها وثغرها ... لولا المكان لناجته بكل خلجة من خلجاتها . وتجلس الفاتنة وهى لازالت ترمقه وتقول له فى صوت ساخن « مرسى يا تاسو مرقصتش" بالجمال ده حتى وأنا فى أوربا »

رفقى بك — المرة اللى جايه نسفره معانا .

تاسو — مرسى يا أنكل .

رفقى بك — (ملتفتا إلى محمود) والبركة فى محمود يبقى يشوف المعرض وكل حاجة .

محمود — .....

رفيعة — لأ كتير على مودى الشغل ده .

رفقى بك — قدها وقدود ...مش كده يا محمود ؟

محمود — ...

رفيعة — ما بتردش ليه على دادى ؟

محمود — فيه مثل فى بلدنا بيقول « كلام الليل مدهون بزبده يطلع عليه النهار يسيح . »

رفيعة — أمثال بايخه .

محمود — بس صحيحة .

رفقى بك — (حانقا) فيه حاجة فى كلامى مش عجباك ؟

محمود — كله .

رفيعة — إيه ده يا محمود ؟ ... انت نرفيز خالص النهاردة ..

محمود — .. (مشيرا اليهم بيده) ما إنتم السبب .

رفقى بك — احنا السبب... وإلا اللى مشغلينك ومعيشينك .

محمود — مشروعاتى من غيرها يمكن زمانك فلست .

رفيعة — انت مجنون ... ولا نسيت نفسك ؟

محمود — أنا كنت مجنون وعقلت ... شفت الحقيقه ... عرفتكم على أصلكم ... اللى تحتاجوه تحترموه ... انتى بالذات عواطفك متركبة على مصالحك ... مستعده تحبى وتتجوزى الشخص اللى ينفعك ويفيدك .

ويشتعل غضب رفيعة وتخلع خاتم الخطبة من أصبعها وتقذفه به قائلة « بيزان (فلاح) واطى »

ويقف محمود ثائرا ويخلع هو الآخر خاتمه ويرميها به ويستدير مغادرا المكان فى غضب عارم .

— ٦٦ —

لم يبق له إلا فايزه . صال وجال وذهب هنا وهناك ، وسار من من حقل لآخر ومن حديقة إلى مشتل ومن حوض لحوض . زرع فى كل مكان ، هناك وذاك ، لكنه لم يزرع لنفسه ، ولم يحصد إلا مرارة التجربة والتمزق والتخبط فى منعرجات الحياة . شرد فى دروبها ومسالكها .

أحب الأرض وعشق الفلاحة وارتضى فى سبيلها أن يعمل فى أى بقعة ، وأن يزرع فى أى تربة . لم يسأل لمن الأرض . كل ما كان يريده أن يزرع وينبت ويثمر .

وفايزه ليست لها أرض ولا حقل لكنه مشغوف بها كشغفه بالأرض يريد أن يلتصق بها كحاجته للالتصاق بالأرض . انها أمله الباقى . . ماذا لو رفضته ماذا لو تأبت وتمنعت ؟ لا . . . لا . . . لازالت تكن له ودا ، وتؤثره بعطفها وحبها . . . لن تدعه للخواء . لن تتركه لليأس والضياع . . . لن تخذله .

ويدخل إليها فى معملها . . . نفس المكان . . . نفس الإطار نفس المعطف الأبيض . . . نفس الحركة الدؤوب . نفس الشعر المعقوص للخلف .

وتلمحه . . . . وتبتسم وتتوقف حتى يقترب منها وتهمس له مرحبة « أهلا محمود »

— أهلا فايزه

ويتلمس بعينيه وجهها . . . ويتحسس أمله على ثغرها . وتتسع ابتسامتها لنظراته الجائلة وتقول له «كنت عند الدكتور سلطان امبارح » فيتجهم وجهه دون أن يعلق وتستمر « وجاب سيرتك . . . وقال إن الهيئة العامة لمكافحة الآفات الزراعية « ناوية تنشط أبحاث الفول السنة دى »

— وأنا إيه علاقتى بالموضوع ؟

— محتمل جدا الهيئة تكلف الدكتور سلطان بالأبحاث دى . يعنى ح يحتاج لك وتشتغل معاه .

— يعنى لازم يحتاج لى علشان يوافق على موضوع الدكتوراه .

ـــ خلى عندك ثقة بالحياه وبالناس .
ـــ انا لو كنت فقدت ثقتى بالحياة ماكنتش جيت لك هنا .
ـــ بتقول كلام بينما تصرفاتك حاجه ثانية .
ـــ حتى لو قلت لك إنى اتحررت من رفقى بك وآل رفقى بك ...
أرجو تصدقينى ... وتصدقى أملى فى الحياة ؟ وفيكى ؟ وفى الناس ؟

وبهذا التصريح المفاجىء الفجائى تنتفض فايزه انتفاضة شديدة وترتبك وتحرك يديها حائرة دون أن تجيب أو تعقب .

وتظل هى على تلك الحال بينما ينتابه القلق من صمتها وعزوفها عن الإجابة . ويتوجس خيفة أن يفقدها وأن تفلت منه كما حدث فى الماضى . ولا يجد سبيلا لأن يجتاز حاجز الصمت إلا بالكلام ... ليقول شيئا ما ... أى شيء امل أذنها تلتقط عبارة تحركها أو كلمة تنفذ إلى قلبها . يريد أن يعيد الارسال والاستقبال بينهما .. يريد أن يستعيد النبض ... نبض الحياة بينهما . وهى واقفة واجمة شاردة ويقول « وقفتنا دى بتفكرنى بأول مرة قابلتك فيها لما خدت منك الكتاب كنت مش عارف أقولك إيه ... كنت بادور على أى موضوع أكلمك عنه علشان تفضى معاى أطول مدة ممكنة .!! »

وبعد صمت قليل يقول « كنت عاوزك ..... »

« ومن يومين كنت ماشى وانتشلت وضاعت محفظتى ... وكان قدامى حلين ... أروح أبلغ الشرطه او أصهين وفضلت إنى أعمل حاجة إيجابية علشان أرجع المحفظة ويمكن ما ترجعش .. ويمكن إنتى كان ما تصفحيش لكن لازم آجى وأحاول لأن لسه عندى أمل .... »

وتظل فايزه مطرقة تنصت الكلماته دون أن يبدر منها بادرة تنم بها

عما فى نفسها . ويعتقد محمود أنها لم تصفح ولم تقتنع ولم تنس فيمد لها يده مصالحا مودعا . وتنتبه فايزة على يده الممدودة لها وتفيق من جمودها وتنظر اليه وتردد بعد أن أدركت معنى يده الممدودة لها « لا .. لا ... لا ... ما تمشيش استنى ... استنى »

وتتركه فجأة وتتحرك بسرعة لتختفى فى غرفة جانبية وتعود اليه بعد لحظة خالها دهرا وقد خلعت معطفها الابيض وبدت فى ثوبها البسيط . بدت أكثر شبابا ونضارة ؛ خاصة بعد أرسلت شعرها لينسدل على كتفيها فى حرية وانطلاق يحمل اليه ردا لسؤاله الذى لم تجبه بلسانها

ويظل يرمقها وهى تقترب منه وكأنه يراها لأول مره أو كأنه يرى نفسه من خلالها لأول مرة، وابتسامتها تشرق اشراقة تتسع له ولأمانيه بل للحياة كلها ... بما فيها من عناء وهناء وكدر وصفاء وكفاح وفلاح . ثم يمضيان إلى الخارج فى خطوات ثابتة متسقة متوافقة .

* * *

الناشر

دار النهضة العربية



ص
٣٠ (٣٦٠ صفحة)